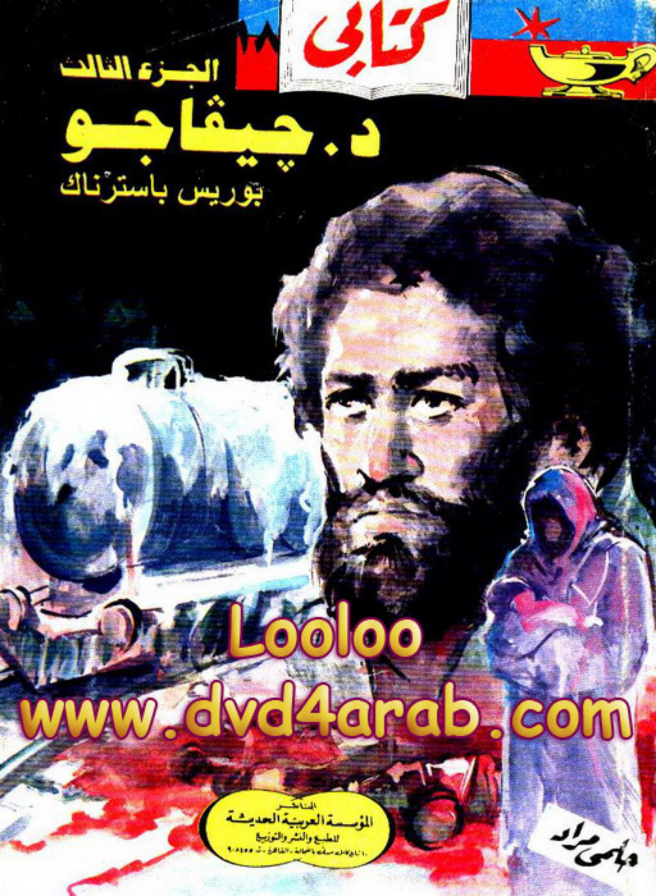


كتابي
الجزء الثالث
د. جيفاجو
بوريس باسترناك
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



الجزء الثالث

د . چيڤاجو

بوريس باسترناك

راجعها وحققها على النصين
الإنجليزى والفرنسى

حلمى مراد

الفصل الثامن

الوصول

- ١ -

كان القطار الذى اقل اسرة جيفاجو لا يزال واقفـا فى المحطة ، وقد حجبته القطارات الأخرى . ولكن الأسرة شعرت فى ذلك الصـباح — ولأول مرة — بأن صلتهـا بموسكو قـد انفصمت ، بل انتهت .. لقد اصبحت الأسرة ، منذ ذاك الوقت فى أرض أخرى .. فى عالم ريفى جديد ومختلف عن ذلك الذى كانوا فيـه .. عالم له خصـائصه و « مركز ثقلـه » الذى لا يشاركه فيه عالم آخر !

وبدا من الواضح لأول وهلة أن الناس هنا يعيشون فى ترابط . انهم اقرب إلى بعضـهم البعض منهم فى موسـكو او بطـرسبورج . ورغم ان منطقـة المحطـة كانت معزولة ، ودخولها محرما على المدنيين ، فقد عمل المسافرون بالقطارات المحلية — بطريقة او بأخرى — على ان يتسللوا منها (كمـا يمكن أن نقول الآن) . كانت العربـات مفعمـة بهم ، وقـد احتشدوا على الأبواب ، أو وقفوا يتسكعون أمامها .

وتعارف الجميع بدون استثناء . كانوا يلوحون وينادون حين يلمح بعضهم بعضا ، وكانوا يتبادلون التهانى كلما مـر احدهم بالآخر .

وكانت طريقة حديثهم ، وزيهم ، وطعامهم ، وتصرفاتهم ، تختلف بعض الشىء عن تلك التى يتصف بها سكان الحواضر والعواصم .. وراح « يورى » يسأل نفسه : « تـرى كيف يحصلون على معاشهم ؟ ما هى مواردهم المـادية ، وما هى مصادر دخلهم واهتماماتهم ؟ وكيف يسايرون مصاعب الزمن ، بل كيف يروغون من القانون ؟ » .

ولم يمض وقت طويل حتى عرف الإجابة عن الأسئلة !

- ٢ -

وعاد « يورى » إلى العربة ، يتبعه الديدبان الذى كان يجر بندقيته ، ويتوكأ عليها كأنها عصا .. وكان اليـوم حارا تشيع فيه الرطوبة ، وبدت القضبان واسطح العربات وكأنها كانت تنصهر .. كما بدت الأرض — التى اسـود لونهـا من الزيت — تلمع وكأنها كسيت بطبقـة معدنيـة ! .. واخذت بندقية الديدبان تثير الغبار كأنها محراث يشق الخطوط فى ارض جافة . وبين حين وحين ترتطم بـ « الفلنكات » الخشبية التى بين القضبان .

وقال الديدبان : « لقد استقر الجو ، وجـاء اوان بذر الحنطة والشوفان والذرة العويجة .. إنه خير جو مناسـب للمحصولات . ولكنه مبكر بالنسبة للحنطة السوداء ، فنحن — فى البلد الذى جئت منه — نبذر الحنطـة السوداء فى عيـد « اكوالينا » . اننى لست من هـذه المنطقـة ، بل انـا من (مورزانسك) ، بالقـرب من (طمبوف) . اواه ، ايها الرفيق

الطبيب .. لو لم تكن هذه الحرب الأهلية ، ووباء الثورة على الثورة ، فهل ترانى كنت أضيع وقتى بوجودى فى الغربة فى هذا الموسم ؟ .. إن حرب الطبقات شقت ما بيننا كقط أسود ، وهذه هى .. انظر ماذا فعلت بنا ! » .

– ٣ –

وامتدت الأيدى من العربة لتعاون « يورى » على الصعود ، فشكر الذين تطوعوا لمساعدته ، وطمأنهم إلى أنه قادر على الصعود بنفسه .. وحين دخل العربة ضم زوجته إلى صدره وهو يقول : « ها نحن اخيرا ! .. الحمد لله ، لنشكر الله على أن انتهى الأمر بهذا الشكل ! » .. وكانت زوجته تردد مرة بعد أخرى : « الواقع أننا كنا نعرف انك على حق .. كنا نعرف انك على حق ! » .

– ماذا تقصدين بقولك انكم كنتم تعرفون اننى على حق؟

– لقد جاء الحراس وعرفونا بما كان يجرى .. كيف كان يمكننا أن نحتمل الشك ؟ .. لقد كدنا – أبى وانا – ان نجن . ها هو ذا ينام مل ءجفنيه فلا تستطيع أن توقظه . لقد نام ككتلة من الخشب ، بعد كل ما مر بنا من أحداث مثيرة . إن هناك ركابا جدد كايرين ، وساعرفك بالجميع فى لحظات .. ولكن ، انصت إلى ما يتحدثون عنه : انهم جميعا يهنئونك بنجاحك فى الفرار . وهذا هو ..

ودارت فجأة ، ثم قدمت زوجها – من خلف كتفيها – إلى واحد من المسافرين الجدد ، كان الزحام قد حشره فى مؤخرة

العربة . وقدم الغريب نفسه ، وهو يرفع قبعته الطرية فوق رءوس من كانوا حوله ، مناضلا لكى يتقدم بين الأجساد المتلاصقة بسبب الزحام .. فقال : « اسمى سامديفياتوف »

.. وردد يورى الاسم فى ذهنه : « سامديفياتوف ! .. مثل هذا الاسم قمين بأن ينبىء بأن صاحبه قادم لتوه من إحدى الأساطير الشعرية الروسية القديمة ، وأنه ذو لحية ضخمة ، وعباءة ، وحزام مرصع بأزرار حديدية .. ولكن هذا الرجل يبدو كأنه أحد أعضاء نادى الفنانين المحلى ، بشعره المجعد الذى دب فيه الشيب ، وشاربه ، ولحيته ! » .

وقال سامديفياتوف : « قلَ الحق .. .. هل اخافك ستريلنيكوف ؟ » .

– أبدا .. بل إننا استمتعنا بحوار طريف .. إن له شخصية قوية فى الواقع !

– اعتقد هذا ، فقد كونت لنفسى فكرة عن شكله ، إذ انه ليس من هذه المنطقة .. إنه واحد منكم يا أهل موسكو .. كمعظم « تقليعاتنا » ومستحدثاتنا ، فهى جميعا مستوردة من العاصمة ، وما كان لنا نحن أن نفكر فيها .

وقالت تونيا : « يا عزيزى يورى ، إن « سامديفياتوف » يعرف كل الناس ، وقد سمع عنك وعن والدك .. إنه يعرف كل الناس ! .. ما أحسبك الا قد قابلت المدرس يا انتيبوفا »

.. وبدا كأن لسانها قد أفلت عفوا ، فقال سامديفياتوف بنبرة

خاصة : « ما شأن انتيبوفا ؟ » . وكان يورى يسمع الحديث ، ولكنه لم يشترك فيه. بينما واصلت تونيا كلامها قائلة لزوجها:

ــ إن « سامديفياتوف » بلشفيكى ، فخذ حذرك منــه يا عزيزى ، إن عليك ان تلزم احسن سلوك !

فقال يورى للرجل : « احق هذا ؟ .. ما خطر ببــالى اطلاقا .. بل لقد كنت خليقا بان احسبك فنانا ، فى اى لون من الوان الفنون » .

ــإن لأبى حانة تؤجر العربات ، وعنــدنا نحو ســبع عربات تعمل على الطريق .. ولكنى التحقت بالجامعة ، وأنا فعلا « ماركسى » ..

ــ انصت يا « يورا » إلى ما قاله « سامديفياتوف » لى .. وبهذه المناســبة ، ارجــو ان لا يضــايقك ان اقــول ــ يا سامديفياتوف ــ إن اسمك واسم عائلتك يلويان اللســان حقا .. انصت يا عزيزى إلى ما قاله لى : « لقد كنا ســعداء إلى اقصى حدود السعادة ! » .. إن (يوياتين) الوسطى لن تؤوى القطار ، إذ ان جزءا من البلدة يحترق ، كمــا نسـفت القنطرة ، ولم يعد فى الامكان المرور . وهكذا سيحول قطارنا إلى خط آخر .. ومن المصادفة ان يكون هــذا الخط هو عين ما ينبغى ونتمنى .. إنه الخط الذى يوصلنا إلى محطتنا ، إلى (تورفيانايا) .. اليس هذا بديعا حقا ؟ .. لم يعد علينا ان ننتقل بكل متاعنا هذا من محطة إلى اخرى ، بل إننا سنبقى فى القطار . ويقول « سامديفياتوف » ــ من ناحية اخرى ــ إن

هذا القطار سيقضى ساعات فى مناورات ، ذهابا وجيئة ، قبل ان يتأهب للرحيل !

ــ ٤ ــ

وكانت تونيا على حق ، فقد ازدوجت العربات تارة ، ثم فصلت عن بعضها تارة اخرى ، وراح القطــار يتنقل إلى غير نهاية على مختلف الخطوط المزدحمة ، فقد كانت عليهــا قطارات اخرى تقف حائلا دون انطلاقه إلى الريف المكشوف . وكانت المدينة هناك على مرمى البصر ، تكاد تكون مختفية بين الأراضى الزراعية . تبدو اسطح بيوتها ، ومداخن مصانعها ، وصلبان كنائسها ، من بعيد بين الحين والحين . وكانت إحدى ضواحيها تحترق ، وقد راح الدخان ينعقد فى السماء ، فبــدا كعرف الفرس تعبث به الرياح .

وجلس يورى وسامديفياتوف على ارض العربة وقــد تدلت ارجلها من حافتها ، وراح سامديفياتوف يشير إلى الأفق ويشرح ليورى ما يشاهدانه من منــاظر ، وبين الفينة والفينة اخذ القطار يزيد من سرعتــه ، فيضيع الصــوت فى زحمــة الضجيج .. وإذ ذاك كان الرجل يميل إلى جانبه ، مقربا فمه من اذن يورى ، ليعيد ما قال فى صراخ مبحوح :

ــ هذه هى السينما الكبرى التى احرقوها ، كان طلبة المدرسة الحربية يعسكرون فيها ، وكلنهم سرعان ما سلموا ، وعلى العمــوم فالحــرب لم تنته بعــد . هل ترى تلك النقط



وجلس يورى وسامديفياتوف على ارض العربة وقد تدلت ارجلهما من حافتها ، وراح سامديفياتوف يشير الى الافق ويشرح ليورى ..

السـوداء على ابراج الكنـائس ؟ انهم رجـالنا يتصـيدون التشيكوسلوفاكيين .

ــ لست ارى شيئا . لعمرى كيف تسـتطيع ان تراهم على هذا البعد ؟ !

ــ وهذا حى الصناع ، المعروف باسم « خوكريكى » ، إنه يحترق ايضا . اما حى « خولودييفو » ــ حيث الحوانيت ــ نيقع بعده . ويرجع اهتمامى بهذه المنطقة إلى ان حانتنا هناك . ومن حسن الحظ ان النيران لم تلتهم إلا الضواحى ولم تصل إلى مركز المدينة ..

ــ ماذا تقول ؟

ــ اقول إن مركز المدينة لم يمس بعد .. اعنى وسـط المدينة .. الكاتدرائية والمكتبة ، إن اسـم « سامديفياتوف » هو اسم روسى من سان دونـاتو ، والمفروض اننا من سلالة ديميدوف .

ــ ما زلت لا استطيع ان اسمعك .

ــ قلت إن «سامديفياتوف» من سان دوناتو . ويقولون اننا فرع من اسرة ديميدوف ، الأمير « ديميدوف سان دوناتو » ، ولكنها قد تكون إحدى اساطير الأسرة . وهذه المنطقة يطلقون عليها اسم « وادى سبيركا » ، وهى مليئة بالفيلات الجميلة ، ويأتى الناس إليها لقضاء ساعات مرحة .. إن اسمها عجب .. أليس كذلك ؟

وكان فى مواجهتهم واد تقاطعه دروب متفرعة ، وكانت اعمدة التلغراف تبدو فى الأفق كما لو كانت مردة يبعد كل منها عن الآخر بمسافات متساوية . وكان الطريق المتعرج ينافس فى جماله شريط السكة الحديد . وبدا كأنما اختفى الطريق على مدى البصر ، ثم عاد يبدو واضحا فى منعطف ، ثم اختفى مرة اخرى .

ــ هذا هو طريقنا الشهير ، إنه يسير قدما حتى يخترق سيبريا ، ولقد اعتاد المنفيون ان يذكروه فى اغانيهم ، واصبح الآن قاعدة لعمليات الصناع . سيعجبك الحال هنا . إنه كما ترى لا بأس به ، وستعتاد عليه وتهفو إليه نفسك ، بل ستستوحشه إذا غادرته . وستجد فى المدينة طابعا قديما يميزها : هناك طلمبات المياه مثلاً ، وصفوف النساء التى تقف فى طوابير فى مفارق الطرق . انهن يعتبرن تلك الوقفة بمثابة « ناد » فى الهواء الطلق يجتمعون فيه طوال الشتاء !

ــ اننا لن نقيم فى المدينة ، وإنما نقصد ضاحية (فاريكينو) .

ــ اعلم ذلك . لقد حدثتنى به زوجتك . لكن ذلك لا يغير من الأمر شيئا ، فسوف تأتى إلى المدينة لقضاء مصالحك . لقد خمنت من تكون زوجتك بمجرد ان لمحتها . إنها الصورة الحية لكروجر : العينان، الأنف ، الجبهة ، صورة طبق الأصل من جدها . إن كل اهل المنطقة يذكرونه .

وظهرت فى الأفق مجموعات من صهاريج البترول الحمراء ، ولوحات إعلانية ضخمة ترفعها اعمدة طويلة من

الخشب ، اجتذب احدها نظر يورى . كان مكررا مرتين وقد كتب عليه « موروفيتشينكين . بذارات آلات دراس » .

ــ كانت مؤسسة مفيدة .. آلاتها الزراعية من اعلى درجة .

ــ لست أسمعك .. ماذا تقول ؟

ــ قلت مؤسسة مفيدة .. الا تسمع ؟ مؤسسة مفيدة . كانت تصنع الآلات الزراعية . كانت شركة ذات مسئولية محدودة وكان والدى من المساهمين فيها .

ــ اظنك قلت إنه صاحب حانة ..

ــ نعم ، إنه لكذلك . ولكن ذلك لا يمنعه من أن يساهم فى الشركات . انه استثمار ناجح لأمواله بلا شك . وكان يساهم ايضا فى السينما الكبرى .

ــ يبدو من طريقة حديثك انك فخور بذلك ؟

ــ بنجاح أبى وذكائه ؟ .. لا شك انى فخور !

ــ وماذا عن ماركسيتك ؟

ــ يا إلهى .. ! وما صلة هذا بذاك ؟ بحق الأرض لماذا ينبغى ان يكون الرجل مغفلا إذا اعتنق الماركسية ؟ إن الماركسية علم إيجابى ، إنها عقيدة واقعية ، وفلسفة للتاريخ .

ــ الماركسية علم ؟ ! انها مخاطرة ان يقول المرء ذلك .. ان يتناقش فيه مع رجل بالكاد يعرفه ! ولكن ، فليكن ما يكون إن الماركسية لم تتحكم فى ذاتها إلى الدرجة التى تجعلها علما ، فالعلم اكثر اتزانا . وانت تتحدث عن الماركسية موضوعيا . اننى لا اعرف تعاليم تركز همها حول ذاتها وتتباعد عن

الحقائق مثل الماركسية . وقد جرت عادة الناس أن يهتموا باختيار نظرياتهم عمليا ، وأن يتعلموا من التجربة ، ولكن اولئك الذين يدينون بالقوة يتوقون إلى بناء خرافة لا يأتيها الباطل ، ويولون ظهورهم بعدها إلى الحق بقدر استطاعتهم. إن السياسة لا تعنى شيئا بالنسبة لى . غير انى لا احب الناس الذين لا يبالون بالحق .

واعتبر « سامديفياتوف » كلمات « يورى » من قبيل سفسطة رجل عنيد ، فاستمع إليها وعلى فمه ابتسامة ! .. وكان القطار لا يزال يحاور ويناور . وفى كل مرة كان يصل فيها إلى قرب الاشارة الخاصة بالتحرك كانت هناك امراة — ربطت وعاء اللبن فى خصرها — تتوقف عن تحريك إبر « التريكو » بين يديها وتنحنى لتدوس على صمام الاشارة ، فيعود القطار مرة أخرى فى اتجاه المدينة . وحين اخذ يتحرك فى بطء جلست وراحت تهز قبضتها كما لو كانت تهدده ..

وبدا اهتمام « سامديفياتوف » شخصيا بما تفعل ، فراح يتساءل : لماذا يا ترى تفعل هذا ؟ إن وجهها مالوف لى . لعلها « جلاشا تونتسيفا » ؟ كلا .. لا اعتقد انها يمكن ان تكون جلاشا . إنها تبدو مسنة جدا . وعلى كل حال ، اى ضغينة فى نفسها ضدى ؟ لعلها تعتقد اننى السبب فيما يحيق بروسيا الأم من كرب وانشقاق ، ولذلك تلومنى وتهز قبضتها فى وجهى ! ؟ ولكن ، مهما كان الأمر فلنذهب إلى الجحيم .. يبدو كانه ليست هناك اشياء اخرى افكر فيها !

أمرت فترة طويلة هزت المراة بعدها علمها ، وصاحت بشىء إلى سائق القاطرة ، ثم تركت القطار يعبر الاشارة ،

نخرج إلى الريف الطلق .. ولكن حين مرت القاطرة الرابعة عشرة ، اخرجت لسانها إلى « البالونتين » الجالستين على الأرض ، وقد بدا انها مشمئزة من منظرهما . وعاد سامديفياتوف فاستغرق فى التفكير مرة اخرى .

— ٥ —

واختفت ضواحى المدينة المحترقة ، بخزانات بترولها المستديرة ، واعمدة التلغراف ، والاعلانات الضخمة . وحين توارت لتحل محلها الأراضى الشاسعة التى تتخللها الغابات والتلال المنخفضة ، والطريق الرئيسى الذى يبدو على مرمى البصر بين الفينة والفينة ، قال سامديفياتوف :

— هيا بنا إلى مقاعدنا ، إذ لابد لى من النزول قريبا . كما أن محطتك هى القادمة ، فلتتنبه إليها لئلا تفوتك .

— اعتقد انك تعرف هذه المنطقة جيدا ؟

— انى اعرفها كما اعرف فناء دارى ، فى حدود دائرة مائة ميل . انا محام كما تعلم، أمارس المهنة منذ عشرين عاما . وارتحل كثيرا بسبب عملى .

— حتى الآن ؟

— طبعا ..

— ولكن اى نوع من العمل هذا الذى يمكن أن تمارسه فى هذه الأيام ؟

— اى شىء يروق لك : صفقات قديمة لم تتم ، عمليات

تجارية ، فسخ عقود .. أى قدر من العمل استغرق فيه إلى قمة راسى ان لدى من الأعمال ما يقف من هوله شعر راسك !

— ولكن الم تلغ كل هذه الأشياء ؟

— طبعا الغيت اسميا ، ولكن إذا جاء دور التطبيق وجدنا كثيرا من المطالب غير القانونية ، وكل فرد يريد ان يعيش . هذه هى خصائص مراحل الانتقال ، حيث تكون هناك ثغرة باقية بين النظريات وبين تطبيقها العملى . ففى مثل هذا الوقت تمس الحاجة إلى اناس مثلى من ذوى الخبرة والإمكانيات . وطوبى للرجل الذى لا يرى اكثر من اللازم ! .. وقد اعتاد والدى ان يقول بوجوب وضع كل شىء فى موضعه . إن نصف المديرية يعتمد على فى معاشه . وسوف ازور (فاريكينو) فى احد الأيام ، فى موسم قطع الأشجار . وهو موعد ليس قريبا على اية حال . إنك لا تستطيع الوصول إلى هناك الا بالحصان ، وحصانى اعرج ويا للأسف — والا لما استطعت ان تلحق بى وانا انطلق عبر اكوام هذه الأنقاض ! — هل ترى الطريقة التى يزحف بها هذا الوحش ؟ إنه يسمى نفسه قطارا ! .. وعلى فكرة ، قد اكون ذا نفع لك فى (فاريكينو) . فانى اعرف آل « ميكوليتسين » أقاربك .. اعرفهم ظهرا لبطن .

— هل تعرف لماذا نحن ذاهبون إلى هناك ، وما هى مشروعاتنا ؟

— استطيع التخمين على وجه التقريب : انك عائد إلى الأرض ، نداء الطبيعة الابدى . الحلم الذى يراودك بان تعيش بعرق جبينك !

— وماذا فى ذلك من خطأ ؟ يبدو من كلامك انك تعارض ذلك ! ؟

— انه كلام ساذج ومثالى ، ولكن لا عليك .. اتمنى لك حظا سعيدا . وإن كنت لا اومن بذلك العالم الخيالى . لكن دينكم ولى دينى !

— وكيف تظن « ميكوليتسين » سيستقبلنا ؟

— لن يسمح لك بعبور العتبة ، سيطردك بمكنسة ، وسوف يكون على حق ! انه فى ورطة من الدرجة الأولى : فالمصانع معطلة ، والعمال هربوا ، ووسائل الحياة منقطعة — فلا طعام ولا شراب — ثم تهبط انت عليه ! لا الومه لو قتلك !

— هذا انت دائما ! انك « بولشفيكى » ، ومع ذلك فانت تعترف بان ما جرى ليس حياة .. انه جنون ، إنه كابوس سخيف !

— طبعا انى اسلم بذلك . ولكن الا ترى ان هذه مرحلة يحتمها التاريخ ، ولا بد لنا من المرور بها ؟

— اين هذه الحتمية ؟

— هل انت طفل ؟ او انك تتصنع ؟ هل هبطت من القمر ؟ إن جماعة النهمين والطفيليين يركبون على ظهور العمال الذين يموتون جوعا ، وهم يقودونهم إلى الموت . ثم تتصور ان الأمور يمكن ان تستمر هكذا ؟ وماذا عن الالوان الأخرى من الظلم والبغى ؟ الا تفهم مدى احقية الجماهير فى السخط ، ورغبتهم فى حياة تظللها العدالة ، ومدى تطلعهم إلى الحق ؟ ام هل كنت تظن ان تغييرا اساسيا يمكن ان يأتى من طريق

« الدوما » ، من طريق التدابير « البرلمانيــة » ؟ ! هل تعتقد بامكان تسيير دفة البلاد بدون ديكتاتورية ؟

ــ نحن نتكلم ولكل منا هدفه الذى يتعارض مع الآخر . وإذا واصلنا النقاش مائة سنة فلن نرى اشياء بذات المنظار ! لطالما كنت افكر بعقلية متطرفة الثورة ، ولكنى اعتقد الآن انه لا يمكن كسب شيء بالعنف . يجب أن تشد الناس إلى الخير بالخير . ولكن دعنـا من هـذا الموضــوع . ولنعـد إلى « ليكوليتسين » . إذا كان سيحدث لنا ما تتوقع ، فلماذا إذن نذهب ؟ ينبغى علينا أن نعود . .

ــ هراء ! فاولا اقاربك هؤلاء الميكوليتسين ليسوا كل من على وجه الأرض ، وثانيا يمتـاز ميكوليتسـين بشـفقة فظيعة ، شفقة ليس لها حدود . سيثير شـجارا وسيرفس وسيقاوم ، واخيرا سيذوب . سـيخلع قميصـه لترتديـه وسيقاسمك آخر لقمة لديه . انى اعرفه كما اعرف ظهر يدى .

وقص سامديفياتوف على يورى قصة ميكوليتسين :

ــ ٦ ــ

جاء ميكوليتسين إلى هـذه المنطقة منـذ ٢٥ عاما من بطرسبورج . كان طالبا فى معهد (التكنولوجيـا) واشترك فى بعض المتاعب ، فنفى وارسل إلى هنا تحت رقابة البوليس . ثم عمل مديرا فى مصـنع كروجر ، وتزوج . وفى تلك الأيـام كانت هناك اخوات اربع ــ بزيادة واحـدة عن مسرحيـة تشيكوف ــ هن : اجريبينا ، وافدوتايا ، وجلافيرا (جلاشا) ،

وسيرافيما (سيما) . وكان شبان المنطقة كلهم يطاردونهن . وتزوج ميكوليتسين من كبراهن .

« وقبل أن يمضى وقت طويل انجبا ولدا . ومن فرط حب والده للحرية ــ ذلك المخبــول ! ــ اطلق على الوليد عنـد تعميده اسم « ليبريوس » ، (اى المتحرر) ! وشب ليبريوس ــ أو « ليبى » ، كما كانوا يدللونه ــ مستوحش الطبع بعض الشيء ، ولكنه كان صاحب مواهب غير معتادة وحين جاءت الحرب كان قد بلغ الخامسة عشرة ، فزور التاريخ فى شهادة ميلاده وقصد إلى الجبهة ، كمتطوع ! وكانت والدته من الرقة بحيث لم تحتمل الصدمة فلزمت فراشها ، ولم تغادره مـرة اخرى . . فلقد ماتت فى السنة قبل المـاضية ، قبل الثورة مباشرة .

وعاد « ليبريوس » عقب الحرب كبطل ، يحمل ثلاثـة نياشين . . عاد بالطبع كمندوب كامل « البلشفة » من الجبهة . هل سمعت عن « إخوان الغابة » ؟

ــ كلا . . اخشى الا اكون قد سمعت عنهم .

ــ لا جدوى من حكاية القصة لك إذن . لقـد ضـاع بذلك نصف طرافة الموضـوع . وليس هنـاك ما يدعو إلى تحديقك هكذا من النافذة إلى الطريق . ماذا هنـالك يجتذب نظرك فى الطريق الآن ؟ الحزبيون . ومن هم هؤلاء الحزبيون ؟ انهم العمود الفقرى لجيش الثورة فى الحرب الاهلية . انهم قوة نشـأت من ارتباط عاملين : فمن ناحيـة كانت هنـاك التنظيمات السياسية التى اخذت على عاتقها قيادة الثورة ،

ومن الناحية الأخرى كان الجنود وضباط الجيش الذين رفضوا اطاعة اوامر السلطات القديمة بمجرد الهزيمة فى الحرب .

وجاء جيش الحزبيين من نتاج هذين العاملين ، فكان أفراد ، من الفلاحين متوسطى الحـــال ، ولكنك تجــد فيـــه جميع اصـــناف الناس : من الفلاحين فقراء ، وقساوســـة خلعوا مسوحهم ، وابناء (الكولاك) الذين يحملون الســـلاح ضـــد والديهم .. وهنـــاك فوضـــويون مثاليـــون ، ومتشردون بلا جوازات سفر ، وصـــبيان طردوا من المدارس بســـبب مغامراتهم مع النســاء ! .. وهناك اسرى الحرب ، من الألمان والنمسويين ، الذين جذبتهم وعـــود الحرية والعـــودة إلى الوطن . و « إخوان الغابة » هم احدى وحدات جيش الشعب العظيم ، ويقـــودهم الرفيق « فوريســـــتر » . ومـــا الرفيق فوريستر ســوى « ليبى » بعينه ، ليبريوس افيرشيفيتش ابن افيرشياس ميكوليتسين .

ـــ انك لا تعنى ما تقول ! ؟

ـــ بل اعنيه بلا شك ! ولكن لنعد إلى افير شياس : فبعد ان ماتت زوجته تزوج مرة اخرى . وكانت الزوجة الثـــانية « هيلين » على ذكاء فطرى ، وتفتح ذهنى . لقـــد خرجت من المدرسة راسا إلى الهيكل ! وهى لا تزال صـــغيرة الســـن ، ولكنها تدعى انها اصغر من سنها ، وهى ثرثارة ، « لا ينسلى الزبد من فمها » . وبمجرد ان تراك ، تأخذ فى امتحانك ، كان تسألك : « متى ولد سوفوروف ؟ متى يتساوى ضلعا المثلث مع الضـــلع الثالث ؟ » .. وإذا اســـتطاعت ان توقع بك ،

تهقهت فى مرح . لكنك سترى بنفسك مصداق قولى بعد بضع ساعات .

« اما الرجل المســـن ، فله بدوره خصائصـــه . كان سيصبح بحارا ـــ وقد درس الهندسة البحرية بالفعل ـــ وهو حليق الذقن دائما ، لا يخرج غليونه من فمه ابدا ، ويتحدث من بين أسنانه بصوت بطىء تشيع فيه نغمات الود ، وقد برز فكه الأسفل إلى الأمام كجميع مدخنى الغليون، وله عينان رماديتان باردتان . أوه .. وهناك بعض التفاصيل الأخرى التى كدت انساها : انه اشتراكى ثائر ، وقـــد انتخب مندوب منطقـــة للجمعية التاسيسية .

ـــ هذا أمر غاية فى الأهمية ، إن الأب والابن يرفعان السلاح كل فى وجه الآخر ؟ إن كـــلا منهمـــا يعارض الآخـــر سياسيا ؟

ـــ نعم . إن الأمر كذلك من الناحية النظريـــة . ولكن ليس هناك نزاع بين « إخوان الغـــابة » وبين (فاريكينو) . ما علينا ، لنعد إلى القصـــة : إن الأخـــوات « تونتســـيف » الباقيات ـــ اخوات زوجة ميكوليتسين الأولى ـــ يعشـــن فى يورياتين حتى هذه اللحظة ، وقد بقين عانسات ، ولكن الزمن قد تغير ، وكذلك تغيرت الفتيات . فكبراهن « افدوتايا » تعمل مساعدة فى المكتبة العامة ، وهى حسناء سمراء خجول ، يحمر وجهها من اى تلميح ! وهى تقضى وقتا عصيبا فى المكتبة . إن السكون هناك مميت ، وقد اصيبت المسكينة بانفلونزا مزمنة ، وهى تصاب بنوبات عطس تجعلها تبدو كما لو كانت ستسقط على الأرض . انها الأعصاب .

« اما جلاشـا – التالية – فهى تعويـذة الأسرة ! إن نشاطها لا حد له ، وهى عاملة ممتازة ، وإن كانت لا تهتم بما تعمل – ويبدو ان « ليبى » ، اعنى الرفيق فورستر ، قد ورث طباع خالته جلاشا ! – فانك تجدها يوما تعمل بالحيـاكة ، ويوما عاملة فى مصنع للجوارب ، ثم تجدها فجاة قد امست مصففة شـعر ! لعلك رايت تلك السـيدة التى كانت عنـد التحويلة ، تلك التى لوحت لنا بقبضتهـا ؟ لقد خمنت انهـا جلاشا ، ذهبت لتعمل فى السكك الحديدية ! ولكنى لا اظنهـا هى ، فهذه تبدو مسنة جدا . .

« واخيرا هناك صفراهن ، « سيما » . انها نقيضتهن ، إذ تسبب لهن متاعب لا نهاية لها . وهى فتـاة متعلمة ، تقرا كثيرا ، وتتابع احدث الإنتاج فى الشعر والفلسفة . ولكنهـا منذ الثورة – ورغم النهضة العامة ، والخطب والمظاهرات – يبدو أنها مست فى عقلهـا ، فقد اصـيبت بهوس دينى ! ان اخواتها يغلقن عليها الأبواب قبل ذهابهن إلى العمل ، ولكنها تقفز من النافذة ، إلى الشـارع ، فتجمع الجمـاهير ، وتروح تبشرهم بالمخلص الذى سيعود ، وبيوم القيامة . والآن يبدو أن الوقت قد حان كى أتوقف عن الكـلام ، فهـا نحن قـد اقتربنا . هذه هى المحطة التى سأنزل فيها ، ومحطتك انت هى التالية ، واجدر بك أن تستعد من الآن » .

وبعد ان ذهب الرجل ، قالت « تونيا » ليورى :

– لست اعرف رايك . ولكنى اشعر ان القدر بعث به الينا ، واعتقد انه سيلعب دورا مفيدا فى حياتنا .

– ارجـو ذلك يا عزيزتى ، ولكن ما احمل همـه هو معرفة الناس جميعا انك حفيدة كروجر ، وشهرة كروجر إلى هـذا الحد . حتى « سترلنيكوف » ، بمجرد ان لفظنـا اسم ضاحية (فاريكينو) سألنى بطريقته غير المستساغة ما إذا كنا ورثة كروجر ؟ ! . . ويبدو لى اننـا بعد ان بارحنا موسـكو لنتفادى الأنظار ، سنصبح « مكشوفين » هنا اكثر مما كنـا هناك . وليس هناك ما يمكن عمله فى هذا الشأن ، إذ لا جدوى فى البكاء على اللبن المسكوب ! ولكن يحسن بنا ان نتواضـع وأن نتصرف ببسـاطة . إن البداية ليست طيبة على اية حال ، ولكن علينا ان نصل إلى هناك فى اقـرب وقت . هيـا نوقظ والدك ونستعد .

– ٧ –

وقفت « تونيا » على رصيف محطة (تورفيانايا) تحصى افراد اسرتها وامتعتهم ، المرة بعد المرة ، لتستوثق من أنهـا لم تترك شيئا فى القطار . وكانت ارض الرصـيف الرمليـة مدكوكة جيدا ، وصلبة تحت اقدامها ، ولكن القلق خشـية تفويت المحطة لم يكن قد زايلها . وكان دوى العجلات لا يزال يرن فى اذنيها رغم ان القطار كان واقفا بلا حراك امام عينيها . وقد حرمها ذلك القلق من الرؤية ، او السمع ، أو التصرف فى اى شىء كما ينبغى !

وكان المسافرون الذين سيواصـلون رحلتهم يودعون الذين نزلوا ، ويلوحون لها من العربة ، ولكنهـا لم تلاحظهم مطلقا . . كما انها لم تلاحظ ايضا ان القطار قد اخذ يتحرك ،

ولم تدرك انه ذهب فعلا إلا لما وجدت نفسها تتطلع إلى الحقول الخضراء والسماء الزرقاء عبر القضبان الخالية .

وكانت المحطة مبنية بالحجارة وبها مقاعد على جانبى المدخل . وكانت اسرة جيفاجو هى الوحيدة التى نزلت فى (تورفيانايا) ، ووضع افرادها امتعتهم على الأرض وجلسوا على احد تلك المقاعد . ولم يلبث ان صدمهم سكون المحطة وفراغها ونظافتها ، وبدا غريبا انها لا تصخب باصوات الغوغاء ولعناتهم . إن الأحداث لم تلق ظلها على هذا الإقليم النائى ، ولكن سيأتى الوقت الذى تصبح الحياة فيه موحشة كما فى العواصم !

وكانت المحطة تختفى فى حضن غابة ، حتى ان القطار حين دخلها اظلمت العربات كما لو كان النهار قد انقلب ليلا . ولكن ما عتمت الأشجار ان القت ظلالها المتحركة فى خفة على وجوههم وايديهم ، بل على الأرض وحوائط المحطة وسقوفها وعلى رصيفها برمله النظيف الرطب ولونه الأصفر . وكان الجو فى ظل الأشجار رطبا ، وزقزقة العصافير ترسل انغاما هادئة تتسق والجو . انغاما صافية — كالبراءة — لا تشوبها شائبة ، تخترق الغابة متماوجة من اقصاها إلى اقصاها . وكان الخط الحديدى والطريق البرى يقاطعان الغابة فى اتجاهين مختلفين ، وان كانت فروع الأشجار المتشابكة تغطيهما .

وفجاة تنبهت « تونيا » إلى ما حولها ، فسمعت ورات. ووصل كل شىء إلى وعيها دفعة واحدة ، فى وقت واحد :

زقزقة العصافير ونداءاتها ، والنقاء الذى تمتاز به عزلة الأرض المعشوشبة . وفيض السكون الذى لا يعكره شىء . . وكانت قد اعدت كلاما فى ذهنها لتقوله ، كانت تريد ان تقول : « لا اكاد أصدق اننا وصلنا إلى هنا فى امان يا عزيزى ! كما تعلم ، كان يحتمل ان يكون « ستريلنيكوف » ذاك قد ابدى امامك رجولته ، وفى الوقت ذاته بعث ببرقية ليلقوا القبض علينا جميعا بمجرد نزولنا من القطار . انى لا اومن بعواطفهم النبيلة تلك ياعزيزى . انها كلها رياء ! » .

ولكن تونيا لم تنطق بهذا ، فقد تدفقت من فمها كلمات جد مختلفة حين تطلعت إلى المنظر الأخاذ حولها ، فصاحت : « ما ابدع هذا ! » . . ثم انفجرت باكية ، فلم تستطع ان تزيد !

وجاء على صوت نحيبها رجل مسن فى ثياب ناظر محطة ، اخذ يقترب منهم ، ثم قال وهو يلمس حافة قبعته الحمراء محييا فى ادب : « هل تحتاج الشابة إلى دواء من صيدلية المحطة لتهدئة اعصابها ؟ » .

فقال والدها الكسندر الكسندروفيتش : « اشكرك . الامر بسيط وليس بنا من حاجة لشىء من ذلك . ستعود إلى حالتها الطبيعية حالا » .

— انها متاعب الرحلة وما حف بها من قلق ، وهذا امر معروف . ثم هذه الحرارة الإفريقية التى لا نكاد نعرفها فى مناطقنا ، لاختلاف خط العرض ! واخيرا ، وفوق هذا كله ، تلك الأحداث التى تجرى فى (بورياتين) .

— لقد راينا النيران المشتعلة ونحن فى القطار ، خلال سيره بنا ..

— انتم من روسيا ، إذا لم اكن مخطئا ؟

— من قلبها بالذات .

— من موسكو ! لا عجب إذن ان ترهق اعصاب السيدة . يقال انه لم يبق هناك حجر على حجر !

— لم تصل المسألة إلى هذا الحد من السوء . ان الناس تبالغ . ولكنا بلا شك اجتزنا وقتا عصيبا . هذه ابنتى وهذا زوجها ، وذاك طفلها الصغير ، وهذه « نيوشا » .

— كيف الحال ؟ كيف حالكم ؟ كنت اتوقع حضوركم ، فلقد تحدث « انفيم يفيموفيتش سامديفياتوف » إلى تليفونيا من (ساكما) فقال إن الدكتور جيفاجو قادم من موسكو مع اسرته ، ورجانى أن اقدم للأسرة ما استطيع من مساعدة . وهكذا ، انتم إذن الذين انتظرهم ؟

— إن الدكتور جيفاجو هو زوج ابنتى ، وهذا هو . وانا لست طبيبا ولكنى استاذ فى الزراعة واسمى « جروميكو » .

— لا تؤاخذنى . انه خطئى . انى سعيد بمعرفتكم .

— إذن انت تعرف « سامديفياتوف » ؟

— من الذى لا يعرف « انفيم يفيموفيتش » ، العامل العجيب ! انه املنا الوحيد الذى نعتمد عليه . لولاه لكنا متنا منذ زمن بعيد . قال لى ان اقدم لكم كل مساعدة ممكنة . وقلت له : « طبعا » ، ووعدته بانى سافعل ، فماذا كنتم فى حاجة إلى جواد ، او اى شىء آخر ؟ إلى اين تقصدون ؟

— اننا نريد الذهاب إلى (فاريكينو) . هل هى بعيدة من هنا ؟

— (فاريكينو) ؟ ! هذا ما يجعلنى اسائل نفسى : ترى بمن تذكرنى ابنتك ؟ إذن هى (فاريكينو) التى تقصدونها ! ان ذلك يفسد كل شىء ! لقد بنينا — ايفان ارنستوفيتش كروجر ، وانا — هذا الطريق معا . ساجد لكم فرسا حالا . سأنادى احد الرجال وسندبر لكم عربة . «دونات» ! .. «دونات»! .. خذ هذه الحاجات إلى غرفة الانتظار فى الوقت الراهن . كيف لنا بحصان ؟ اذهب إلى مشرب الشاى وابحث ماذا يمكن عمله ؟ كان « باكوس » يتسكع هنا فى هذا الصباح . ابحث ما إذا كان لا يزال هناك . قل لهم إن هناك اربعة مسافرين إلى (فاريكينو) ، وهم قد قدموا حديثا . قل لهم انهم لا يحملون متاعا كثيرا . ابحث جيدا عن حل .. والآن يا سيدتى ، اتسمحين بقبول نصيحة ابوية ؟ لقد تعمدت الا اسألكم ما هى صلة القرابة بينكم وبين « ايفان ارنستوفيتش كروجر » ، ولكن ينبغى ان تكونى على حذر فى كل ما تقولين . لا تتوقعى ان يرحب بك الجميع فى اوقات كهذه !

وحين ذكر اسم « باكوس » نظر المسافرون احدهم إلى الآخر فى عجب . لقد تذكروا حكايات « آنا » عن الحداد الخرافى الذى صنع لنفسه طاقما من الآنية الصلب التى لا تفنى ، وغيرها من الأساطير المحلية العديدة التى كانت تقصها عليهم ..

— ٨ —

كان الجواد الذى اتوا به فرسا وضعت حديثا ، اما

السائق فرجل مسن ، مقطوع الآذن ، كث الشعر ابيضه ـ كما لو كان بومة بيضاء ! ـ كان كل شىء يلوذ به فى الواقع ابيض اللون : فحذاؤه الطويل الجديد لم يتسخ لونه بعد ، وقميصه التيلى وبنطلونه ، حال لونهما من طول مامر بهما من زمن .

.. وكان المهر يجرى وراء امه ، وتتصادم ارجله التى لم تزل طرية العظام ، ببعضها البعض . وكان شعره المجعد يبدو فى سواد الليل اشبه بلعبة مدهونة .

وتشبث المسافرون بجانبى العربة وهى تتعثر فى الأخاديد . كان فى قلوبهم سلام . إن حلمهم أخذ يصبح حقيقة ، وهاهم اولاء تكاد رحلتهم ان تقارب نهايتها . واخذت الساعات الأخيرة من النهار الصحو الساكن تتهادى فى كرم وبهاء مفرط .

وكان طريقهم يشق الغابات احيانا ، واحيانا اخرى يمر بالحقول المكشوفة . وحين كانوا يخترقون الغابة كانوا يتكومون على بعضهم كلما مرت العجلات على غصن مكسور .. وقد جلسوا واكتافهم متقلصة ، متماسكين ، عابسين . ولكنهم ، فى الحقول المكشوفة حيث الفضاء ذاته يبدو كما لو كان يحييهم من صميم قلبه ، كانوا يجلسون بقامات معتدلة ، وقد تركوا أجسامهم على طبيعتها ورفعوا رؤوسهم ..

وكانوا يمرون بمنطقة كثيرة التلال ، وللتلال دائما تعبير خاص بها . كانت تبدو شامخة ضخمة قاتمة على خط الأفق ، كظلال اشباح متكبرة ترقب المسافرين فى صمت ، ولكن ضوءا

ورديا مريحا غمرهم عبر الحقول ، فرفه عنهم ومنحهم الأمل .. وقد اعجبهم كل ما راوا واثار عجبهم ، ولعل اغربه كان ثرثرة سائقهم المسن الذى كان حديثه مليئا بالتعبيرات التى اكل عليها الدهر وشرب ، تشوبه آثار التتار ، ومساوىء اللهجة المحلية مختلطة بتعبيرات ابتكرها هو نفسه !

وكلما تخلف المهر خلف الركب توقفت امه عن المسير إلى ان يلحق بها . وسرعان ما كان يلحق بها فى قفزات رشيقة كالأمواج ، فيصل إلى العربة على ارجله الطويلة المتقاربة ثم يمد رقبته الطويلة ، ويدفع براسه تحت العريش ليرضع من حلمات ثدى أمه .

وصاحت تونيا موجهة حديثا إلى « يورى » — وكان صياحها فى بطء خشية أن تعض لسانها بأسنانها ، التى كانت تصطك من اهتزاز العربة ، حين تهتز فجأة فى مطب :

ـ هل يمكن ان تكون هذه هى أم باكوس التى اعتدت ان تحدثنا عنها ؟ انك تذكر كل ما قيل عن الحداد الذى تفتتت امعاؤه فى معركة فصنع لنفسه طاقما حديديا بدلها ؟ باكوس ذو البطن الحديدية . بالطبع انى اعلم انها مجرد حكاية ، ولكن الم يكن فى الامكان أن تحكى عن هذا الرجل بالذات ؟

ـ لا بالبطع . فكما تقولين ، اولا وقبل كل شىء ، إنها مجرد حكاية اسطورية . ثم إن الأم قالت لنا إن الأسطورة عمرها اكثر من مائة سنة ، منذ كانت هى فتاة صغيرة . ولكن لا تتحدثى بمثل هذا الصوت المرتفع . انك لا تريدين طبعا جرح أحاسيس الرجل الكبير .



وقد اعجبهم كل ما رأوا وأثار عجبهم ، ولعل اغربه كان ثرثرة سائقهم المسن الذى كان حديثه مليئا بالتعبيرات التى أكل عليها الدهر وشرب ..

ـــ انه لا يسمع شيئا . انه اصم ، وحتى إذا سمع فإنه لن يفهم . إن راسه ليس على ما يرام !

وصــاح الرجــل المسن فى الفرس : « هاى ، فيدور نفيوديتش ! »

وكان يتحدث إليها ، لأمر ما ، باسم مذكر ذى لقب، رغم انه كان يعلم ـــ كما يعلم جميع الركاب ـــ أنها فرس انثى .

ـــ اللعنة على هـذه الحرارة . نحن كابناء ابراهام فى الفرن الفارسية ! « شى » ايهـا الشـيطان الجائع . إننى اتحدث إليك انت يا مازيبا !

وكان احيانا ، وبدون إنذار ، ينطلق يترنم بمقطوعات من الطقاطيق القديمة التى لابد ان تكون قد الفت فى مصـانع كروجر فى الأيام الخوالى :

مع السلامة يا فناء المصنع وبوابته
مع السلامة يا خام الحديد ورقائقه
ان خبز « المعلم » يقف فى حلقى
حتى لقد كرهت جرعة الماء .
الأوزة تسبح إلى جوار الشاطىء .
تستعمل رجليها بدل المجاديف .
ليس النبيذ هو ما يسكرنى .
انه ذهاب « فانيا » بعيدا عنى .
ليصبح جنديا ..
لا تحزن يا « ماشا » لست مخبولا .
انى على الطريق إلى البلدة .
لأعمل لحساب « سنتت يوريكا » .

— ايه ايها الحيوان الذى غضب عليه الإله ، انظر إلى الجيفة ، انى اضربها بالكرباج ولا آخذ منها إلا الصهيل ، ايه يا فيديا نفيديا ، هل تفكرين فى الذهاب ؟ انهم يسمون الغابة « بالتايجا » ، انها غابة لا نهاية لها . كما انه لا نهاية لعدد الفلاحين فيها ، أن « اخوان الغابة » هناك . ايه يا فيديا ، نفيديا ، هل توقفت مرة اخرى ، ايها الشيطان !

واستدار مرة واحدة وراح يحدق فى عينى تونيا وهو يقول :

« اين عقلك ايتها المراة الصغيرة ؟ هل تظنين اننى لا اعرف من تكونين ؟ إن عقلك ساذج يا عزيزتى ، كما ارى . اضربينى حتى الموت إذا كنت لم اعرفك ! لقد عرفتك بكل تأكيد ! اننى لا استطيع ان اصدق عينى ... انك صورة حية من جريجوف — (وكان هذا هو نطقه لاسم « كروجر ») — انت لست حفيدته .. اليس كذلك ؟ من الذى يستطيع ان يعرف سلالة جريجوف ، سواى ! ؟ .. لقد اشتغلت عنده فى جميع الأعمال : اشتغلت فى المناجم كحطاب ، واشتغلت على «الونش» فوق سطح الأرض ، واشتغلت فى «الاسطبلات» .. « شى » تحركى إلى الامام ! ها انت تقفين مرة اخرى ،كما لو لم يكن لك ارجل ! ايتها الملائكة فى الصين ! الا تسمعون اننى اتحدث اليكم ؟

والآن حسنا .. كنتم تسألون إذا كنت انا ذلك الحداد باكوس ، يا لبساطتك يا عزيزتى ! عينان كبيرتان بلا عقل وراءهما . إن باكوس كان يسمى « بوستانوجوف » ، ذو البطن الحديدية . لقد ذهب إلى قبره منذ اكثر من اربعين

عاما ، ولكن اسمى هو ميخونوشين . أن اسمنا عند التعميد واحد ولكن الالقاب تختلف » .

وشيئا فشيئا راح الرجل المسن ينبئهم بما كانوا قد عرفوه من سامديفياتوف عن اسرة ميكوليتسين ، وكان يطلق اسم « تانيته » على زوجة ميكوليتسين الثانية ، ويذكر الزوجة الأولى بلقب « الملاك » او « الملاك الأبيض » ، وحين جاء ذكر «ليبريوس» زعيم الحزب المحلىّ وعرف ان شهرته لم تصل إلى موسكو بعد ، وأن « إخوان الغابة » ليسوا معروفين هناك ، لم يصدق ذلك وراح يقول : « انهم لم يسمعوا عن الرفيق فورستر ، يا ملائكة الصين .. دلونى لماذا كانت هناك آذان لموسكو إذن ! » .

واقترب وقت الغروب واخذت ظلالهم تطول اكثر فاكثر ، وتسبقهم بمسافة طويلة ، وكانت العربة تسير بهم فى ارض مستوية خالية من الأشجار ، وبين هنا وهناك تبدو مجموعات متفرقة من عيدان بعض النباتات ذوات السيقان الطويلة ، والأشواك والأعشاب التى تعلوها انواع الزهور البرية . وكانت الشمس الغاربة تعكس ضياءها على تلك النباتات من مستوى ارض فتبدو فى طول العمالقة ، كفرسان الحرس ، وقد وقفوا على مسافات متباعدة ، دون حراك ، ويراقبون السهل الممتد حولهم .

وكان الوادى ممتدا إلى بعيد ، إلى حيث ينتهى بسلسلة من التلال ، وفى موضع او آخر يتخلله اخدود او مجرى ماء ، عند التقاء سفوح الجبال بالسهل . وكانت الجبال تقف كحائط

فى طريق المسافرين ، كما لو كانت السماء هنـــاك قد اغلقت بمتاريس ، والطريق يؤدى إلى بوابة .

وعلى قمة الأخدود راوا بيتا ابيض ، منخفض الارتفاع ، عريض المبانى .. فقال باكوس : « هل ترين ذلك « المرصد » القائم فوق التل ؟ هناك يقيم ميكوليتسين . وفى ملتقى السفح بالسهل تجرى قناة ، يسمونها (شوتما) » .

ورن من ناحية التلال صوت رصاصـتين انطلقتـا من بندقية ، وتبعهما تدفق الصدى كدوى الطبول .

ـ ما هذا يا جدى ؟ اتراهم الحزبيين يطلقون النيران علينا ؟

ـ هراء ! .. اى حزبيين ؟ .. بل هو ميكوليتســـين يخيف الذئاب ويذودها بعيدا عن (شوتما) .

ـ ٩ ـ

وكانت مقابلتهم الأولى لأسرة ميكوليتســـين فى فناء دار المدير . وكان منظرا مؤلما بدأ فى صمت ، ولكنه انتهى بشوشرة صاخبة سخيفة . كانت هيلين زوجة ميكوليتسين عائدة إلى البيت عبر الفناء ، من نزهتهـا المسائية فى الغابات ، وكانت اشعة الشمس الغاربة ـ ذات اللون الذهبى ، كشعرها ـ تقفو اثرها خلال الغابة ، من شجرة إلى اخـرى .. وكانت المراة تلبس رداء صيفيا خفيفا ، وقد تلون وجههـا من اثـر المشى ، وراحت تمسح عليه بمنديلها ، بينمـا تدلت قبعتهـا القش على قفاها ، يربطها بعنقها العارى شريط مطـاط .. وكان زوجها قادما من ناحية الوادى ليقابلها ، وقد صعد لتوه

من الأخدود حاملا بندقيته التى انتوى تنظيفها ، بعد أن لاحظ انها لا تعمل كما ينبغى .

.. وفجاة ، فى هذا الأفق الذى يشيع فيه الســلام ، ظهر باكوس بعربته الصـاخبة تقرقع عجلاتهـا على أرض الطريق ، حاملا معه المفاجاة . وخرج المسافرون من العربة . وراح الكسـندر الكسندروفيتش يتمتم متلعثما ، وهو يرفع قبعته ويعيدها على رأســه للتحية ، محاولا شرح الموقف . والجمت المفاجاة المضيفين واستغرقهم الصمت عدة دقائق ، كما استغرق ضيوفهم المساكين الذين تولاهم الخجل والعار والارتباك . ولم يكن فى الامكان توضيح الموقف اكثر من ذلك مهما قيل ، ســواء لأولئك الذين يعنيهم الأمـر مباشرة ، أو لساشا ونيوشا وباكوس . وامتدت عدوى ضيقهم المؤلم إلى الفرس ذاتها ، وإلى المهر ، وإلى اشـعة الشمس الغـاربة الذهبية ، وإلى البعوض الذى راح يطن ويطـوف حول وجه هيلين وعنقها .

واخيرا قطع ميكوليتسين حبل الصمت بقوله : « لست افهم . لست افهم شيئا ، ولن افهم ابدا ! ماذا تحسبون هذا المكان ؟ لـماذا تركتم الجنـوب حيث يوجـد البيض ، وحيث تجدون وفرة من العيش .. ووقع اختياركم علينا ؟ ماذا بحق الأرض جاء بكم إلى هنا .. إلى هنا دون اى مكان آخر ! ؟ » .

وهنا انبرت زوجته تقول :

ـ انى لأعجب ، هل طاف بخاطركم اية مسئولية هــذه التى تقع على كاهل افيرشيوس ستيانوفيتش ؟

— لا تتدخلى يا هيلين .. (مستأنفا مخاطبة ضيوفه) : انها على حق . هل فكرتم لحظة فى مدى هذا الحمل الذى تفرضونه علينا ؟

— ولكن الله المطلع ! إنكم تسيئون فهمنا . فيم كنا نتحدث ؟ ليس هناك تطفل عليكم ولا نحن نهدف إلى تعكير صفو سلام عقولكم ، وإنما كل ما نريده إنما هو شىء ضئيل جدا . إن كل ما نفكر فيه هو ركن فى اى كوخ قديم مهجور وشريط من الأرض البوار التى اجدبت لأن احدا لا يريدها ، وذلك حتى نستطيع ان ننتج طعامنا ، وحمولة عربة من خشب الحريق من الغابة حين نتاكد من أن أحدا لن يرانا ونحن ناخذه . اهذا الذى نطلبه شىء كثير حقا ؟ هل تعدون هذا فرضا عليكم ؟

— كلا ، ولكن العالم واسع . وماذا يعنينا من هذا كله ؟ لماذا اخترتمونا لهذا الشرف بدل أن تختاروا أى إنسان آخر ؟

— لاننا سمعنا عنكم ، وكان املنا أن تكونوا قد سمعتم عنا ، وهكذا لا نكون قد هبطنا على اغراب .

— آه .. إذن المسالة بسبب كروجر ! لانكم تنتسبون إليه ! ولكن كيف يمكنكم أن ترتضوا لانفسكم امرا كهذا ، فى وقت مثل هذا الوقت ؟ !

وكانت لميكوليتسين ملامح منتظمة ، فازاح خصلات شعره إلى الخلف وخطا خطوات واسعة ثبت بها قدميه فى الأرض تثبيتا . وكان يرتدى فى الصيف قميصا روسيا مدككا بقطان حريرى ذى شرابة . انه من ذلك النوع من الرجال

الذى كان يمكن أن يكون — فى الأزمنة الغابرة — أحد قراصنة نهر الفولجا . وقد اوجد مثل هؤلاء الناس فى الأيام الأخيرة طراز التلميذ الأبدى ، الحالم الذى أصبح أستاذا !

لقد كرس ميكوليتسين شبابه لحركة التحرير ، وللعمل من اجل الثورة ، وكان خوفه الوحيد الا يعيش ليراها ، أو أن تكون — إذا جاءت — مفرطة الاعتدال ، ليست دموية إلى الدرجة التى تحقق احلامه المتطرفة . والآن ها هى ذى قد اتت، وتجاوزت اقصى ما كان يتوقع، ولكنه وليد «البروليتاريا» (الطبقة العاملة الروسية) وبطلها الأمين ، الذى كان بين أوائل من الفوا « لجنة عمالية » ، واول من سلموا المصنع إلى الرجال . وقد ترك هكذا على البر ، ابعد ما يكون عن مركز الأحداث ، وهذا هو فى قرية نائية هرب منها العمال الذين كان بعضهم من البشفيك ! والآن ماذا عن هؤلاء الأحياء من أسرة كروجر الذين لم يسفنهم احد ؟ انهم يبدون له مثل سخرية القدر فى قمتها ، انهم احبولة متعمدة .. انهم القطرة التى جعلت كأسه تفيض !

— هذا غير معقول البتة . انه يفوق التصور ! هل تدركون مدى الخطر الذى ستوقعوننى فيه ؟ لا بد أن اكون قد جننت . لست افهم . لست افهم شيئا مطلقا ، ولن أستطيع ان افهم ابدا .

— انى لاعجب إذا كنتم تدركون اى بركان هذا الذى نجلس عليه الآن بالفعل ؟

لحظة واحدة يا هيلين . إن زوجتى على حق تماما .

إن الأمور سيئة بما فيه الكفاية . إنها حياة الكلاب ، إننا فى مستشفى للمجاذيب ! اننى بين نارين بين هؤلاء الذين يجعلون حياتى بؤسا لان ولدى « احمر » بولشفيكى ، « حبيب الجماهير » ، وبين هؤلاء الذين يريدون ان يعرفوا لماذا انتخبت عضوا فى الجمعية التاسيسية . ما من واحد راض ، وانى لأتلفت حولى فلا اجد من الجا إليه ، والآن تجيئون انتم! فكرة بديعة ، ان اواجه فرقة من المقاتلين بسببكم !

ـ كفى ! حقا ! كن عاقلا بالله !

ومرت فترة قصيرة خفت فيها حدته ، فلان وقال :

ـ نهايته . لا معنى لوقوفنا هكذا فى الفناء . وهيا بنا إلى الداخل ، ولست ادعوكم للدخول لأننى اجد فى ذلك اى خير ، ولكننا فى الواقع نرى الأمور كانما خلال كرة زجاجية ، بغير وضوح ! .. وعلى اية حال فنحن لسنا قساة ولا كفرة ، ولا يهون علينا ان نطردكم إلى الغابة لتاكلكم الدببة . إنى اعتقد ، يا عزيزتى هيلين ، أن من الأوفق أن نضعهم فى الوقت الراهن فى غرفة النخيل المجاورة للمكتب . وسنرى فيما بعد اين يمكن ان يستقروا ، فقد نجد لهم كوخا هناك فى البستان . ادخلوا . هات متاعهم يا بوكوس، وعليك بمساعدة الضيوف.

ونفذ باكوس ما امر به ، وهو يتمتم : « يا أم الاله ! انهم لا يمتلكون اكثر من متاع الحجاج . ان كل ما معهم هو بضع ربطات صغيرة ، وليست لديهم حقيبة واحدة ! » .

ـ ١٠ ـ

وران البرد على المنطقة فى المساء .. واغتسل الجميع،

بينما اعدت النساء الحجرة لاستقبال الليل . اما ساشا الصغير ، الذى كان يتوقع ـ دون وعى ـ أن يستمع الناس إلى احاديثه الصبيانية بفرح وترحيب ، يغريانه بالثرثرة ، فقد انقلبت موازينه هذه المرة ، إذ لم يصادف نجاحا ، لان احدا لم يبد اى اهتمام بوجوده ! وقد خاب امله ايضا لأن المهر الصغير الأسود لم ياتوا به معهم إلى المنزل ، وحين صرخت فيه امه طالبة إليه ان يسكت ، انفجر باكيا خشية ان يرسل مرة اخرى إلى دار الحضانة ، حيث يعتقد أن والديه قد اشترياه من هناك ! وكان خوفه اصيلا ، حتى انه كان يود لو يشاركه فيه الناس جميعا ، ولكنه قوبل على انه امر تافه ، وفشل فى هذه الظروف فى أن يثير احدا ! .. وبدت الدار غريبة ، يتحرك فيها الكبار فى بطء وصمت، مستغرقين فيما هم بسبيله من مهمات. وكان ساشا مغيظا ، ميالا للمشاكسة . كانوا يرغمونه على تناول طعامه ، ويبعثون به إلى غرفة نومه بصعوبة .. وحين يخلد للنعاس فى آخر الأمر ، كانت « يوستينيا » ـ وصيفة ميكوليتسين ـ تأخذ « نيوشا » إلى حجرتها لتتعشى وتطلع على اسرار البيت . وقد دعيت تونيا والرجال لتناول شاى المغرب مع اسرة ميكوليتسين .

وخرج يورى ووالد زوجته ، فى اول الأمر ، إلى الشرفة لاستنشاق الهواء . وقال الكسندر الكسندروفيتش :

ـ ما اكثر هذه المجموعة من النجوم !

وكان الظلام حالكا . ورغم ان المسافة بين الرجلين لم تكن تعدو ياردتين ، فقد كان من الصعب أن يرى احدهما

الآخر ! وتسرب ضوء المصباح من نافذة خلفهما إلى الأخدود ، بأشجاره وشجيراته وما به من اشكال غير واضحة المعالم كانت تبدو غائمة فى الجو البارد الرطب . ولكن يورى والكسندر كانا خارج نطاق هذا الضوء الذى زاد من كثافة العتمة حولهما . وقال الكسندر :

ــ ان اول ما ينبغى ان نفعله فى الصباح يا يورا هو أن نرى ذلك الكوخ الذى فكر فى اعطائه لنا ، فاذا كان صالحا وجب علينا ان نبدأ بترميمه فى الحال . وفى الوقت الذى يتم فيه تجهيزه يكون الثلج قد ذاب عن الأرض فنستطيع ان نبدا بغرس البذور فيها دون إضاعة اى وقت . هل تذكر انه سيسمح لنا ببعض تقاوى البطاطس ؟

ــ نعم بلا شك ، فقد وعد بذلك ، كما وعدنا بتقاوى اخرى ايضا . لقد سمعته يقول ذلك باذنى . اما بالنسبة للكوخ فقد رايناه ونحن نعبر البستان . هل تعرف اين يقع ؟ انه ذلك البناء الخشبى المختفى هناك فى الخلف ، وراء الحشائش . لقد اشرت لك عليه .. اتذكر ؟ .. ومن رايى انه يصلح لغرس التقاوى . لقد بدا لى ان ثمة حديقة كانت هناك فى وقت ما . على الأقل بدا ذلك لى عن بعد ، ولعلنى كنت مخطئا . ولا بد أن تكون ارض زراعة الزهور مسمدة جيدا ، وارجو ان تكون ما زالت فى حالة جيدة .

ــ لا ادرى . وعلى اية حال سنرى ذلك فى الصباح . وان كنت اعتقد انها اصبحت جامدة ومليئة بالأخشاب فى الوقت الراهن . ولا بد ان هناك حديقة للمطبخ فى مكان ما هنا ،

تابعة الدار ، وقد تكون غير مستعملة الآن ، وسنكتشف ذلك غدا . ومن المحتمل ان يكون الجليد باقيا على الأرض فى الصباح . انى واثق ان الجليد سيتساقط فى الليل . وعلى اية حال فها نحن هنا اخيرا ، وهو ما نحمد الله عليه ، فالمكان طيب ، وانى راض عنه .

ــ انهم اناس طيبون ، وهو بالذات ، أما هى فمتكلفة نوعا . إن بها شيئا لا تحبه فى نفسها . وهذا هو السبب فى كثرة كلامها ، وهو ما يجعلها تبدو اكثر غباء مما هى عليه فى الواقع . لقد بدت كما لو كانت فى عجلة من امرها ، لتلهيك عن نظراتها قبل ان يسمح لك الوقت بتكوين فكرة سيئة عنها . بل إن اغفالها وضع القبعة على راسها وتركها معلقة فى رقبتها ليس مجرد سهو ، فهذه هى طبيعتها ..

ــ يحسن بنا أن نعود ، حتى لا يعدونا اجلافا .

.. وقد مرا بمكتب ميكوليتسين المظلم وهما فى طريقهما إلى حجرة الطعام ، حيث كان مضيفوهما وتونيا يشربون الشاى حول المنضدة المستديرة تحت المصباح المعلق فى السقف .

وكان للمكتب نافذة ضخمة بعرض الحائط تطل على الأخدود ، وكان يورى قد لاحظ من قبل انها تطل على الأخدود والسهل الذى عبروه مع باكوس ، وكانت أمام النافذة منضدة كبيرة للرسم بعرض الحائط ايضا ، وعليها بندقية يجتذب حجمها الأنظار بالنسبة لطول المنضدة . وخلال مرورهما فكر يورى ــ محنقا ــ فى النافذة ، ووضع المنضدة وحجمها ،

واتساع الحجرة المؤثثة باثاث فاخر . وكان ذلك اول ما تحدث عنه إلى اصحاب الدار بمجرد دخوله حجرة الطعام ، قائلا :

ــ ما اجمل هذا المكان ! ما افخم المكتب ! لا شــك انه مكان بديع للعمل فيه . انه مكان ملهم حقا !

ــ اتريد كوبا ام فنجانا ؟ وهى تريده خفيفا ام ثقيلا ؟

ــ يورا .. انظر إلى هذا . انه ستريوسكوب (مجسم الصور المزدوج). لقد صنعه ابن «افيرشيوس ستيبانوفيتش» حين كان طفلا .

ــ انه لم يكبر ويستقر بعــد ، رغم انه اســتولى على منطقة بعد الاخرى لحساب السوفييت من « الكوموش » .

ــ ما هو الكوموش ؟

ــ انه جيش حكومة سيبريا الذى يحارب ليحافظ على سلطان الجمعية التأسيسية .

ــ لقد استمعنا لكلمات المديح فى ابنك طــوال يومنا . لا بد انك فخور به !

ــ ان جميع صور جبــال الاورال التى توضــع فى هذا المنظار من تصويره ، وقد التقطها جميعا بكاميرا صنعها بيديه

ــ ما اجمل هذا البسكويت . هل صنع بالسكارين ؟

ــ كلا بحق الاله . من اين لنا ان نحصل على السكارين فى هذه البرية ؟ إنه سكر طبيعى « يوحد الله » ! الم ترنى اضع السكر فى كوب الشاى لك ؟

ــ كنت اتطلع إلى الصــور ولم ارك . وانى اعتقد انه شاى حقيقى !

ــ طبعا انه شاى ياسمين .

ــ من اين حصلت عليه بحق الأرض ؟

ــ ان لدينا نوعا من بساط الريح ! انه صديق لنــا . شخصية شعبية من الطراز الجديد . يسارى متطرف . انه الممثل الرسمى للمجلس الاقتصــادى الاقليمى . وهو يأخــذ خشبنا إلى المدينة ويأتى الينا بالدقيق والزبد بواسطة اصدقائه ناولنى السكر يا سيفى (تدليــل افريشيوس) . والآن هل يمكنك ان تخبرنى متى توفى جريبوبيدوف ؟

ــ لقد ولد فى عام ١٧٩٥ فيما اظن . ولكنى لا اذكر متى قتل ..

ــ اتريد شايا آخر ؟

ــ كلا ، شكرا .

ــ والآن هنالك ســؤال لك . ما هو تاريخ معــاهدة « نيجمجين » ، وما هى البلاد التى وقعتها ؟

ــ لا تحرجهم يا عزيزى ، انهم لم يكادوا يفيقــون من متاعب رحلتهم .

ــ والآن هذا هو ما احب ان اعرفــه : ما هى انــواع العدسات ، وكم عددها ، ومتى تكون الصور حقيقية ، ومتى تكون معكوســة ، ومتى تكون طبيعية او مقلوبة ؟

ــ كيف تأتى لك كل هذا العلم بالطبيعة ؟

— كان لنا أستاذ علوم ممتاز فى (يورياتين) . كان يدرس للمدرسة الابتدائية للبنين ولنا . لا استطيع أن أصف لك كم كان ممتازا . كان عجيبا . إن كل شىء يبدو واضحا حين يشرحه . كان اسمه « انتيبوف » . وكان متزوجا من مدرسة ايضا . لقد جنت البنات به وشغفن به حبا . لقد ذهب إلى الحرب متطوعا وهناك قتل . إن بعضهم يقول إن ذلك قصاص لنا ! .. والبعض يقول إن القوميسار سترلنيكوف هو انتيبوف بعث حيا ، ولكنها إشاعة سخيفة بالطبع ، وغير محتملة بالمرة . ولكن من يدرى ؟ إن اى شىء ممكن الحدوث . اعطنى قليلا من الشاى ..

الفصل التاسع

فاريكينو

— ١ —

كان « يورى » قد شرع فى كتابة يومياته ، عندما كانت لديه فسحة من الوقت فى فصل الشتاء ، وقد استهلها بشطرات شعرية من « تيوتشيف » :

« يا للصيف ! يا للصيف !

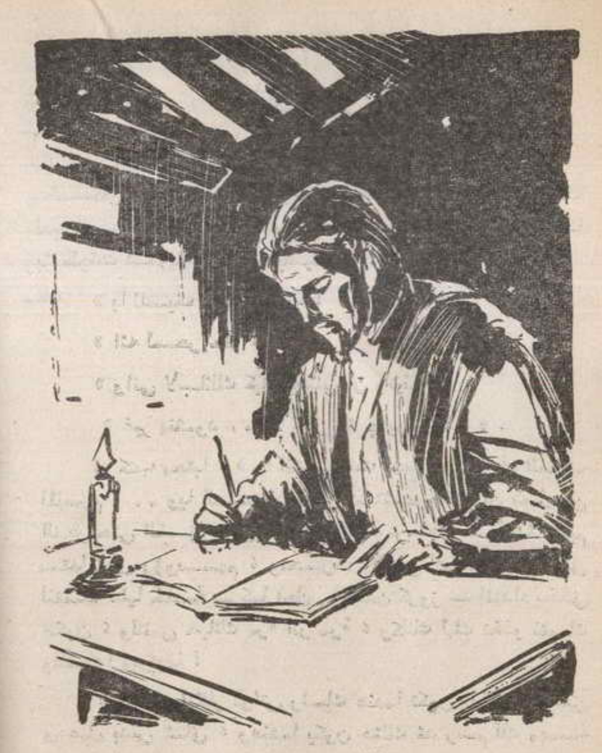
« انه لسحر حقا !

« وانى لأسائلك كيف تسنى ان يأتينا ،

« غير منشود .. ولا نحن به جديرون ؟ ! » .

ثم كتب معقبا : « ما اكثر ما كنت أحس بهذا ، فى الصيف المنصرم ! .. ويا للسعادة التى تستشعرها فى ان تعمل من الفجر حتى الغسق ، من اجل اسرتك ومن اجل نفسك ، فتقيم سقفا فوق رؤوسهم ، وتحرث الأرض لتطعمهم ، وتخلق لنفسك دنيا خاصة — كما فعل روبنسن كروز — اقتداء بخالق الكون ، ولتنمى حياتك مرة اثر مرة ، وكانك امك تغذو نفسك وتنشئها وتربيها !

« كم من افكار تواتى راسك عندما تكون يداك منهمكتين فى عمل بدنى شاق ، وعندما يكون عقلك قد رسم لك مهمة تؤدى بالجهد البدنى وتجزيك بالغبطة والنجاح .. وعندما



كان « يورى » قد شرع فى كتابة يومياته ، عندما كانت لديه فسحة من الوقت فى فصل الشتاء ، وقد استهلها بشطرات شعرية ..

تحفر او تدق ست ساعات كاملة ، ونسيم الحيـاة ـ الذى تمنحه السماء ـ يلفحك ساخنا ! .. وليس من الخسارة فى شىء ان لا يتسنى تسجيل هـذه الخواطر ، والالهـامات ، والتشبيهات المنطقية العابرة ، بل انه لمكسب أن تروح كلها نسيا منسيا ! .. إن ناسك المدينـة ، الذى يلهب اعصـابه وخياله بالقهوة الثقيلة القوية وبالتبغ ، لا يعرف اقوى المنبهات جميعا .. الصحة الطيبة والحاجة الحقيقية !

« ولن امضى إلى ابعد من هـذا ، فلست ابشر بمذهب على نسق مذهب تولسـتوى ، يدعـو إلى البسـاطة وإلى « العودة إلى الأرض » .. انى لا احاول أن ابتكر حلا من عندى لمشكلة توزيع الأراضى الزراعية ، ولا أن أصحح وجهة النظر الاشتراكية ازاءها . كل ما افعله هو ان اقرر حقيقة واقعة ، فلست اشيد مذهبا على حالتنا الخاصة ، فان حالتنا مصادفة غير مقصودة ، وأن اقتصادنا لمهوش للغاية . فنحن لا نكفى انفسنا بانتاجنا فى الواقع .. وما ننتجـه ـ من بطـاطس وخضر ـ ليس سوى جزء صغير مما نحتاج إليه ، أما الباقى فنحصل عليه من مصادر اخرى .

« واسـتخدامنا الأرض غير مشروع ، فقـد امسـكنا بالقانون بين ايدينا ، واننا لنخفى عن العدالة ما نفعـل . ان الخشب الذى نقتطعه مسروق ، ولا يشفع لنا اننا نسرق من الدولة ، او ان الضيعة كانت ملكا لكروجر . وما ينقذنا سوى « ميكوليتسين ـ الذى يتستر علينا ، لأنه يعيش بعين الطريقة التى نعيش بها ـ وسوى بعدنـا عن البلدة التى لاتعـرف سلطاتها بعد ما نحن بصدده ، لحسن الحظ .

« انى لأتكتم اننى طبيب ، لانى لا اود ان تقيد حريتى . ولكنى افاجأ دائما بأن شخصا ما ، من مكان ما ، يهتدى إلى ان فى (فايكينو) طبيبا . ومن ثم فانهم يقطعون عشرين ميلا ليقابلونى ، ويحضرون دجاجة ، أو بعض البيض ، او قليلا من الزبد ، على سبيل « الأتعاب » ! .. ولا يسعنى أن ارفضها مهما ابذل ، لأن القوم لا يعتقدون ان للعلاج مفعولا ، ما لم يدفعوا ثمنا له . وهكذا فان ممارستى الطب تدر دخلا ضئيلا . على ان عمادنا الأكبر — عماد ميكوليتسين وإياى — هو سامديفياتوف .

« انه شخصية معقدة إلى درجة خيالية ، حتى انى لا عجز عن ان افهمه . فهو نصير صادق للثورة ، وانه ليستحق ثقة سوفييت (يورياتين) .. وبوسعه — بكل السلطان الذى منحوه اياه — ان يستولى على اخشاب (فاريكينو) دون ان يجشم نفسه عناء اخبارى او اخبار ميكوليتسين بالأمر ، وهو يدرك اننا لا نملك ازاء ذلك امرا .. ولو انه شعر — من ناحية اخرى — بميل إلى سرقة الدولة ، لاستطاع ان يملأ جيبه ، دون ان ينبس احد ببنت شفة فى هذه الحال كذلك . فليس هناك من هو بحاجة إلى رشوته ، او إلى اشراكه فى مغانمه ، فما الذى يدعوه إذن إلى ان يأخذ كل هذا الحذر منا .. من آل ميكوليتسين ، وناظر المحطة ، ونحن ، وكل امرىء فى المنطقة تقريبا ؟ .. ما من لحظة الا وهو يسرع فيها إلى مكان ما ، فيستولى على شىء يحضره الينا . وهو ملم برواية دوستويفسكى : « المأخوذ » ، بقدر ما هو ملم بـ « البيان الشيوعى » ، فتراه يجيد الحديث

عن الاثنين على السواء . واحسب انه ما لم يركب حياته ويعقدها على هذا النطاق الواسع ، المستهتر ، لمات مللا وسأما ! » .

— ٢ —

وبعد فترة قصيرة ، كتب يورى فى يومياته :

« اننا نقيم فى غرفتين ، فى جناح مبنى من الخشب ، ملحق بالجزء الخلفى من الدار العتيقة ، كان « كروجر » يفرده — فى طفولة « آنا ايفانوفنا » — لبعض من كانوا فى خدمة بيته :للحائكة ولمدبرة شؤون الدار ، وللمربية التى قعدت عن العمل .

« وكان المكان مخربا إلى حد كبير حين قدمنا ، ولكنا اصلحناه بسرعة كبيرة . وبمساعدة الخبيرين بهذه الأمور ، اعدنا بناء المدفأة التى تخدم الحجرتين ، واعدنا تنسيق منافذ التهوية ، فأصبحت تنتج مزيدا من الدفء . وكانت الحديقة القديمة قد تلاشت من هذا الجزء من الأرض ، إذ طغت عليها النباتات الجديدة وحجبتها .. أما الآن ، وقد قتل الشتاء كل شىء ، ولم يعد الحى يخفى الميت ، فان الماضى يمكن أن يرى اكثر وضوحا ، وكأنه جليد متجمد !

« ولقد كنا محظوظين ، إذ كان الخريف جافا ، دافئا ، وقد اتاح لنا وقتا كى نحفر الأرض ، ونغرس البطاطس ، قبل أن تدهمنا الأمطار والجو البارد . وكان لدينا عشرون كيسا منها ، عدا ما رددناه إلى ميكوليتسين ، فوضعناها فى اكبر

خزانة للمؤن فى القبو ، وغطيناها بالبطانيات القديمة وبالتبن . كما وضعنا برميلين مليئين بالخيار المملح ، واثنين مليئين بالكرنب المخلل ، اعدتها تونيا بنفسها .. ومن أخشاب السقف ، تدلى الكرنب الأخضر ، وقد علق كل اثنين معا . وهناك جزر مدفون فى الرمال الجافة ، وفجل وبنجر ولفت ، وفاصوليا وبازلاء مختزنة فى الفراغ الذى بين السطح الأعلى والسقف (الصندلة) . كما أن فى المبنى الخارجى من خشب الوقود ما يكفينا إلى الربيع .

« اننى احب هواء القبو الدافىء ، الخالى من الرطوبة ، وعبير التربة والجذور والثلج ، الذى يطالعك بمجرد أن ترفع غطاء السلم لتهبط إلى جوف القبو ، فى الساعات الأولى التى تسبق فجر الشتاء ، وفى يدك ضوء واهن مرتعش .. وتخرج فاذا الظلام لا يزال مسيطرا . وينبعث من الباب صرير ، أو انك قد تعطس، أو يتهشم الجليد منسحقا تحت قدميك بصوت مسموع ، فاذا الأرانب البرية تجزع ، فى حوض الكرنب القصى ،فتثب ، وتلوذ بالفرار ، مخلفة وراءها آثار اقدامها متعرجة ، متعارضة .. وعلى البعد تشرع الكلاب فى العواء ، وينقضى وقت طويل قبل ان تهدأ وتعاود السكون . وتكون الديكة قد افرغت صياحها ولم يعد لديها ما تقول .. وإذ ذاك ينبثق الفجر !

« وإلى جانب آثار أقدام الأرانب البرية ، تجد ان السهل الجليدى الممتد إلى ما لا نهاية ، مزركش بآثار اقدام الاوشاق ، تمتد فى تناسق ونظام ، وكأنها عقود من حبات المسابح . ذلك

لان الوشق يمشى مشية القط ، واضعا مخلبا أمام مخلب . ويقولون إنه يسير أميالا عديدة أثناء الليل .. وتنصب الفخاخ للأوشاق ، ولكن الأرانب البرية التعسة تقع فيها — بلاد من تلك الأوشاق — وتدفن فى الثلج حتى وسطها ، فتؤخذ وهى متجمدة ، متيبسة .

« ولقد منينا — فى بادىء الأمر — بأوقات جد عصيبة ، فى الربيع والصيف ، وكان كل ما نملكه هو أن نمضى فى النضال . ولكن بوسعنا ان نستريح الآن ، فى ليالى الشتاء ، فنجلس حول المصباح ، والفضل فى هذا لسامديفياتوف الذى يوافينا بالبترول . فتنهمك الاناث فى الخياطة أو التطريز ، بينما يقرأ الكسندر الكسندروفيتش — أو اقرأ انا — بصوت مرتفع .. والمدفأة حامية .. وانا — الموكل بتغذيتها بالوقود — ارتقب اللحظة المناسبة لاغلق صمام المدخنة ، حتى لا يتبدد شىء من الحرارة . فاذا حالت كتلة متفحمة دون اندلاع النار كما ينبغى ، جريت بها إلى الخارج — والدخان ينبعث منها ، وهى فى يدى — فأطوح بها إلى أبعد مدى ممكن فوق الجليد .. فتطير فى الهواء كالشعلة ، مرسلة شررا حولها ، ملقية ضوءا على الأحواض المربعة البيضاء ، فى المتنزه الناعس ، ثم تدفن نفسها فى كومة من الجليد ، وقد انبعث منها ازيز وفحيح !

« وهكذا قرانا مرارا وتكرارا : « الحرب والسلام » لتولستوى ، و « يوجين اونيجين » وغيرها من روائع بوشكين ، والترجمة الروسية لقصة ستندال « الأحمر والأسود » ، و « قصة مدينتين » لديكنز ، وقصص كلايست القصيرة » .

— ٣ —

ومع اقتراب الربيع ، كتب يورى :

« اعتقد ان تونيا حبلى . ولقد انباتها بذلك ، ومع انها لا تصدقنى ، إلا اننى اشعر بيقين بذلك ، فان الأعراض الأولية ظاهرة بحيث لا يمكن ان يخطئها المرء ، ولست محتاجا إلى ان انتظر الامارات المؤكدة التى تظهر فيما بعد ، حتى اعرف الحقيقة » .

« ذلك لأن وجه المراة يتغير فى مثل هذا الوقت . ولست اقصد انها تفقد بهاءها ، ولكن منظرها لا يعود طوع ارادتها .. انها تصبح تحت سيطرة المستقبل الذى تحمله فى احشائها ، فلا تعود ملك نفسها ، ولا تصبح كالعهد بها عادة .. ويؤدى فقدانها السيطرة على منظرها إلى ان تبدو مضطربة جسميا ، فيفقد وجهها رواءه ، ويخشوشن جلدها ، وتومض عيناها ببريق غير البريق المألوف .. لا لانها تريد ذلك ، وإنما يبدو الأمر كما لو انها تهمل هذه المظاهر جميعا ، إذا تعجز عن مقاومة ما يطرأ عليها !

« وما بعدت الشقة يوما بينى وبين تونيا ، بل لقد زادتنا هذه السنة الحافلة بالعمل تقاربا . وقد لاحظت مدى ما أوتيت من سرعة ، وقوة ، وجلد .. كما لاحظت حذقها فى تنظيم عملها بحيث لا تبدد من الوقت — بين مهمة واخرى — سوى اقل قسط ممكن ..

« لطالما تراءى لى ان كل حمل إنما هو حمل عذرى طاهر ، وان هذه العقيدة الدينية المتعلقة بأم الرب لتعبر اجلى تعبير

عن فكرة كل امومة .. وفى لحظة الوضع ، يحف بكل امراة عبير واحد بالذات .. عبير الوحدة والعزلة ، وكأنها اصبحت مهجورة ، وحيدة . وفى هذه اللحظة الحيوية القيمة ، يصبح دور الرجل غير ذى علاقة بالأمر ، وكأنما لم تكن له فيه يد البتة .. وكأنما الأمر كله كان تلقائيا ! .. فالمراة هى التى تنمى النسل بنفسها ، وهى التى تحمله درجات فى سلم النمو والتطور ، إلى طابق اعلى فى مبنى الحياة .. إلى مكان يصلح لأن يكون مهدا وادعا ، آمنا . وفى صمت وتواضع ، تغذى الطفل وحدها وتربيه .

« لقد دعيت ام الرب إلى ان « تصلى بحرارة لابنها وربها » ، ووضعت كلمات المزمور بين شفتيها : « تعظم نفسى الرب ، وتبتهج روحى بالله مخلصى، لانه نظر إلى اتضاع امته ، فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبنى » .. إنما قالت ذلك بسبب طفلها ، لأنه سيعظمها — « لأن القدير صنع بى عظائم » — ومن ثم فهو — اى يسوع — مجدها .. إن اية امراة تستطيع ان تقول ما قالت العذراء ، لأن كلا منهم ترى الله فى طفلها ! .. ولا بد أن يكون لأمهات العظماء — بوجه خاص — هذا الشعور .. ولكن ، اليست جميع النساء امهات لعظماء ، فى بداية الأمر ؟ .. ذلك لانه لاذنب لهن إذا خيبت الحياة آمالهن فيما بعد » !

— ٤ —

سنظل نعاود قراءة « يوجين اونيجين » والقصائد ، إلى ما لا نهاية .. ولقد جاء سامديفياتوف بالأمس ، واحضر كثيرا

من الهدايا .. اشياء شهية للأكل ، وزيتا للمصابيح .. ونحن نتناقش فى الفن مناقشات لا نهاية لها ، فلقد اعتدت دائما ان ارى أن الفن ليس شيئا يخضع للقول .. ليس ميدانا فيه ما لاحصر له من المذاهب والنظريات ، والظواهر المتباينة ، وإنما هو ــ على النقيض ــ شيء مركز ، محدود تمام التحديد ، انه مبدأ يسرى فى كل عمل فنى تجلت فيه قوة ، وساهمت فى صوغة حقيقة . وما رأيته قط كشكل ، وإنما هو اقرب إلى جزء من كل ، جزء مستتر ، خفى .. كل هذا واضح لى وضوح النهار ، فانا احسه فى كل عظمة من عظام جسدى ، ولكنه شيء عسير المعنى ، يعز على المرء أن يفسره او يحدده ! .. إن العمل الفنى قد يستهوينا بكافة الطرق .. بهدفه ، بموضوعه ، بمواقعه ، بصفاته المميزة .. ولكنه يؤثر فينا بوجود الفن فيه قبل اى شيء آخر .. وإن المرء ليذهل لوجود الفن فى « الجريمة والعقاب » ، اكثر مما يذهل لجريمة راسكولنيكوف ذاتها .

« وليس فى الفن تعدد . فالفن البدائى ، وفن (مصر) ، وفن (اليونان) ، كلها ملك لنا .. كلها ــ فيما ارى ــ واحد من اولها إلى آخرها .. كلها فن يبقى محتفظا بذاته عبر آلاف السنين .. لك ان تسميه فكرة ، أن تسميه قولا عن الحياة ، فالمهم انه من الشمول والتوحد بحيث انك تعجز عن أن تقسمه إلى كلمات منفصلة . وإذا دخل قسط منه ــ ولو مقدار ذرة ــ فى اى عمل يحتوى على اشياء اخرى غيره ، فانه يطغى على جميع العناصر الأخرى فى القيمة والمعنى ، فاذا هو الجوهر ، وإذا هو لب العمل وروحه » !

— ٥ —

« قشعريرة خفيفة ، وسعال ، وربما ارتفاع فى الحرارة .. وضيق فى التنفس طيلة النهار ، وانقباض فى الحنجرة ، واحباس فى الحلق .. انها عوارض غير طيبة .. لا بد ان الأمر يتعلق بقلبى .. انها النذر الأولى للوراثة ، من ناحية امى .. لقد كان قلبها معتلا طيلة حياتها . امن الممكن حقا ان يكن الأمر كذلك ؟ .. وبمثل هذه السرعة ؟ .. إذا صح هذا ، فليس لى ان ارتقب ان يطول اجلى !

« فى الحجرة رائحة احتراق خفيفة .. رائحة المكواة .. إن تونيا تكوى ثيابا ، وهى تأخذ ــ بين آن وآخر ــ فحمة من المدفأة فتضعها فى المكوة ، ثم ينسدل عليها غطاء المكواة بشدة ، وكأنه أسنان تنطبق .. ان هذا يذكرنى بشيء ، ولكنى لا اكاد اذكر كنهه .. ان سوء الصحة يجعلنى كثير النسيان !

« احتفالا بالصابون الذى اهداناه سامديفياتوف ، كان لدينا يومان للغسيل ، وقد اخذ « ساشا » يزداد جموحا .. انه ليجلس ــ إذ اكتب هذا ــ على العارضة التى فى اسفل المائدة ، وقد طوح ساقا إلى كل جانب ، مقلدا سامديفياتوف ــ الذى يصطحبه فى زحافته كلما جاء ــ زاعما انه يصطحبنى فى نزهة .

« يجب ان اذهب إلى مكتبة البلدة ، بمجرد ان اشعر بتحسن ، فأقرأ كل شيء عن علم الأجيال الوصفى للمنطقة ، فهم يقولون إن المكتبة قد حظيت بعدة هبات من الكتب ذات القيمة ، وإنها غنية بدرجة غير عادية .. اننى لاحس بميل

إلى الكتابة ، ولكن لا بد لى من ان اعجل ، فلن يلبث الربيع ان ياتى قبل ان نفطن .. وإذ ذاك لن يكون ثمة وقت للقراءة ولا الكتابة .

« إن نوبات الصداع تزداد سوءا يوما بعد يوم .. ولم انعم بنوم طيب ، وقد رأيت مناما من ذلك النوع المهوش المضطرب الذى تنساه بمجرد ان تستيقظ . كل ما بقى فى ذاكرتى منه ، هو ذلك الجزء الذى ايقظنى .. وقد تمثل فى صوت امراة تردد بجلاء ووضوح فى كل كيانى . ولقد ظل عالقا بذاكرتى ، وظللت اسمعه فى ذهنى ، وحاولت — وانا استعرض كل صديقاتى — ان اتذكر واحدة منهن كانت تتكلم بهذا الصوت العميق ، الندى ، المثقل ، الخافت .. ولكنه لم يكن يمت إلى اية واحدة منهن . وخيل إلى انه ربما كان صوت تونيا ، واننى قد الفتها إلى درجة اننى لم اعد افطن إلى طبقة صوتها . ولقد حاولت ان انسى انها زوجتى ، وأن اشتت عن فكرى هذه الحقيقة ، لكى اتبين .. ولكنه لم يكن صوتها هى الأخرى . ومن ثم فهو لا يزال لغزا غامضا !

« ومما يؤخذ عادة كقضية مسلمة — فيما يتعلق بالأحلام — انك تحلم بشىء اثر فى نفسك تأثيرا قويا خاصا ، اثناء النهار .. ولكن الأمر يلوح لى على العكس من هذا تماما . فالحلم غالبا شىء لم توله اهتماما فى حينه .. فكرة مبهمة لم تحفل بمواصلة التفكير فيها إلى نهايتها .. كلمات انطلقت بدون شعور ، ومرت دون ان توليها اهتماما .. هذه هى الأشياء التى تعاودك فى الليل ، فتكتسى لحما ودما ، وتبدو

كشخصيات فى الأحلام ، وكأنها تقسرك على ان تكفر عن اهمالك اياها فى ساعات يقظتك » !

— ٦ —

« ليلة صافية ، تشيع فى جوها برودة الصقيع .. اشراق غير عادى ، وتماسك بين كل الأشياء ، فان الأرض والسماء ، والقمر والنجوم تبدو كلها متلاصقة ، وكأنما ربط الصقيع بينها .. وتستلقى ظلال الأشجار على الدروب واضحة ، مهذبة ، وكأنها قدت فى عناية وحذق .. انك لا تنفك تخال انك ترى اشباحا معتمة تعبر الدروب بلا انقطاع ، هنا آونة ، وهناك آونة اخرى .. والنجوم الكبيرة تبدو معلقة فوق الأغصان كأنها مصابيح زرقاء .. اما النجوم الصغيرة فتتناثر فى صفحة السماء ، كأنها زهور الاقحوان فى حقل ، فى فصل الصيف .

« ونحن لا نفتأ نتناقش اشعار بوشكين . ومنذ ليال ، تحدثنا عن الأشعار التى كتبها وهو تلميذ فى المدرسة . ما اكثر ما يتوقف على اختيار الوزن ! .. لقد كان اقصى طموحه — طالما ظل يستخدم شطرات طويلة — هو ان يبهر الوسط الأدبى فى ارزاماس .. اقتباسات من الأساطير ، وكلمات ضخمة طنانة ، وحكمة دنيوية ، وابيقورية وسفسطة ! .. كل هذا كان يلبسه اشعاره ، مسايرة للكبار ، وذرا للرماد فى عينى عمه . ولكنه لم يكد يكف عن تقليد « اوسيان » و « بارنى » ، ويتحول عن « ذكريات من تسارسكوى سيلو »

إلى « بلدة صغيرة » أو « رسالة إلى اختى » أو « إلى محبرتى » — التى نظمها فى (كيشينيف) فيما بعد — أو « إلى بودين » ، حتى تجلت شخصية بوشكين على اتمها .. فكانما تدفقت فى شعره اضواء الحياة ، وهواؤها ، وضجيجها ، وكل ما يمت إلى الأشياء المادية الحقيقية ، منسابة من الطريق ، وكانها تنساب خلال نافذة مفتوحة .. اجل ، تدفقت فى شعره اشياء راسخة ، قائمة فى العالم المحيط به . اشياء شائعة الاستعمال ، واسماء لأشياء ، واسماء عامة . كل هذه انسابت فى شعره ، واستولت على نظمه فطردت كل ما كان مبهما من الحديث .. انسابت الأشياء تباعا ، وباطراد ، فى صفوف منظومة ، منغومة ، على الورق !

« كانما كانت تلك الرباعيات — التى اشتهرت وذاعت فيما بعد — علامات مرسومة على عصا للقياس ، استخدمت لسبر غور الحياة فى روسيا .. وكانما كان يقيس وجودها باكمله ، ليرسمه كما ترسم محيط قدم ، او تعين حجم كف اليد ، لتستوثق من أن حذاء أو قفازا يلائم الحجم المنشود .

« ولقد تردد — فيما بعد — الوقع الموسيقى للغة الروسية المستعملة .. ترددت انغام الكلام العادى ، فى رباعيات « نيكراسوف » ومقاطعه الشعرية » .

— ٧ —

« اتمنى ان اكون نافعا — كطبيب او كمزارع — وان اكون ، فى الوقت ذاته ، عاكفا على عمل باق .. عمل

جوهرى ، راسخ الأسس .. لكم اتمنى ان اكتب مؤلفا فى الفن أو فى العلم .

« ان كل إنسان يخلق على نسق « فاوست » ، يصبو إلى ان يحتضن كل شىء فى الدنيا ، وأن يجربه ، وأن يعبر عنه ويصفه . ولقد أصبح « فاوست » عالما بفضل اخطاء أسلافه ومعاصريه . فان التقدم فى العلم يخضع لقواعد الصد والتنافر .. فكل خطوة إلى الأمام تحدث تحت دفع رد فعل الأوهام المخيبة ، والنظريات الزائفة التى تسود الزمن .. لقد كان ذلك الـ « فاوست » فناننا ، يدين بالقدوة التى خلفها له اساتذته . والخطوات التى تتجه إلى الأمام فى الفن ، تحدث بفعل الجاذبية ، ممثلة فى اعجاب الفنان ورغبته فى أن يحذو حذو السابقين الذين يعجب بهم .

« فما الذى يمنعنى من ان اكون طبيبا أو كاتبا نافعا ؟ .. اننى اعتقد أن الذى يمنعنى هى القوة التى تتسلط علينا فى أيام شغفنا بالأساليب الخطابية ، والعبارات الرنانة .. « الكليشيهات » .. كل تلك الـ « فجر المستقبل » ، و « بناء عالم جديد » ، و « حملة مشاعل الجنس البشرى » .. هذه القوة ، وليس الحرمان ، ولا هيامنا وحيرتنا ، ولا تقلبنا المستمر وحياتنا غير المستقرة . انك حين تسمع تلك العبارات الطنانة — لأول مرة — تقول فى نفسك : « يا له من خيال غنى ! » . ولكن الواقع أن رواءها وفخامتها ورنينها إنما يرجع إلى انه لا خيال البتة وراءها ، لأن الفكر يأتى فى الدرجة الثانية !

« ان الشىء الخيالى ليس دائما سوى الشىء العام الشائع ، وقد مسته يد عبقرى نابغة ! .. وخير درس — فى هذا الصدد — هو « بوشكين » . فما رواء القصيدة إذا قيس بالعمل الصادق ، وبالمألوف المحيط بنا ؟ ! .. إن تعبيرى « العامى » و « الطبقة الوسطى » قد اصبحا اليوم من مصطلحات السباب ، ولكن بوشكين استبق النقد فى : « شجرة الأسرة » ، إذ قال : « عامى ! عامى .. هكذا انا ! ثم فى : « رحلة اونيجين » ، إذ قال :

« غايتى المثلى الآن ، هى الزوجة ربة البيت ..

« فان اعظم امنياتى هى الحياة الهادئة ..

« ووعاء حساء الكرنب الدسم » .

« ان افضل ما احببت فى الأدب الروسى بأكمله ، هو الخلة الروسية التى تتسم بطابع الطفولة ، والتى اوتيها بوشكين وتشيكوف .. عدم المبالاة الخجول بالمسائل ذات الرنين المدوى ، مثل : الغاية النهائية للجنس البشرى ، او خلاص البشر . وليس ذلك لأنهما لم يفكرا فى تلك الامور — ولو انهما فعلا لكان هذا خيرا لهما — وإنما لأنهما كانا يشعران دواما بأن المسائل الهامة ليست لهما ولا من شأنهما .. فى حين ان جوجول ، وتولستوى ، ودوستويفسكى كانوا يشقون بالبحث عن معنى الحياة ، ويستعدون للموت فيسوون حسابهم .. لقد كانوا فى شغل — إلى نهاية اعمارهم — بالمهام الفردية العادية التى كانت تفرضها عليهم مهنتهم ككتاب .. وفى سياق اضطلاعهم بهذه المهام ، عاشوا

حيواتهم فى هدوء ، يعالجون حيواتهم ومؤلفاتهم معا على انها مسائل فردية خاصة ، لا تهم ولا تعنى سواهم .. فاذا بهذه الحيوات والمؤلفات تصبح موضوع اهتمام الجميع ، وإذا بتأليفهم ينضج من تلقاء ذاته ، وكأنما كانت مؤلفاتهم تفاحات اقتطفت وهى خضراء ، ثم اخذت تزداد نضوجا فى الشكل والحلاوة » .

— ٨ —

اولى بدار الربيع .. ذوبان الثلوج ، والروائح الناعسة العالقة بالهواء .. روائح الفطائر المصنوعة بالزبد ، والفودكا ، واطعمة الصوم الكبير . وفى الغابة ، تفتح شمس ناعسة — رجراجة كالزيت — عينها ، وتفتح اشجار الصنوبر الناعسة اقماعها الشبيهة بأهداب العين ، وبراعمها الناضجة بالزيت ، اللامعة فى وضح النهار .. إن الريف يتثاءب ، ويتمطى ، ثم يتقلب ويعود إلى النعاس !

« ان الفصل السابع من « يوجين اونيجين » يصف الربيع : بيت « اونيجين » وقد بدأ موحشا لغيابه ، وقبر « لينسكى » على ضفة الغدير ، عند اسفل التل .

« والبلبل ، عاشق الربيع

« يغنى طيلة الليل .. والوردة البرية تتفتح » .

« لماذا « عاشق » الربيع ؟ .. الواقع انه من الطبيعى ان تقول انه تعبير مناسب . إن « عاشق » تعبير صحيح . ثم إن الشاعر كان بحاجة إليه لوزن الشعر .. او تراه كان

بفكر — فى الواقع — فى « بلبل اللص » ، الذى ورد ذكره فى الأسطورة الشعرية : « بلبل اللص ، ابن أوديمانتيى » ؟ :

« عند سماع صفيره البلبلى ،
« عند سماع صيحة الغابة الضارية تنبعث منه ،
« يرتجف العشب من قمته إلى جذوره ،
« وتسكب الزهور أوراقها كالدموع ،
« وتنحنى الغابة المظلمة حتى تمس رؤوسها الأرض ،
« ويسقط كل الصالحين من البشر صرعى » .

« لقد جئنا إلى (فاريكينو) فى باكورة الربيع ، فسرعان ما اخضوضرت الأشجار — أشجار الحور والبندق والكريز — لا سيما فى (شوتما) .. المنخفض الواقع أسفل دار ميكوليتسين . وما لبثت البلابل أن بدأت تغنى .

« ومرة أخرى ، رحت أفكر فى الفارق بين أغانيها وأغانى الطيور الأخرى جمعاء .. فى الهواء الواسعة التى تركتها الطبيعة — دون أن تسدها — بين الطيور الأخرى ، وبين ثروة البلابل من حيث الشدو ! والتغريد . يا للتنوع والقوة والرنين المنغم الذى أوتيته أصواتها ! .. لقد تحدث عنها « تورجنيف » .. تحدث عن صفيرها الذى بدا له وكأن جنى الغاب يعزف على أرغوله ! .. وكانت فى تغريدها الآن عبارتان تبدوان متميزتين عن سواها : أحداهما تتمثل فى تغريد غنى النبرات ، لحوح : «تيوخ — تيوخ — تيوخ » ، ما إن تسمعه الغابة المجللة بالندى ، حتى ترتجف ، وكأن بها مسا من الطرب .. أما العبارة الأخرى فنداء — أو لعله انذار — مهيب فيه مناشدة : « أوشنيس ! .. أوشنيس » .

— ٩ —

« ها هو ذا الربيع .. اقترب وقت حصاد الربيع ، فلا وقت للكتابة ، ولو كتابة اليوميات . لقد كانت الكتابة متعة طيلة الفترة التى دامتها .. والآن سأضعها جانبا إلى أن يحين الشتاء القادم .

« منذ أيام — وكنا لا نزال فى الصوم الكبير — جاءنى فلاح عليل فى زحافته وسط سيول الربيع ، وقاد زحافته إلى ساحة الدار ، خلال الوحل والحمآت . فأخبرته بأننى لم أعد أمارس المهنة ، وأننى لا أمتلك شيئا من الأدوية أو الأدوات اللازمة . ولكن هذا لم يكن مجديا ، فقد ظل يلح ويلحف : « انقذنى ! .. إن جلدى فى حال سيئة . اشفق على جسدى المعتل ! » .. فماذا كان فى وسعى أن افعل ؟ إن القلب لم يقد من صوان ، ومن ثم سألته أن يخلع ثيابه ، فاذا به مصاب بسل العظام . وفيما كنت أفحصه ، حانت منى التفاته إلى زجاجة حامض الفنيك (ولا تسلنى من أين جاءت ، فهى والأشياء القليلة الأخرى التى لا غنى عنها — بل وكل شىء — تأتى من سامديفياتوف) . ثم رأيت زحافة أخرى فى الساحة ، فخيل إلى أن مريضا آخر قد أقبل . ولكنه كان أخى « ايفجراف » ، وقد هبط علينا من حيث لا ندرى .. وتولته الأسرة : تونيا وساشا والكسندر الكسندروفيتش . وما لبث أن خرجت وانضممت إليهم ، ورحنا نمطره بالأسئلة .. من أين جاء ؟ وكيف جاء ؟ .. وراغ — كعادته — فابتسم ، وهز كتفيه ، وتكلم بالأحاجى والألغاز !

« ولقد مكث اسبوعين ، اكثر خلالهمـــا من التردد على (يورياتين) ، ثم اختفى فكانما انشـــقت الأرض وابتلعته . وتبينت اثناء اقامته معنا انه كان اكثر نفوذا من سامديفياتوف نفسه ، وان عمله واتصالاته كانت اكثر غموضا . فما منصبه؟ وماذا يفعل ؟ ولـــماذا اوتى كل هذا السلطان ؟ .. لقد وعد بان ييسر لنا الأحوال ، حتى يتسنى لتونيا أن تجد مزيدا من الوقت تفرغ فيه للعناية بساشا ، وحتى يتوفر لى مزيد من الوقت لممارسة الطب والكتابة . وسالنـــاه كيف كان يرجو ان يحقق ذلك ، فابتسم ! .. ولكنه كان عنـــد وعده ، فهنـــاك دلائل تغير فى احوالنا .. وهذا امر غير عادى ، فى الحق ! .. انه اخى غير الشقيق ، ونحن نحمل لقبـــا واحدا ، ومع ذلك فلست اعرف شيئا عنه فى الواقع ! .. لقد اندفع إلى حياتى – للمرة الثانية – كانه ملاكى الحارس ، او منقذى . فبدد كل المصاعب .. فلعل فى كل حيـــاة – إلى جانب الشخصـــيات الأخرى – قوة خفية ، مجهولة .. طيفا يكاد يكون رمزيـــا ، يهبط غير مدعو ليقدم النجدة .. ولعل ايفجراف – اخى – يلعب فى حياتى دور هذا الطيف الخفى ! » .

* * *

وهنا ، تنقطع يوميات يورى .. ولم يقدر له أن يستأنفها ثانية !

– ١٠ –

اخذ « يورى » يقلب صفحات الكتب التى كان قد طلبها فى قاعة المطالعة بمكتبة (يورياتين) العامة . وكان لقاعـــة

المطالعة كثير من النوافذ ، والمكان يتسع لجلوس حوالى مائة شخص ، وقد اقيمت مناضد طويلة ، فى صفوف تنتهى عنـــد النوافذ .. وكانت المكتبة تغلق عنـــد الغروب ، إذ لم تكن فى البلدة اضاءة فى فصل الخـــريف . ولكن « يـــورى » لم يتأثر بذلك ، إذ انه لم يمكث فى البدة إلى ما بعـــد العشاء ، فى اى يوم . وكان يترك الجواد – الذى اعاره اياه ميكوليتسين – عند فندق سامديفاتوف ، ويقضى النهـــار كله فى القراءة ، ثم يمتطى جواده ثانية ، ويعود إلى (فاريكينو) فى الأصيل .

ولم يكن يورى يذهب إلى (يورياتين) قط تقريبا قبل ان يشرع فى التردد على المكتبة ، إذ لم يكن له شىء معين يفعله فيها ، ولم يكن يدرى عنها شيئا . اما وقد اصـــبحت قاعـــة المطالعة تمتلىء تدريجيا بسكان البلدة وما حولهـــا ، وصـــار بعضهم يجلس إلى جواره ، والبعض على مسافة منه ، فقـــد احس كما لو انه قد بدأ يتعرف على البلـــدة ، وكانما لم يكن القوم وحدهم هم الذين يفدون على القاعة ، وإنما كانت البيوت والشوارع التى يقيمون فيها تلتقى هى الأخرى هناك !

وكانت (يورياتين) الحقيقيـــة – (يورياتين) الواقع لا الخيال – ترى خلال النوافذ .. وأمام النافـــذة الكبرى – تلك التى تتوسط الصف – كانت ثمة قدر بها ماء مغلى . فاذا شعر المطالعون برغبة فى الترويض ، خرجـــوا إلى الســـاحة ليدخنوا ، او التفوا حول القدر ليشربوا الماء ويفرغوا ما تبقى فى اكوابهم فى الحوض ، ويجتمعوا عنـــد النـــافذة ، يطلون باعجاب على منظر البلدة .

وكان المطالعون نوعين : فاغلبهم ينتمون إلى الطبقة المثقفة المحلية ، والباقون من اصل اكثر تواضعا .. وكان المثقفون — ومعظمهم من النساء — ذوى ثياب رثة ، ومظاهر تنم عن ذلة وحرمان ، ووجوه طويلة ، سقيمة ، متهدلة لسبب من الأسباب : إما من جراء الجوع ، او داء اليرقان ، او مرض الاستسقاء .. وقد اعتادوا الاقبال على القراءة دائما ، فكانوا يعرفون القائمين على المكتبة شخصيا ، وكانوا يشعرون فيها بالارتياح الذى يستشعرونه فى بيوتهم . اما العامة فكانوا يلوحون احسن حالا ، واكثر ملاحة ، وكانوا يرتدون خير ثياب نظيفة يمتلكونها .. وكانوا يفدون على استحياء وخجل ، وكانهم يلجون كنيسة ، ثم لا يلبثون ان يحدثوا من الضجيج اكثر مما يحدثه الآخرون ، لا لأنهم لم يكونوا على دراية بالقواعد ، وإنما لأنهم فى حرصهم على ان لا يحدثوا صخبا ، كانوا يفقدون السيطرة على اقدامهم المتوثبة ، واصواتهم المتحفزة .

وكانت امينة المكتبة ومساعدتاها يجلسن على منصة فى جزء غائر فى الحائط المواجه للنوافذ ، يفصل بينهن وبين بقية القاعة حاجز . وكانت إحدى المساعدتين امرأة حولاء العينين، ترتدى وشاحا من الصوف ، لا تفتأ تثبت على انفها منظارا — من النوع الذى يثبت على الأنف دون ذراعين تلتفان حول الأذنين — لتعود فترفعه ، انسياقا وراء إملاء اعصابها ، لا وفقا لما كانت تقتضيه الحاجة . اما المساعدة الأخرى فكانت ترتدى قميصا (بلوزة) من الحرير الأسود ، ويبدو من مظهرها أن صدرها كان ضعيفا ، إذا كانت تتنفس وتتكلم ومنديلها على انفها وفمها ، لا تقصيه عنها اطلاقا .

وكان لهؤلاء الموظفات وجوه طويلة ، متهدلة كوجوه المثقفين ، وبشرة كبشرتهم تبدو مخضوضرة كالخيار المملح ، او سمراء .. وكن يتناوبن الادلاء همسا بقواعد النظام للرواد الجدد ، ويراجعن بطاقات طلب الكتب ، ويبحثن عن هذه الكتب فيقدمنها للقراء ، ثم يسترددنها منهم .. وبين آن وآخر ، كانت الواحدة منهن تعكف على اعداد تقرير او شيء من هذا القبيل .

وبفضل التقاء الأفكار التى كان يثيرها فى نفس يورى منظر البلدة الحقيقية — كما هو خارج النافذة — والمنظر الذى كان يصوره خياله وهو داخل القاعة ، ومناظر الوجوه المتورمة التى كانت تحيط به ، والتى كانت توحى إليه بأن اصحابها مصابون بتضخم غددهم الدرقية ، كما كانت تذكره — بطريقة ما — بوجه امرأة فظة شرسة كانت تتولى الاشارات فى محطة (يورياتين) فى الصباح الذى وصل فيه .. بفضل التقاء هذه الأفكار — دون ما مبرر يعلل التقاءها او يبرره — كان يتذكر منظر البلدة كما تبدى له على البعد ، فى ذلك الصباح ، وسامديفياتوف إلى جواره على ارض العربة ، وتعليقات سامديفياتوف وبياناته وهو يشرح كل ما كان يعن له عن البلدة .. ولقد حاول ان يربط بين هذه البيانات — التى ازجيت إليه على مبعدة من البلدة ذاتها — وبين الأشياء التى كانت تحيط به مباشرة وهو فى وسط البلدة ، ولكن ما كان يتذكره من بيانات سامديفياتوف لم يكن يكفى ليمكنه من ذلك .

— ١١ —

كان «يورى» يجلس فى اقصى اطراف القاعة عن الباب، وامامه عدة تقارير واحصاءات محلية ، وبعض المراجع الخاصة بعلم الأجيال الوصفى للمنطقة . وكان قد حاولَ أن يحصل كذلك على كتـابين فى تاريخ ثورة (بوجاتشـيف) ، ولكن مساعدة امينة المكتبة — ذات « البلوزة » الحريرية — همست إليه بانه ليس لقارىء ان يأخذ كل هذا العدد من المجلدات فى وقت واحد ، وان عليه ان يرد بعض الصحف والمراجع قبـل ان يأخذ كتبا اخرى من الكتب التى كان يهتم بها .. ومن ثم فانه راح يقلب كومة الكتب التى كانت امامه بغير تنسيق ، وعكف عليها باسرع وانشط مما كان ، لكى يختار منها ما كان بحاجة حقيقية إليه ، فيستبدل بالباقى الكتب التاريخية التى كان راغبا فى الاطلاع عليها .

وراح يتصفح الاضابير ، ويستعرض عناوين فصـول الكتب . منصرفا بكل اهتمامه إلى عمله ، لا يتلفت حوله ، فلم يشغله رواد المكتبة .. على انه كان قد تأمل جيرانه بنظرات واعية — فى بادىء الامر — فرسخ اللذان إلى يمينه وإلى يساره فى باله ، حتى بات يدرك انهما كانا موجودين ، دون أن يرفع بصره عمـا كان امامه .. ولم يكن يرتقب أن يبرحـا قاعـة المطالعة قبله ، إلا إذا كان له أن يرتقب أن تتزحزح البيـوت والكنائس — التى فى خارج القاعة — عن اماكنها !

ولكن الشمس كانت تبدل مكانها طيلة الوقت ، فدارت حول القاعة من الركن الشرقى ، واصبحت تشع خلال النوافذ

— التى فى الجدار الجنوبى — منصبة على عيون اقرب القراء إلى ذلك الجدار . فهبطت امينة المكتبة — التى كانت مصابة ببرد حاد — عن منصتها ، وسارت إلى النوافذ .. وكانت لهذه ستائر خشبية بيضاء ، مضـلعة ، تخفف من وهج الضـوء وتجعله مريحا ، فاخذت امينة المكتبـة ترخى هـذه الستائر جميعا . وكانت النافذة الأخيرة لا تزال فى الظل ، فلما بلغتها ، جذبت الحبل لتفتح المضلعات التى تتألف منها الستار ، ولكنها اصيبت بنوبة من العطاس . وبعد ان عطست عشر مرات او اثنتى عشرة ، خطـر ليـورى انهـا كـانت اخت زوجـة « ميكوليتسين » .. احـدى بنات « تونتسيف » اللائى كان ساميديفياتوف قد تحدث عنهن ، فرفع راسـه واتجه بنظره نحوها ، كما كان معظم المطالعين قد فعلوا .

وإذ ذاك ، لاحظ تغيرا طرا على القاعة . ففى الطـرف القصى منها ، كانت ثمة قارئة جديدة ، عرف يورى لفوره انها « انتيبوفا » ! .. وكانت تجلس وظهرها نحوه ، وهى تتحدث بصوت خافت إلى امينة المكتبة المصابة بالبرد .. وكانت هذه تقف منحنية نحوها ، تجيبها هامسة . ولاح أن الحديث كان ذا وقع طيب فى نفس امينة المكتبة ، إذ بدا انه قد ابراها فى التو من البرد .. بل لقد ابراها كذلك من التوتر العصبى ، فقـد اختفت معالمه عن أساريرها . وبينما كانت ترمق «لارا» بنظرة حارة ، حافلة بالعرفان ، رفعت عن وجهها المنديل الذى لم تكن تكف عن الصـاقه بفمهـا ، ودسـته فى جيبها ، وعادت إلى مقعدها خلف الحاجز مغتبطة ، مطمئنة ، مبتسمة !



عرف يورى لفوره انها « انتيبوفا » !.. وكانت تجلس وظهرها نحوه ، وهى تتحدث بصوت خافت الى امينة المكتبة المصابة بالبرد ..

وكان الحادث — بتفصيلاته العاطفية هذه — قد استرعى انتباه عدة أفراد فى أرجاء مختلفة من القاعة ، فابتسموا بدورهم وهم يرمقون « لارا » فى تقدير . وادرك « يورى » — من بضع اشارات طفيفة — إلى اى مدى كانت « انتيبوفا » معروفة ومحبوبة فى البلدة .

— ١٢ —

وكان أول ما خالج يورى هو ان ينهض ويجتاز القاعة ليتحدث إليها ، ولكن خجلا واحجاما غريبين عن طبيعته تماما ، كانا قد زحفا إلى علاقته بها — فى الماضى — وخفا الآن إلى صده . فقرر أن لا يعكر عليها صفوها ، وان لايقطع على نفسه عمله . ولكى يتفادى اغراء النظر إليها ، حول مقعده جانبا ، بحيث اصبح ظهر مقعده متجها إلى المنضدة تقريبا . وحاول ان يركز كل انتباهه إلى كتابين امسك باحدهما بين يديه ، ووضع الآخر على ركبتيه .

غير ان افكاره كانت بعيدة عن موضوع قراءته بمراحل ، فقد تبين فجأة أن الصوت الذى سمعه فى منامه مرة — فى إحدى ليالى الشتاء التى قضاها فى (فاريكينو) — كان صوت « لارا » . وواتاه هذا الاكتشاف فى مفاجأة جعلته يدفع مقعده إلى الخلف فجأة ، فيحدث صوتا اجفل له جيرانه .. وراح يحملق فيها . وكان يرى جانبا من وجهها ، ومن الخلف .. كانت ترتدى قميصا من قماش مبرقش ، مزموما بحزام .. وقد جلست — مستغرقة فى مطالعة كتابها ، منصرفة إليه كل

الانصراف – وقد مال راسها قليلا إلى كتفها اليمنى ، وكأنها طفلة .. وكانت تكف عن المطالعة من آن إلى آخر ، وترفع بصرها إلى السقف ، او تسدده امامها مباشرة ، ثم تسند خدها إلى راحتها ، وتكتب فى مفكرتها ، محركة قلمها حركة سريعة ، خفيفة ..

ولاحظ « يورى » من جديد ما كان قد لاحظه – منذ زمن طويل – فى (مليوزييفو) ، فقال فى نفسه : « ليس بها شىء من الخلاعة والاغواء . انها لا تبغى ان تروق لأحد ، ولا أن تبدو جميلة . فهى تنبذ كل هذا الجانب من حياة المراة ، وكأنها تعاقب نفسها على انها فاتنة ! .. ولكن هذا العداء منها لنفسها يبديها اكثر فتنة وجاذبية .. ما امهرها فى اداء اى شىء ! .. انها لتمارس المطالعة لا كما لو أن القراءة هى اسمى نشاط إنسانى ، وإنما كما لو انها اسهل شىء .. كما لو أن المطالعة شىء يستطيع اى مخلوق – حتى الحيوان – أن يمارسه .. تماما كما لو انها تنقل ماء من بئر ، أو تقشر بطاطس ! » .

وبعثت هذه الخواطر هدوءا فى نفسه . والحق انه نادرا ما عرف مثل تلك السكينة التى غشيته . وكف عقله عن الاندفاع من موضوع إلى آخر ، ولم يسعه سوى ان يبتسم ، فقد كان لوجود «لارا» على نفسه عين الأثر الذى كان لها على امينة المكتبة المتوترة الأعصاب ! .. ولم يعد يحمل هم الوضع الذى يجعل فيه مقعده ، لا ولا عاد خائفا من شرود الذهن ، فعكف على العمل ساعة – او زهاء الساعة – فى استغراق

فاق استغراقه قبل مجيئها . وتصفح جميع الكتب التى كانت امامه ، واضعا ما كانت تمس الحاجة إليه جانبا . بل انه وجد وقتا لكى يقرأ مقالا فى احدها كان يتصل بالموضوع الذى ينشده .

وما لبث ان قرر انه ادى من العمل ما يكفى ليومه ، فجمع كل الكتب ليحملها إلى مكتب امينة المكتبة .. فلقد جال بخاطره – وهو مرتاح الضمير ، خلو من كل حافز انانى – ان جده فى اثناء النهار يجعله أهلا لأن يفرغ إلى لقاء صديقة قديمة ، ويتيح له حقا مشروعا فى ان يسعد بلقائها . ولكنه فوجىء عندما نهض واجال بصره فى القاعة ، بأن لارا .. لم تعد موجودة !

وكانت الكتب التى ردتها لا تزال على المنضدة التى وضع عليها كتبه .. كانت كلها كتبا تدور حول « الماركسية » ، فلا بد ان « لارا » كانت تجدد معرفتها على ضوء الأسس الجديدة ، قبل أن تعود إلى مهنة التدريس ! .. وعلى بطاقات الاستعارة ، التى كانت مدسوسة بين صفحات الكتب ، كان عنوانها مكتوبا ، فنقله « يورى » ، وهو فى عجب من غرابته ، « شارع التاجر ، فى مواجهة دار آل كارياتيد » . وسأل احد رواد المكتبة عن المقصود من ذلك ، فانبأه بان عادة وصف مواقع الدور بنسبة امكنتها من دار آل كارياتيد ، كانت من العادات الشائعة فى (يورياتين) ، على نمط عادة تسمية احدى المناطق باسم كنيسة ابرشيتها ، فى (موسكو) .

وكانت دار آل «كارياتيد» مبنى قاتما ، فى سمرة الحديد ، ازدانت واجهته بتماثيل لعرائس الشعر – التى تلهم

الشعراء — وقد حملت صنجا ودفوفا وقيثارات . وقد شيده تاجر فى القرن الماضى ، ليكون مسرحا خاصا له ، فباعه ورثته إلى اتحاد التجار الذى خلع اسمه على الشارع ، واصبح الحى كله معروفا باسم الدار . ثم اصبحت لجنة الحزب فى البلدة تستخدمه كمقر لها ، واصبح الجزء الأسفل من واجهته — الذى كان يحمل فيما مضى الاعلانات وبرامج الحفلات التى كانت تقام فى المسرح — معرضا لاعلانات الحكومة وما تصدره من لوائح وقوانين .

— ١٣ —

كان الأصيل فى احد الأيام الأولى من شهر مايو ، وقد هبت فيه ريح باردة . . وكان « يورى » قد ذهب إلى المكتبة ، واتم ما كان عليه ان يؤديه فى البلدة ، وتهيأ للعودة ، ثم إذا به يغير خططه بغتة ، ويذهب ليبحث عن «لارا» .

واخذت الريح تصده ، وتثير سحبا من الغبار والرمل امامه ، فكان يتحول عن طريقها ، ويحنى راسه ، ويصعد إنسانى عينيه إلى ما تحت جفنيه العلويين ، ويتريث إلى ان يكف التراب عن الهبوب ، ثم يستأنف سيره فى طريقه .

وكانت « لارا » تقيم عند ناصية (شارع التاجر) المواجهة لدار « آل كارياتيد » ذات اللون القاتم المشوب بالزرقة ، التى رآها — إذ ذاك — للمرة اولى ، فاذا بها دار تليق باسمها — فى الواقع — وتشيع فى نفسه شعورا غريبا ، اضطربت له نفسه . . كانت ثمة تماثيل اسطورية لاناث ، فى

نصف حجم الكائنات البشرية ، تقف جنبا إلى جنب محيطة بالدار ، فى مستوى الطابق الأعلى . . وبين نوبتين من هبوب الريح المتربة ، خيل ليورى — وهو يتأمل هذه التماثيل — ان جميع نساء الدار قد خرجن إلى الشرفة ، ورحن يطللن عليه من فوق سياجها الحجرى !

وكان لبيت « لارا » مدخلان ، باب منهما فى (شارع التاجر) ، والآخر فى الجانب الآخر من الناصية ، فى الدرب المجاور . ولما كان يجهل ان ثمة مدخلا اماميا ، سار إلى الشارع الجانبى . وإذ عرج إلى الباب ، حملت الريح التراب والأوساخ ، وراحت تلف بها مصعدة نحو السماء ، فحجبت عنه الطريق إلى الفناء . وخلال هذا الستار الأسود ، أسرعت عدة دجاجات إلى الجرى بين قدمى يورى — وهى تنقنق — يطاردها ديك . . فلما استقر التراب وسكن ، راى « لارا » لدى البئر . وكانت قد ملأت دلوين ، وعلقتهما إلى عصا على كتفيها . وكانت قد لمت شعرها — فى غير اكتراث — فى منديل عقدته فوق جبينها ، وراحت تمسك قميصها — الذى كان الهواء ينفخه — بين ركبتيها . . حتى إذا شرعت فى السير نحو الدار ، اوقفتها هبة جديدة من الريح اختطفت المنديل عن راسها وحملته إلى الطرف الأقصى من السياج الحديدى المحيط بالفناء ، حيث كانت الدجاجات سادرة فى نقنقتها .

وجرى « يورى » وراء المنديل فالتقطه ورده إليها . وتجلت عليها الدهشة ، ولكنها ظلت رزينة كعهدها دائما ، فلم تصدر اشارات مسرحية تعبر بها عن دهشتها . . بل كان

كل الذى قالته ، هو ان هتفت : « جيفاجو ! » . فهتف بدوره : « لاريسا فيودورفنا ! » .

ـ ما الذى تفعله هنا ، بالله ؟

ـ ضعى الدلوين عن كتفيك ، فسأحملهما عنك .

ـ ما اعتدت ابــدا ان اكف عن عمل فى منتصــفه .. ما اعتدت البتة ان اترك عمــلا بدأته ، قبل ان يتم . إذا كنت المقصود بزيارتك ، فتفضل معى .

ـ ومن غيرك آتى لأزوره ؟

ـ وكيف لى ان اعلم ؟

ـ لا بأس ! .. دعينى احمــل هذين الدلوين ، فلست اطيق ان اظل خاملا وانت تعملين .

ـ اوتسمى هذا عملا ؟ .. دعهما ، فانك خليق بان تنثر المــاء على درجات السلم ! .. من الأفضل أن تحدثنى عمــا جاء بك إلى هنا . فانك مكثت فى هــذه المنطقة اكثر من عام ، دون أن تجد لحظة ـ قبل الآن ـ لتأتى !

ـ وكيف قدر لك ان تعرفى ؟

ـ إن الدنيا مليئة بالاقاويل .. كما اننى رايتك فى قاعة المطالعة .

ـ ولمــاذا لم تكلمينى ؟

ـ لا تزعم انك لم ترنى !

وسارت امامه خلال المدخل المقوس القمة ، وهى تتمايل قليلا تحت ثقل الدلوين اللذين كانا يتأرجحان هونــا ما .. ثم

انزلت الدلوين إلى الأرض ، ورفعت العصــا عن كتفيهــا ، واستقامت منتصبة ، فجففت يديها بمنديل صغير ، وقالت : « تعال ، فسأقودك عبر الردهة الداخلية إلى القاعة الأمامية ، فان النور فيها اكثر مما هو هنا . وعليك ان تنتظر لحظة ريثما احمل الدلوين ـ عن طــريق السلم الخلفى ـ واســوى من مظهرى قليلا . لن اغيب طويلا .. تأمل درجات سلمنا الانيقة .. انها درجات من الحديد الزهر ، منقوشة بزخارف اقتدت من الحديد وخلفت ثغرات بشكلها .. انه بيت عتيق ، زعزعته القنابل قليلا ، وبوســعك أن ترى الأماكن التى تفكك عندها البناء .. اترى هذا الشق بين الأحجار ؟ .. هنــا اعتدت ان اترك وكاتيا مفتاح المسكن عند ما نخرج ، فتذكر هذا عسى ان تأتى يوما وانا فى الخارج ، ففى وسعك إذ ذاك ان تفتح الباب، وان تعتبر البيت بيتك ، إلى ان اعود ! .. اترى المفتاح ؟انه فى الشق ، ولكننى لست بحاجة إلى استعماله الآن ، فسوف انفذ من المدخل الخلفى ، وافتح لك الباب من الداخل .. ليس يضايقنا هنا سوى الفئران ، فهناك أسراب وجحافل منهــا ، ولا سبيل لك إلى القضاء عليها . والذنب ذنب هذه الجدران العتيقة ، إذ ان الثغرات والشقوق تتخللها ، فى طــول البيت وعرضه . اننى أســد جميع ما يقع عليــه بصرى من جحور الفئران ، دون ان يجدينى هذا نفعا .. فعساك تأتى يومــا وتساعدنى فى ذلك ! .. إن الشقوق التى بين اخشاب الأرض واسفل الجدران تحتاج إلى سد ، فما رايك ؟ .. والآن ، قف امام الباب ، واشــغل بالك باى شىء ، فلن اغيب طويــلا ، وسأدعوك للدخول بعد لحظة واحدة ! » .

وفى انتظار دعوتها ، راح يتأمل الجدران المنهارة الطلاء ، والدرجات المسبوكة من الحديد الزهر ، وهو يقول فى نفسه : « لقد خيل إلى – وهى فى قاعة المطالعة – انها كانت من التحمس والاقبال على القراءة ، بحيث بدت وكأنها تبذل فى ذلك ما ينبغى ان يبذل فى عمل بدنى شاق . وها انذا أرى ان العكس صحيح كذلك . فهى تحمل الماء من البئر بسهولة ، وفى غير ما جهد ، وكأنها تطالع ! .. إن فى كل ما تفعله يسرا وتناسقا ، وكأنها – فى صغرها – قد أدارت عجلة حياتها ، فاذا كل شىء ينساب من تلقاء نفسه فى استرسال طبيعى ، كما تنساب النتيجة من سبب ما ! .. كل هذا يتجلى فى شكل ظهرها حين تنحنى ، وفى ابتسامتها حين تنفرج شفتاها ، وحول ذقنها ، وفى كلماتها ، وفى افكارها » .

ونادته « لارا » من أعلى السلم : « جيفاجو ! » .. فصعد .

– ١٤ –

اعطنى يدك ، وافعل ما انبئك به ، فان علينا ان نمضى عبر غرفتين مظلمتين ، تكدس فيهما الأثاث .. واخشى ان تصطدم بشىء فتصاب بأذى !

– انها متاهة ، ما كنت لأهتدى فيها إلى طريقى البتة .. لماذا هى هكذا ؟ .. هل يجرى العمل فى اعادة طلاء المسكن ؟

– آه ، لا ، لا شىء من هذا القبيل . ليس هذا هو السبب ، ولكن المسكن ملك لشخص آخر ، لا أعرف عنه شيئا . ولقد كان لى مسكن خاص فى مبنى المدرسة ، فلما استولت إدارة الاسكان بالبلدة على المدرسة ، منحت وكاتيا جزءا من هذا المسكن . وكان السكان القدامى قد رحلوا تاركين كل متاعهم . وما اكثره ! .. ولكننى لا احب مقتنيات الغير ، ومن ثم فقد كدست الأثاث جميعه هنا ، وطليت النوافذ بالجير لأصد اشعة الشمس .. لا تفلت يدى ، وإلا ضللت الطريق . ها قد وصلنا ، وسنعرج يمينا .. الآن أصبحنا خارج المتاهة .. وها هو ذا باب حجرتى . سيواتينا الضوء بعد لحظة .. انتبه إلى الدرجة التى عند المدخل !

وإذ تبعها إلى الحجرة بهره المنظر الذى تجلى خلال النافذة المقابلة للباب . فقد كانت تطل على الفناء ، وتتجاوزه إلى سقوف الدور المنخفضة القائمة وراءه ، ثم إلى الطريق العامة الممتدة بجوار النهر .. الطريق التابعة للمجلس البلدى . وكانت الماعز والأغنام ترعى الحشائش النابتة فى الطريق ، وهى تجرجر صوفها على الأرض وكأنه ذيول معاطف .. وكانت هناك لوحة مألوفة كذلك : « مورو وفيتشينكين – آلات للبذر فى الأخاديد ، وآلات الدراس » .

وإذ ذكره المنظر بيوم وصوله من (موسكو)، شرع لفوره يحدثها عن ذلك اليوم .. ونسى ما قيل من ان « ستريلنيكوف » كان زوج « لارا » ، فراح يحدثها عن التقائه به ، فى غير ما تحرز .. وكان لهذا الجزء من حديثه أثر عميق فى

نفسها ، فهتفت : « ارايته ؟ .. ما اغرب ذلك ! .. لن اقول لك الآن شيئا ، ولكن الأمر عجيب حقا . كانما كان مقدرا لكما ان تتقابلا ! .. ساروى لك كل شىء ، يوما ما ، ولسوف تدهشى . يبدو ان الأثر الذى خلفه فى نفسك طيب اكثر منه سيىء ! » .

— اجل ، بوجه عام .. كان خليقا ان يثير نفورى ، إذ كنا قد مررنا فعلا بالمنطقة التى اشاع فيها الموت والخراب . وقد توقعت ان يكون « باشبزوقا » او جبارا ثوريا ، ولكنه لم يكن هذا ولا ذاك .. وما اطيب ان تتبينى ان إنسانا ما يختلف عن الصورة التى كانت تخالينه عليها ! .. إن هذا يريك انه ليس طرازا خاصا بين الناس ، فلو انه كان كذلك ، لكان فى ذلك نهايته كانسان .. اما إذا لم تستطيعى ان تصفيه بانه طراز معين ، فان معنى هذا ان جزءا منه — على الأقل — يحتفظ بما ينبغى ان يكون عليه الكائن البشرى .. معناه انه اوتى مثقال حبة من طبيعة الإنسان الفانى !

— يقولون انه ليس عضوا فى الحزب الشيوعى .

— اجل ، اعتقد ان هذا حق . وكثيرا ما ساءلت نفسى — منذ ذلك الحين — عما يجعله جذابا . ويخيل إلى ان جاذبيته راجعة إلى انه إنسان مسوق تحت دفع القدر ، ولسوف يلقى نهاية سيئة ، ويكفر عن الشر الذى ارتكبه . إن الثوار الذين يستولون على القانون ويجعلونه ملك ايمانهم فظيعون ، لا لانهم مجرمون ، وإنما لانهم آلات جمحت وانطلقت بعيدة عن كل سيطرة ، كقطار يندفع دون سائق ! .. وإن

ستريلنيكوف لمجنون كالباقين ، ولكن الحياة والعذاب — لا الكتب — هما اللذان افقداه عقله ! .. اننى لا اعرف سره ، ولكنى اشعر عن يقين ان له سرا ، وان تحالفه مع البلاشفة جاء عفو المصادفة .. ولسوف يتحملونه طالما صادف ان كان يسير فى طريقهم ، وسيحاولون ان يستغلوه . ولكن ما إن تنقضى حاجتهم إليه ، حتى يلقوه ارضا ويدوسوه فى غير رحمة ، كما فعلوا بغيره من الخبراء بالشؤون الحربية !

— او تعتقد ذلك ؟

— بل اوقن من ذلك !

— ولكن ، اما من مهرب له ؟ .. اليس بوسعه ان يفر إلى الخارج ؟

— وإلى اين المفر يا لاريسا فيودوروفنا ؟ .. كان بوسعك ان تفعلى هذا فى الأيام الخالية ، ايام القياصرة . ولكن ، حاولى ان تفعليه اليوم !

— لقد جعلتنى آسف عليه .. انك تغيرت ، فهلا تشعر بذلك ؟ .. لقد اعتدت ان تتكلم عن الثورة بلهجة اكثر هدوءا ، وكنت اقل قسوة عليها .

— الأمر يرجع إلى ان لكل شىء حدودا يا لاريسا فيودوروفنا . ففى كل الفترة التى انقضت ، كان لا بد للثورة من ان تحقق شيئا ، ولكن ظهر ان اولئك الذين اوحوا بالثورة لا يجيدون شيئا الا التغيير وإثارة الشغب .. فهذا هو العنصر الذى خلقوا له ، وهم لا يسعدون بشى لا يكون على مجال عالمى . فان فترات الانتقال ، وقيام عوالم جديدة ، هى

بالنسبة لهم غاية فى حد ذاتها . وهم غير مدربين على اى شىء آخر ، ولا هم يعرفون شـيئا عـدا ذلك . ثم ، هل تعرفين السبب فى هذه الدوامة المستمرة — التى لا نهـاية لها — من الاستعدادات ؟ .. انها راجعة إلى انهم لم يؤتوا شـيئا من المقدرة على شىء ، فهم غير موهوبين . لقد خلق الإنسان لكى يمارس الحياة ، وليس ليعد العدة للحياة ! .. إن الحياة ذاتها — نعمة الحياة — شىء خطير يملك على الناس انفاسـهم ، فلماذا يستعاض عنها بهذا التهريج الصبيانى المستوحى من نزوات مراهقة ؟ .. لماذا يستعاض عنها بهذا التهريج الذى لا يصدر إلا عن تلاميذ المدارس ؟ .. ولكن ، كفى حديثا فى هذا الصدد ، فلقد آن لى ان اسالك بدورى : لقد وصلنا فى صباح اليوم الذى وقعت فيه الاضطرابات فى المنطقة ، فهل كنت فى هذه الاضطرابات ؟

— اعتقد اننى كنت فى غمرتها ، فلقد كانت الطلقـات والنيران تحيط بنا من كل جانب .. كانت معجزة ان البيت لم يحترق ، ولكنه تصدع كما انبأتك ، ولا تزال فى الفناء قنبلة لم تنفجر حتى اليوم .. إنها خلف البـاب الخارجى مباشرة .. كانت هناك قنابل ، ونهب وسلب ، وكل انواع الفظائع ، كما هى الحال فى كل انقلاب حكومى .. على اننا قد اعتدنا هـذه الأمور والفناها إذ ذاك ، فما كانت هذه اول مرة نراها فيهـا .. وانى لأعجز عن ان انبئك بما جرى تحت حكم البيض .. كانت هناك اغتيالات ، وانتقام واغتصابات، وابتزاز .. كانت فوضى حقيقية ! .. ولكنى لم انبئك بعد بأغرب الأمور حقا ..

صديقنا « جاليولين » ! .. لقـد ظهر هنـا مع التشيكيين ، كحاكم عام تقريبا !

— اعرف هذا ، إذ سمعت به .. هل قابلته ؟

— كثيرا جدا .. انك لا تتصور كم من الناس استطعت ان انقذهم بفضله ، وكم تحايلت على اخفائهم . وانصافا له اذكر انه تصرف تصرف السيد المهذب الشهم الكامل ، لا كتلك الأسماك الصغيرة .. اولئك الضباط القوزاق الصـغار . وجاويشات البوليس ، ومن إليهم من حثـالات . وكان ذلك السمك الصغير هو الذى يثير الفتن ، وليس القوم البسطاء . ولقد ساعدنى جاليولين كثيرا ، فليباركه الله . اننا صديقان قديمان كما تعلم . فعندما كنت طفلة ، كان يقيم فى مبنى لمساكن العمال ، مجاور لذاك الذى كنـا نقيم فيـه ، فكنت اراه فى خروجى . ولقـد كان معظم السكان من عمـال السـكك الحديدية ، فرايت فى صغرى كثيرا من مشاهد الفقر . وهذا هو السر فى ان مسلكى ازاء الثورة غير مسلكك . فالثـورة اقرب إلى نفسى ، وهناك شطر كبير منها افهمه اعمق الفهم .. افهم ما فى جوفه .. ولكنى لم اكن أتصور ان يصبح جاليولين — وهو ابن بواب — ضـابطا برتبـة « كابتن » .. او لعله « جنرال » ، فليس فى اسرتى احد من العسكريين ، ولسـت اعرف كثيرا عن الرتب العسكرية . ثم اننى — حسب مهنتى — معلمة للتاريخ .. هذه جلية الأمر ، على اية حـال . لقـد استطعنا ان نساعد — متعاونين — عددا كبيرا من الناس . واعتدت ان اسعى إلى لقائه . وتحدثنا عنك . لقد الفت ان

احظى بأصدقاء وعلاقات فى كل حكومة .. كما الفت الأحزان وخيبة الرجاء منهم جميعا .. إن النـــاس لا ينقســـمون إلى معسكرين لا يعود بينهما اى رباط إلا فى الروايات الرديئة . اما فى الحياة الحقيقية ، فكل شىء فى امتزاج ! .. الا ترى ان لا بد لك من أن تصبح تافها كل التفاهة لكى تقتصر على دور واحد لا تؤدى سواه طيلة عمـــرك ، ولكى تظل فى مركز واحـــد فى المجتمع، ولكى تدافع دائما عن راى واحد ؟ .. آه ، ها انتذى قد جئت !

واقبلت صبية فى حوالى الثامنة من عمرها ، نسق شعرها فى ضفيرتين مجدولتين بديعتين . وكانت عينـــاها الضـــيقتان تلمعان بنظرة ماكرة ، ويزوغ انســـاناهما إلى ركنيهما كلمـــا ضحكت . وكانت قد ادركت ان لدى امها زائرا ، إذ سمعت صوته من وراء البـــاب ، ولكنهـــا رات ان من الضرورى ان تتظاهر بالدهشة . فحيت «يورى»، ونظرت إليه فى غير خوف، ودون ان يطرف جفناها ، كما يفعل الطفل الذى يكون وحيد ابويه ، عند ما يقدر له ان يبدأ فى التفكير وتدبير الأحـــوال فى سن جد مبكرة .

وقالت الأم لضيفها : « هـــذه ابنتى كاتيـــا .. آمل ان تصبحا صديقين ! » .

ـ لقد اريتنى صورتها فى (مليوزييفو) . على انها قـــد كبرت وتغيرت عما كانت عليه إذ ذاك !

وقالت لارا لابنتها : « كنت احسبك فى الخارج .. اننى لم اسمعك وانت قادمة ! » .

ـ اخذت المفتاح من الشق الذى فى الجدار . وكان ثمة فأر هائل فيه .. بهذا الحجم ! (واشارت بيديها) .. ليتك رايتنى وانا اقفز ، فقد اوشكت ان اموت رعبا !

وقلصت عضلات وجهها ، وفتحت عينيها عن آخرهما ، وضمت شفتيها فى انفراج دائرى ، كانفراج فم السمكة حين تصعد فوق سطح المـــاء . فقالت الأم : « إذن فانصرفى الآن . لسوف احمل العم يورى على البقـــاء للعشـــاء .. واخرجى « الكاشا » من الفرن .. ولسوف اناديك عندما يكون العشاء معدا » .

وهنا قال يورى : « شكرا لك .. وددت لو اســـتطيع البقاء ، ولكنا اعتدنا ان نتناول العشاء فى الساعة السادسة ، منذ بدات اتردد على البلدة ، وانا احرص على ان لا اتاخر عن هذا الموعد ، إذ ان المسافة إلى البيت تستغرق منى اكثر من ثلاث ساعات .. بل حوالى اربع . وهـــذا هو السر فى اننى قدمت فى وقت مبكر ، واخشى ان اكون مضطرا إلى الانصراف بعد قليل » .

ـ بوسعك ان تبقى نصف ساعة آخر .

ـ لكم احب هذا !

— ١٥ —

ـ اما وقد كنت صريحا معى ، فسوف اكون صريحـــة معك. إن ستريلنيكوف الذى قابلته هو زوجى «باشا انتيبوف»

.. باشا الذى ذهبت إلى الجبهة بحثا عنه ، والذى ابيت ان اصدق موته ، وكنت على صواب فى ذلك .

ـ لا يدهشنى ان تعتقدى ذلك ، فلقد سمعت انا الآخر شيئا من هذا القبيل ولم أصدقه لحظة .. وهذا هو السبب فى انه غاب تماما عن ذهنى وانا اتحث إليك ، فتكلمت دون حرج . انه محض هراء ، فلقد رايت ذلك الرجل . كيف يخطر ببال اى امرىء ان يربط بينه وبينك ؟ .. اى شىء مشترك يربط بينكما ؟

ـ ومع هذا ، فالأمر صحيح . إن ستريلنيكوف هو زوجى انتيبوف . ومعظم الناس يرون ذلك ، وانا اقرهم .. بل إن كاتيا تعرف الأمر ، وهى تفخر بأبيها .. وما ستريلنيكوف سوى اسمه المستعار ، فهو مضطر إلى ان يعيش تحت اسم منتحل ، كجميع الثوريين العاملين . إذ ليس له ـ لسبب ما ـ ان يعيش أو ان يعمل تحت اسمه الحقيقى . ولقد كان هو الذى استولى على (يورياتين) ، والذى امطرنا بالقنابل . وكان يعرف اننا هنا ، ولكنه لم يحاول قط ان يبحث عما إذا كنا على قيد الحياة ، خشية أن يفضح نفسه .. لقد كان يؤدى واجبه طبعا . ولو انه استشارنى لكنت قد انبأته بأن يفعل ما فعل .

« هكذا كان الامر ، على اية حال .. ولك ان تقول إن بقائى آمنة ، وإن ما منحنيه مجلس البلدة من مسكن آمن اقيم فيه ، إنما يدل على انه يرعانا فى الخفاء . ومع ذلك ، فكم يبدو بعيدا عن التصديق انه كان هنا حقا ، واستطاع ان يقاوم

اغراء المجىء لزيارتنا ! .. انه عمل فوق طاقة البشر .. انه نوع من الفضيلة كما كان يفهمها المواطنون الرومان .. انه من تلك الأمور التى يفكر اهل ايامنا هذه فيها ! .. على أنه ينبغى الا ادع نفسى تتأثر بوجهة نظرك إلى الأمور . انك وإياى لسنا سواء فى التفكير ، فى الواقع .. إن ثمة شيئا معقدا ، غامضا ، على هامش الأحداث ، نفهمه معا ونحسه على نحو واحد ، ولكن من الخير لنا أن نظل على خلاف فى الأمور الأوسع نطاقا .. فى فلسفة الحياة لدى كل منا .

« ولكن ، لنعد إلى حديثنا عن ستريلنيكوف .. انه الآن فى سيبريا ، وقد أصبت فيما قلت .. لقد سمعت بأنه متهم بأمور تجعل الدم يجرى باردا فى عروقى . انه فى سيبريا على راس احد مراكزنا الحربية الأمامية .. وهو يحارب ويدحر جاليولين المكتهل المسكين، صديق طفولته ، وزميله فى السلاح اثناء الحرب مع المانيا .. وإن جاليولين ليعرف حقيقية شخصيته ، ويعرف أننى زوجته ، ولكنه اوتى إدراكا وحسن تصرف ، فهو لم يشعرنى البتة بأنه يعرف ، وإن كان فى الحق يجن غيظا لمجرد سماعه اسم ستريلنيكوف !

« هذا هو المكان الذى يوجد فيه الآن .. سيبريا . ولكنه قضى هنا وقتا طويلا ، وكان يقيم فى عربة السكة الحديدية التى قدر لك ان تقابله فيها . ولقد ظللت أرجو ان القاه مصادفة . وكان يذهب ـ فى بعض الأحيان ـ إلى مقر اركان حرب القيادة ، حين كانوا فى المبنى الذى كان جيش الجمعية التاسيسية يتخذه مركزا لقيادته .. ومن مداعبات

القدر العجيبة ، ان مدخل مقر أركان الحرب كان فى الجناح الذى اعتاد جاليولين ان يلقانى فيه . وكنت لا انفك أذهب إلى هناك انشد معونة شخص ما ، او اوقف فظاعة من الفظاعات ، او ما إلى ذلك من أمور كانت تجرى .. فمثلا ، كانت هناك قضية الأكاديمية الحربية ، وقد أثارت ضجة فى حينها .. كان الطلبة إذا برموا بأحد المدربين احاطوا به واطلقوا النار عليه ، قائلين انه كان يعطف على البلاشفة ! .. ثم كانت هناك تلك الفترة التى شرعوا ينزلون فيها النقمة على اليهود . ومن المصادفات الغريبة كما يبدو لى ، انك إذا كنت من اصحاب الفكر ــ أيا كان اتجاهك ــ وكنت من المقيمين فى بلدة ما مثلى، لا تملك أن تجد ان نصف الأصدقاء الذين ترتبط بهم من اليهود ! .. ومع ذلك ، فاننا ــ فى الأوقات التى تقوم فيها المذابح ، وتقع فيها كل هذه الأمور الرهيبة المقيتة ــ لا نشعر بالأسف والاستنكار والخزى فحسب ، وإنما نشعر باننا منقسمون على انفسنا انقساما فظيعا ، وكانما تفيض عاطفتنا من الراس لا من القلب ، وإنها تخلف وراءها مذاقا من عدم الوفاء !

« من الغريب حقا ان هؤلاء القوم الذين حرروا الجنس البشرى يوما من ربقة الوثنية ، والذين يكرس كثير منهم انفسهم اليوم لتخليصه من الظلم ، يكونون من العجز بحيث لا يستطيعون تحقيق خلاص انفسهم من انفسهم .. من ربقة ولائهم لعقيدة عتيقة ، من قبل الطوفان ، عفى عليها الزمن وفقدت كل معنى لها .. من العجيب ان لا يترفعوا فوق

انفسهم ، وأن يذوبوا فى جميع العناصر الأخرى التى وضعت دياناتها بأنفسها ، والتى لن يلبثوا إذا عرفوها حق المعرفة ، أن يتبينوا ان بينهم وبينها روابط مشتركة .

« ومن الطبيعى أن قوى الاضطهاد تدفعهم إلى هذا الوضع الخطير المحفوف بالمصائب .. إلى هذه العزلة المنطوية على خزى وإنكار للنفس ، والتى لا تعود عليهم بغير النحس . ولكنى اعتقد أن جزءا من هذا الوضع ينبعث من نوع من الشيخوخة .. من الارهاق الذى الحقته بهم القرون. اننى لا احب صفيرهم الساخر فى الظلام ، وعقيدتهم الضحلة فى ان المستقبل لهم ، وهى عقيدة غير ملائمة للواقع العملى فى ايامنا ، وخيالاتهم المنطوية على استخذاء وخور همة . انها تثير الغيظ ، تماما كما يفعل حديث المسنين عن الشيخوخة ، أو حديث المعلولين عن المرض . الا تقرنى على ذلك ؟

ــ الحق أننى لم افكر كثيرا فى ذلك . .إن لى صديقا يتفق معك فى الراى ، هو « ميشا جوردون » .

ــ حسنا ، لقد اعتدت أن اتردد على ذلك المكان ، املا فى ان اصادف « باشا » وهو داخل إليه او خارج منه .. وكان مكتب الحاكم العام يقع فى ذلك الجزء من المبنى أيام القياصرة . أما الآن ، فعلى الباب لافتة : « الشكايات » . لعلك قد رايت هذا المبنى ؟ .. انه اجمل مكان فى البلدة ، والميدان الممتد امامه مرصوف بقوالب من الخشب ، وتقوم عبره حديقة البلدة ، هى مليئة بشجر الاسفندان ، وشجيرات العضة

وزهر العسل . ودائما كان ثمة صف من الناس خارج المبنى ، فى الطريق . وقد اعتدت أن انتظر هناك ، ولم اكن احاول ان اتخطى دورى فى الصف طبعا ، فما كنت أقول اننى زوجته ، لا سيما وأن اسمينا كانا مختلفين .. وليس لك أن تتصور ان اى استجداء لعواطفهم كان يحركهم (.. إن اساليبهم تغاير ذلك . اتعرف ان اباه «بافل فيرابونتوفيتش انتيبوف» – وهو من المسجونين السياسيين سابقا ، وكان عاملا قديما – يقيم على مقربة من هنا ، فى منشأة على الطريق العامة ، يعيش فيها كلاجىء ؟ .. وكذلك صديقه « تيفرزين » ، هو الآخر . كلاهما عضو فى اللجنة الثورية المحلية ، فهل تصدق أن « باشا » لم يزر أباه ، ولا اطلعه على حقيقة شخصيته ؟ .. إن اباه ليتقبل الامر على علاته ، فلم يتألم قط .. فاذا كان ابنه مضطرا إلى التخفى ، فليكن ، وليس له أن يراه ، وهذا كل ما فى الأمر ! .. لقد خلق هؤلاء القوم من صخر ، فهم بهذه القواعد والمبادىء جميعا ليسوا آدميين !

« ولو اننى استطعت ان اثبت اننى زوجته ، لما اجدانى ذلك اى خير ! .. فما قيمة الزوجات لديهم فى وقت كهذا ؟ .. اما مشاكل العمال ، وإعادة تشكيل الكون ، فهذه هى المشاكل المهمة ! .. اما الزوجة ، فماذا تكون ؟ .. مجرد مخلوق يسير على قدمين ، ولا يفوق فى الأهمية اى برغوث او قملة ! .. ولقد اعتاد ياوره أن يخرج فيسأل الناس عما يبغون مقابلته من اجله ، ويسمح لبعضهم بالدخول . ولكنى لم انبئه قط باسمى ، وكنت اقول – إذا ما سألنى عن مهمتى – انها شخصية . وكنت ادرك اننى اضيع وقتى سدى ، فى الواقع ،

إذ أن الياور كان يهز كتفيه ويرمقنى بنظرة مرتابة . ومن ثم فاننى لم أره مرة واحدة !

« احسبك تظن انه لم يكن يحفل بنا ، لم يكن يحبنا ، بل انه نسى وجودنا ؟ .. الواقع انك تخطىء ، فانا أعرفه تمام المعرفة .. اعرف ما يريد تماما ، وأعرف انه يريد ذلك لأنه يحبنا . فهو لا يطيق أن يعود الينا صفر اليدين ، وإنما يبغى أن يعود كفاتح ، مكلل بالتكريم والمجد ، فيضع اكاليل غاره عند أقدامنا ، كما يفعل الطفل الفخور بالنسبة لأهله ! » .

وعادت كاتيا ، فامسكت بها لارا فجأة ، وراحت – لدهشة الصبية – تهزها وتدغدغها !

– ١٦ –

كان « يورى » على صهوة جواده ، عائدا من (يورياتين) .. وكان قد قام بهذه الرحلة .. مرات لا عداد لها ، فالف الطريق حتى انه لم يعد يفطن إليها ، بل لم يكن ينظر إليها تقريبا ..

وكان يوشك ان يصل إلى ملتقى للطرق فى الغابة ، تتقاطع عنده الطريق المؤدية إلى (فاريكينو) مباشرة ، مع درب يفضى إلى قرية لصيادى السمك على نهر (ساكما) .. وهنا ، كانت ثمة لوحة عالية تحمل إعلانا آخر عن الآلات الزراعية . وكان « يورى » يوشك أن يصل إلى هذه البقعة عند الغسق كعادته !

وكان قد انقضى اكثر من شهرين على ذلك اليوم الذى ذهب فيه إلى البلدة جريا على عادته ، ثم قضى الليلة عنــد « لارا » ـــ بدلا من ان يعود إلى داره بعد الظهر ـــ واخبـــر اسرته فيما بعد بان بعض الأعمال قد استبقته فى البلدة ، وانه قضى الليلة فى فندق « سامديفياتوف » . وكان قــد اصــبح ـــ منذ فترة طويلة ـــ ينادى « لارا » باسمها الأول ، ويخاطبها بغير كلفة ، وإن ظلت هى تدعوه « جيفاجو » . كان « يورى » يخدع « تونيا » ، وقد اخــذ ما اخفاه عنهــا يزداد استفحالا وإغراقا فى الحرام .. الأمر الذى لم يألفاه فى حياتهما من قبل !

لكنه كان يعبد « تونيا » ، فكانت راحة بالها اهم عنده من اى شىء فى الدنيــا .. وكان على استعداد لأن يذود عن شرفها ، بل انه كان اشد إحساسا بأى شىء يمسها من ابيها ان منها هى نفسها . وما كان ليحجم عن أن يمزق اى امرىء إربا بيديه ، دفاعا عن كرامتها . ومع ذلك .. فها هو ذا نفسه يسىء إلى هذه الكرامة !

وكان يشعر ـــ فى البيت ـــ كمــا لو كان مجرما . وكان جهل اسرته بالحقيقية ، وحبهم الذى لم يتبدل ، مصدرى عذاب قاتل له . فكان يغيب عن وعيه فجاة ـــ اثنــاء الحديث ـــ إذ يتذكر إثمه ، فلا يعود يسمع كلمة مما يقال .. ولو أن هذا حدث اثناء تناول الطعام ، فان الطعــام كان يقف فى حلقه ، وكان يلقى ملعقته من يــده ، ويدفع عنه طبقه ، فتســاله تونيا فى حيرة : « ما خطبك ؟ .. لا بد انك عرفت انبــاء سيئة عندما كنت فى البلدة . هل القى القبض على احــد ؟ .. او هل رمى

احد بالرصاص ؟ .. قل لى ، ولا تخش أن تعكر صــفوى . لسوف تسرى عن نفسك إذا انت اخبرتنى ! » .

افكان عدم إخلاصه لها راجعا إلى انه كان يفضل عليها امراة اخرى ؟ .. لا ، فهو لم يعقد اية مقارنة ، ولم يكن له فى الأمر خيار .. ولم يكن يؤمن بـــ « الحب الحـــر » ، ولا بـــ « حق » المرء فى أن ينساق لحواسه . بل إن التفكير فى مثـــل هذه المصطلحات ، او الحديث عنها ، كان يبدو له انحطاطا .. وما قدر له قط أن يغتـــر يوما بنفســـه ، أو يرى نفســـه إنسانا فوق مستوى البشر ، ذا حقوق وامتيازات خاصـــة . ومن ثم فقد انسحق تحت وطاة شعوره بالاثم . وكان يسائل نفسه احيانا : « وماذا بعد ؟ » ، ويروح يرجو ـــ فى تعاسة ـــ أن يحدث ظرف مستحيل، غير مرتقب، فيحل له هذه المشكلة !

***

ولكن الامور كانت قد تبدلت ، فى هذه المرة ، فلقد قرر ان يقطع العقدة ، وكان عائدة إلى البيت يحمل حلا : كان قد اعتزم ان يفضى إلى « تونيا » بكل شىء ، ويرجوها ان تغفر له ، ثم لا يعود إلى لقاء « لارا » إطلاقا !

.. لكنه تردد فى اللجوء إلى هذا الحل ، إذ شعر بانه لم يصارح « لارا » ـــ بايضاح كاف ـــ بأنه كان مقبلا على قطيعة معها . قطيعة نهائية ، إلى الأبد ! .. كل ما اخبرها به ـــ فى صباح ذلك اليوم ـــ انه قد اعتزم ان يعتـــرف بكل شىء وان عليهما ان يكفا عن التلاقى . .ولكنه تبين ـــ وهو فى طـــريق

العودة ــ انه إنما خفف الامــر وهونه ، لكنـــه لم يوضـــحه الوضوح الكافى . . ولقد تبينت لارا مدى شقائه ، فلم تشأ ان تزيد اساه بمنظر اليم ، وراحت تحاول أن تصغى إليه بأقصى ما وسعها من هدوء . كانا يتكلمان فى إحدى الغرف الأماميــة الخالية ، واخذت الدموع تجرى على خديها ، ولكنها لم تكن اكثر شعورا بها من التماثيل الحجرية ــ التى كانت تزين المنزل المقابل ، فى الجانب الآخر من الطريق ــ بالمطر إذا جرى على وجهها . وظلت تقول فى رفق : « افعل ما تراه خيرا ، ولا تهتم بى . . لسوف اتغلب على الصدمة ! » . وكانت تقول ذلك فى إخلاص صادق ، دون ما تظاهر بكرم زائف . . وإذ لم تحس بانها كانت تبكى ، فانها لم تمسح الدموع عن وجهها .

وحين خطر ليورى أن لارا ربما قد اساءت فهم مقصده ، وانه قد تركها وفى نفسها اثر خاطىء وآمال زائفة ، اوشــك ان يرتد عائدا ، بأقصى ما يستطيع جواده ان يحمله ، ليقــول لها ما اغفل ان يقوله ، ثم ــ وفوق كل شيء ــ ليودعها وداعا اشد حرارة ، واكثر حنانا ، بشكل اكثر ملاءمة لأن يكون وداعا اخيرا . على أنه كبح نفسه بجهد شاق ، وواصل سيره . .

وإذ غاصت الشمس وراء الأفق ، امتلأت الغابة بالبرد والظلام ، وفاح فيها عبير الأوراق المخضلــة . . وامتلأ الهواء بأسراب من البعوض ، ظلت عالقة فيه وكأنها كسف طافية ، وهى تطن بصوت مرتفع منغــوم . وراحت تحط على وجهه وعنقه ، فأخـــذ يخبط بكفـــه اينما حطت ، فتنتظم دقاته مع الأصــوات التى كانت تنبعث من ركوبه ازيز السرج ، ووقع حوافر الجواد الثقيلة على الأرض الموحلة ، والريح المنبعثة

من امعاء الحصان . . وفى الفضاء البعيد ــ حيث ظلت الشمس تأبى ان تغيب ــ اخذ كروان يغرد ، وكأنه يهيب فى إلحــاح : « استيقظ ! استيقظ ! » . . وبدا ذلك أشبه بالنداءات التى تردد فى امسيات الأحد السابق على عيد الفصح : « استيقظى ياروحى ، لمـــاذا تنعسين ؟ » .

وفجأة ، بهت يورى لفكرة جـد بسيطة طرات له : فيم العجلة ؟ . . انه لن ينكث بالوعد الذى قطعه على نفســه ، وسيفضى بالاعتراف ، ولكن . . من الذى قال بأن الاعتــراف يجب أن يؤدى اليوم ؟ . . انه لم يكن قد ذكر لتونيا شيئا بعد ، ولم تكن الفرصة قد فاتت لارجاء الأمر إلى أن يذهب إلى البلدة مرة أخرى ، فيتم حديثــه مع « لارا » ، بالحــرارة وعمق الشــعور اللذين يهونان من عذابهـــا . ما اروع هـــذا ! . . ما ابدعه ! . . وما اعجب انه لم يخطر له من قبل !

وقفز قلبه طربا لفكرة رؤية « لارا » مرة اخرى . وراح يستبق الزمن ، فيعيش فى لقائه معها !

* * *

الأكواخ الخشبية والأرصفة ، على مشارف البلدة . كان فى طريقه إليها ، ولن يلبث ــ فى لحظة ــ ان يخلف الحوارى المؤلفة من الأكواخ الخشبية والبقـــاع الفضـــاء ، ليدلف إلى الشـــوارع والبيوت ذات الطـــلاء الأبيض . وتتابعت بيوت الضواحى ، كصفحات فى كتاب . . صفحات لا تقلبها تباعـــا بسبابتك ، وإنما أنت تضع إبهامك على حافة الكتاب ، وتدعها تتتابع مرة واحدة . . كانت السرعة التى انطلق بهـــا مذهلة ،



كان فى طريقه اليها ، ولن يلبث ــ فى لحظة أن يخلف الحوارى المؤلفة من الاكواخ الخشبية والبقاع الفضاء ..

تحبس أنفاسه .. وهناك كان بيتها ، عند الطــرف الأقصى للشارع ، تحت الثغرة البيضاء بين السحب المثقلة بالمطر ، حيث كانت السماء قد بدأت تصحو مع مقدم المساء .. لكم كان يحب البيوت الصغيرة ، القائمة فى الشوارع التى كانت تفضى إليها ، حتى لقد كان يرجو لو استطاع أن يرفعها عن الأرض ويقبلها ! .. يا لتلك الفراغات التى تلى الســقوف مباشرة ، والتى تتوسط كلا منها نافذة ، فكأنه وجه ذو عين واحدة ! .. ويالأضواء المصابيح والأيقونات ، وقد انعكســت على البرك المائية التى خلفها المطر ، لامعة كأنها ثمار ندية ! .. ويا لبيتها تحت الثغرة البيضاء بين السحب التى كانت تكسو السماء ! .. هناك لن يلبث أن يتلقى تحفة الجمــال الإلهى الأبيض من يدى خالقه ! .. ســيفتح له الباب شــبح تلفه الظلمــة ، فتترامى إليه بشرى قربها ــ هى التى لا يملكها احد فى الدنيا ، والتى تتسم بتحفظ وهدوء ، كليلة من ليالى الشمال البيضاء ــ فكأنما هذه البشرى الموجة الأولى التى تترامى إليه من البحر حين يجرى إليه على الشاطىء الرملى تحت جنح الظلام !

وترك « يورى » عنان جواده ، ومــال على السرج ، فاحتضن عنق الجواد ودفن وجهه فى عرفه . وحمل الجــواد هذا العطف على انه استجداء لقواه ، فانطلق راكضا وحوافره الخفيفة لا تكاد تلمس الأرض إلا لماما .. وخيل إلى يورى أنه يسمع صيحات إلى جانب وقع حوافر الجواد ــ بين آن وآخر ــ وخفقات قلبه هو (يورى) الطروب .. ولكنــه ظن أن الأمر مجرد وهم . على أن رصاصة انطلقت جد قريبة منــه ، حتى إنما أصمت اذنه ، فاعتدل فى جلسته ، والتقط عنان الجــواد

وجذبه . وإذ كبح الجواد وهو فى غمرة انطلاقه ، فإنه مال جانبا ، ثم تراجع إلى الوراء ، وهبط على عجزه ، متأهبا لان يستدير راجعا من حيث أتى .

وكان ملتقى الطرق يتفرع أمام « يورى » ، وقد ألقت الشمس الآفلة خيوطا من أشعتها أضاءت لوحة « مورو وفيتشينكين . آلات للبذر . آلات للدرس » .. وهناك ، سد عليه الطريق ثلاثة فرسان : فتى من طلبة المدارس ، ارتدى قلنسوة وسترة عسكرية ذات نطاقين لحفظ الطلقات .. وفارس فى معطف ضابط ، تعلو رأسه قلنسوة من الفرو .. ورجل بدين فى ثياب غريبة ، وكأنه ذاهب إلى حفلة رقص تنكرية ، فقد كان سرواله مبطنا ، وكانت قبعته عريضة الحواف من طراز قبعات رجال الدين ، وقد أرخى حافتها الأمامية على جبينه .

وصاح الفارس الضابط ، الذى كان أكبر الثلاثة سنا :

« لا تتحرك أيها الرفيق الطبيب .. ستكون فى أمان تام ، إذا أطعت الأوامر . أما إذا لم تطع ، فمعذرة إذا قلنا إننا سنرميك بالرصاص . إن الطبيب الملحق بوحدتنا قد قتل ، فقررنا أن نجندك كعامل طبى ، فاهبط عن جوادك ، وأسلم العنان إلى هذا الفتى .. ودعنى أذكرك بأننا لن نقف احتراما لك إذا حاولت الهرب !

— أأنت الرفيق فورستر .. ليبريوس بن ميكوليتسين ؟

— لا ، وإنما أنا كبير ضباط الاتصال لديه .. كومينودفورسكى .

الفصل العاشر
الطريق الخلوى

— ١ —

وكانت ثمة مدن ، وقرى ، ومحلات قوزاقية ، على طول الطريق الخلوى .. وكان هو عين طريق البريد القديم ، أعرق الطرق الخلوية فى (سيبريا) . وكان يشق المدن كالسكين ، فيشطرها — وكأنها رغيف خبز — بخط مستقيم تقع عليه شوارعها الرئيسية . أما القرى فكان يجتاحها فيبعثرها ذات اليمين وذات اليسار ، مخلفا الأكواخ منتظمة فى صف ، أو مرصوصة فى قوس ، أو متراكما بعضها على بعض كما تبدو من أية انحناءة حادة فيه .

وفى الماضى البعيد ، قبل أن تصل السكة الحديدية إلى (خوداتسكوى) ، كان البريد يحمل فى زحافات تندفع مسرعة ، على طول الطريق الخلوى ، وكانت قوافل الشاى والخبز والحديد الزهر تسلك أحد جانبيه ، بينما كان المسجونون يساقون — على الجانب الآخر — سيرا على الأقدام ، تحت الحراسة . وكانوا يسيرون بخطى منتظمة ، وأصفادهم تصلصل .. نفوس مضيعة ، لا رجاء فيها ، بشعة بشاعة الصواعق التى ترسلها السماء .. ومن حولهم ، كانت أشجار الغابات المظلمة ، التى لا سبيل إلى اجتيازها ، ترسل حفيفها .

وكان أولئك الذين يقيمون على طول الطريق الخلوى ، أشبه بأسرة واحدة ، فكانت الصداقة والزواج يربطان بين

قرية وقرية ، وبين بلدة وبلدة . وكانت قرية (خوداتسكوى) تقوم عند تقاطع الطريق والسكة الحديدية ، وتضم « ورش » إصلاح القاطرات ، وغيرها من « الورش » المتصلة بصيانة الخط الحديدى . .وهناك ، كان أفقر الفقراء يزدحمون فى ثكنات ، يعيشون فيها ، ويمرضون ، ويموتون . وكان يباح للمسجونين السياسيين — الذين أوتوا مؤهلات هندسية ، والذين قضوا المدة التى حكم عليهم أن يقضوها فى الأشغال الشاقة — أن يستقروا فى (خوداتسكوى) كنمفيين «أحرار» ، وأن يعملوا كميكانيكيين فنيين مدربين .

وكانت مجالس السوفييت — التى أقيمت على طول الخط ، فى الأيام الأولى للثورة — قد أطيح بها منذ أمد طويل . ولقد احتفظت « حكومة سيبريا الإقليمية » بسلطاتها زمنا ، ولكن حكمها استبدل أخيرا — فى طول المنطقة وعرضها — بحكم الأميرال كولشاك ، القائد الأعلى للبيض .

— ٢ —

وكان الطريق يمضى — فى إحدى مراحله — صاعدا فوق تل ، فيتيح نطاقا واسعا من الرؤية ، يشمل مساحة كبيرة من الأرض . وكأنما لم تكن هناك نهاية للصعود البطىء ، وللأفق المطرد الاتساع . ولكن الخيل والمسافرين المكدودين كانوا لا يلبثون — إذا ما وقفوا إعياء — أن يتبينوا أنهم قد بلغوا قمة التل . ثم يستطرد الطريق فوق جسر ينساب تحته نهر (كيجما) .

وكانوا يرون بعد الجسر ، وعلى مرتفع أكثر وعورة ، جدران دير « تمجيد الصليب » الحجرية . ثم يطوف الطريق بأراضى الدير ، ويمضى متعرجا فوق التل ، مخترقا أطراف بلدة كريستوفوزد فيتشينسك ، فاذا ما بلغ وسط البلدة ، عاد فحف بأراضى الدير مرة أخرى ، إذ أن باب الدير الحديدى ، الأخضر اللون ، كان يطل على الميدان الرئيسى . وكانت الأيقونة التى تعلو الباب محوطة باطار من حروف ذهبية ، تقول : « اهنأ أيها الصليب المانح للحياة ، يا بطل الرحمة المظفر الذى لا يقهر » .

وكان الشتاء قد أوشك أن ينتهى ، وحل الأسبوع المقدس ، الذى يختم الصوم الكبير ، وقد أخذت الطرق تتحول إلى اللون الأسود ، مبشرة ببدء ذوبان الجليد ، ولكن سطوح الدور ظلت تلبس قلنسوتها الثلجية الطويلة ، البيضاء ، المتدلية الأطراف .. فكانت البيوت تبدو للصبية الصغار — الذين كانوا يتسلقون برج الدير ليشهدوا دق الأجراس — منخفضة ، أشبه بعلب بيضاء صغيرة ، تجمعت فى كومة غير منتظمة . وكان الناس يبدون سودا ، لاتكاد أحجامهم تتجاوز أحجام النقاط ، وهم يسيرون بين البيوت ، ثم يقفون أمامها .. وكانوا يقفون ليقرءوا المرسوم بدعوة ثلاث فئات أخرى من الأعمار إلى الخدمة العسكرية ، وقد ألصقت صيغة المرسوم على الجدران بأمر من الأميرال كولشاك .

— ٣ —

وكانت قد وقعت فى الليل كثير من الأحداث غير المرتقبة .

فلقد انقلب الجو حارا ، حرارة غير مألوفة فى مثل هذا الوقت من العام .. وكان ثمة رذاذ يتساقط من السـماء خفيفـا ، رفيعا ، حتى لقد بدا انه كان يتحول إلى ضـباب قبل أن يبلغ الأرض . ولكن هذا كان مجرد وهم ، فالواقع انه كان هناك من المـاء ما يكفى لأن يجرى دافئا ، ناعما ، سريعـا ، على الأرض — التى استحالت من اولها إلى آخرها سوداء ، والتى كانت تلمع وكأنها تنضح عرقا — فيغسلها ، ويمحو عنها البقية الباقية من الجليد .

واستطاعت اشجار التفاح المجللة بالبراعم ان تخرج عن جمودها ، فاستطالت بسرعة مذهلة ، وامتدت فوق اسيجة الحدائق ، وقطرات المـاء تتساقط منها ، فيسمع صوت ارتطام المـاء بالأفاريز الخشبية فى طول البلدة وعرضها .

وكان الجرو « توميك » — الذى قيد بسلسلة فى فناء دار المصور ، عندما هبط المساء — يعوى وينبح ، ولعل الصخب اثار الغراب فى حديقة دار آل جالوزين فراح ينعق بصوت عال ، كان كافيا لأن يقض منام البلدة بأسرها .

وفى القسم الأدنى من (كريستوفوزد فيتشينسك) ، وصلت إلى التاجر «ليوبيزنوف» ثلاث عربات محملة بالبضائع ، فأبى استلامها ، قائلا إنها جاءته خطأ ، وإنه لم يطلب هذه البضائع إطلاقا . وراح الحوذية يناشدونه ان يؤويهم سحابة الليل ، إذ كان الوقت متأخرا ، ولكنه راح يسب ، وطردهم رافضا ان يفتح الباب . وكان هذا الشجار بدوره يسمع من اول البلدة إلى آخرها .

وحوالى الساعة السابعة بتوقيت الكنيسة ، والواحدة صباحا بالساعة المتعارف عليها ، انسابت من الجرس الكبير فى الدير — وهو لا يكاد يتحرك — همهمة عذبة ، خافتة ، مبهمة ، فامتزجت برذاذ المطر الخفيف القاتم فى الهـواء .. انسابت من الجرس ، لتفرق وتذوب فى الهواء ، وكأنها كتلة من التربة انفصلت عن ضفة النهر ، فغاصت وذابت فى مياه سيول الربيع .

وكانت الليلة ليلة خميس العهد .. وعلى بعد لا تكاد تبين معه المرئيات ، خلف ستار المطر ، كانت الشموع تضىء وجها هنا ، وجبهة أو انفا هناك ، وهى تهتز وتتحرك عبر فناء الدير . فقد كانت صلاة الصوم مستمرة حتى الصباح .

وبعد ربع ساعة ، تردد على الرصيف الخشبى المفضى من الكنيسة وقع خطوات .. تلك كانت « جالوزينا » — زوجة البدال — ذاهبة إلى بيتها ، رغم انه لم يكن قد مضى على بدء القداس وقت يذكر . وكانت تسير بخطوات غير منتظمة ، فهى تجرى آنا ، ثم تخفف من إسراعها وتقف آنا آخر ، وشالها فوق رأسها ، ومعطفها المصنوع من الفرو غير مقفل بالأزرار .. وكانت قد شعرت بأنها وشيكة الإغماء فى الكنيسة المثقلة الجو ، فخرجت إلى الهواء الطلق ، ولكنها لم تلبث ان شعرت بالخجل والأسف لأنها لم تمكث إلى النهاية ، ولأنها لم تكن قد صامت الصيام الكبير لعامين متتابعين . على أن هـذا لم يكن السبب الرئيسى لمـا اعتراها من هم .. فان امر بالتعبئة للجيش — الذى أعلن ذلك اليوم — شمل ابنها المسكين ،

الغبى ، « تيريوشكا » . وحاولت أن تقصى التفكير فيه عن راسها ، ولكن الثغرات البيضاء فى ظلمة الليل اصرت على ان تذكرها به كلما لمحتها !

وكان بيتها عند اول انعطاف فى الطريق ، ولكنها احست ــ وهى فى الهواء الطلق ــ بتحسن ، فلم تتعجل العودة إلى الحجرات الخالية من الهواء . وكان الحزن العاصف ، المتولد عن افكارها ، يذيبها . ولو انها حاولت أن تستعرض هذه الأفكار ــ واحدة بعد اخرى ــ بصوت عالٍ ، لما وجدت من الكلمات ، ولا من الوقت ، ما يمكنها من استعراضها قبل بزوغ الفجر . على ان هذه الخواطر المضة انهالت عليها زرافات ــ وهى فى الشارع ــ فراحت تعالجها جميعا ، ومعا ، مما حملها على أن تسير بضع مرات من باب الدير إلى ناصية الميدان ــ ذهابا وإيابا ــ فى فترة وجيزة .

* * *

وكان الاحتفال بعيد الفصح قد بدا تقريبا ، وليس فى البيت احد على الاطلاق ، فقد خرج الجميع ، وخلفوها وحيدة . اجل ، الم تكن وحيدة ؟ .. إن « كسيوشا » ــ التى كانت تحت وصايتها ــ لم تكن فى الحساب . ومن تكون ، على اية حال ؟ .. مجرد « نفس اخرى ، فى مستنقع مظلم » ، كما يجرى القول الشائع . انها ربما كانت صديقة ، وربما كانت عدوة ، او غريمة مستترة .. على ان المفروض انها كانت ابنة الزوجة الأولى لزوجها ، من زواج سابق لها. ولقد قال زوجها « فلاس » انه تبناها . ولكن ، لم لا تكون ابنة سفاح له ؟ ..

او ربما لم تكن ابنته البتة ــ فهل فى وسعك يوما ان تتغلغلى ببصرك إلى قلب رجل ؟ ــ ومع ذلك ، فمن الانصاف الاقرار بأنه لم يكن ثمة عيب فى « كسيوشا » ، فقد اوتيت ذكاء ، وجمالا ، واخلاقا .. بل انها أوتيت من العقل اكثر بكثير مما أوتى تيريوشكا المسكين الغبى ، أو ابوه !

وهكذا كانت «جالوزينا» منبوذة ، مهجورة ، فى الأسبوع المقدس . لقد تفرق الجميع من حولها ، فذهب كل فرد وجهته : كان « فلاس » يروح ويجىء فى الطريق الخلوى ، يلقى الخطب على المجندين الجدد ، ويستحثهم بذكر جلائل الأعمال التى ابرمت بالأسلحة ، بدلا من أن يرعى هذا الأحمق ابنه وينقذه من الخطر المميت المحدق به .

كذلك فر «تيريوشكا» من البيت فى عشية العيد الكبير ــ فذهب إلى أقاربهم فى قرية (كوتيينى) ، ليلهو وينسى متاعبه وهمومه . فلقد فصل الفتى المسكين من المدرسة ، حيث كان قد قضى فى كل صف من صفوف الدراسة عاما ــ فوق العام المخصص له ــ حتى إذا بلغ الصف الثامن اخيرا ، إذا بهم يركلونه فيلقون به خارج المدرسة !

أواه ، لكم كان كل هذا محزنا ! .. أواه ، يارب ! .. لماذا ساءت كل الأمور إلى هذه الدرجة ؟ .. لشد ما كان هذا مثبطا ، حتى لقد شعرت بأنها توشك أن تستسلم لليأس . ولم تعد لديها رغبة فى أن تعيش . فما الذى سبب كل هذه التعاسة ؟ .. اهى الثورة ؟ .. لا ، لا ، لا ! إنما هى الحرب. فلقد افنت الحرب زهرة رجولة روسيا ، ولم يبق بعد سوى فضلات فاسدة ، لا يصلح لشىء البتة !

ما أبعد الفارق بين هذا الزمن وزمن أبيها ! .. لقد كان أبوها مقاولا ، رصينا ، متعلما . وقد عشن على خير الأرض — هى وأختاها « بوليا » و « أوليا » ، اللتان كانتا أبدع فتاتين تأمل أن تلقاهما ، وقد أوتيتا من الجمال والرشاقة ما يوائم اسميهما — وكان أقطاب النجارين يترددون على أبيهن ، وكل منهم رجل وجيه ، مبرز ، كخير ما يكون الرجال . ولقد خطر لها ولأختيها مرة — وما أكثر ما كان يخطر لهن من أفكار ! — أن ينسجن ملفحات من الصوف المحبوك ، من ستة ألوان . وسواء صدقت أو لم تصدق ، فقد أبدعن حبك الصوف ، حتى ذاع صيت ملفحاتهن فى طول الإقليم وعرضه ! .. وكان كل شىء فى تلك الأيام جميلا ، وغنيا ، وبديع المنظر : من قداسات الكنيسة ، إلى الحفلات الراقصة ، إلى الناس ، إلى الأخلاق والسلوك .. كان كل شىء يملأ قلبها غبطة ، فقد كانت أسرتها تتألف — قبل كل شىء — من أناس بسطاء ، من سلالة فلاحين وعاملين ..

وكانت روسيا هى الأخرى — فى تلك أيام — فتاة فى سن الزواج ، يحوم حولها رجال صادقو الرجولة ، رجال على استعداد لأن يذودوا عنها ، لا يقارن بهم دهماء هذه الأيام .. فلقد فقد كل شىء بريقه الآن ، ولم يبق سوى المدنيين ، من محامين ومتحذلقين لا تكف ألسنتهم عن التشدق بالحديث ليل نهار .. ولقد ظن «فلاس» — الطيب المسكين — وأصدقاؤه ، أن بوسعهم أن يعيدوا تلك الأيام الذهبية بشرب الأنخاب ، وإلقاء الخطب ، وإبداء أطيب التمنيات ! .. ولكن ، أهذه هى

الطريقة لاسترداد حب مضيع ؟ .. إن عليك فى سبيل ذلك أن تقلقل الجبال عن مواقعها !

— ٤ —

وكانت المرأة فى تلك الأثناء قد عبرت الميدان ، وسارت حتى ساحة السوق أكثر من مرة . ومن هناك ، كان بيتها يقع فى منتصف الطريق ، إلى اليسار . ولكنها كانت تغير رأيها — فى كل مرة تبلغه — فتعدل عن الدخول ، وتتحول إلى شبكة الدروب والحوارى المتصلة بالدير .

وكانت ساحة السوق فى حجم حقل كبير .. وكانت — فى الأزمان الخالية — تزدحم فى أيام السوق بعربات الفلاحين . وفى أحد طرفيها ، كان شارع إيلينيسكايا .. أما الطرف الآخر ، فكان ينحنى على شكل هلال ، اصطفت عليه بنايات صغيرة — لا يتجاوز ارتفاعها طابقا أو اثنين — تستخدم كمخازن للبضائع ، ومكاتب ، ومتاجر .

هناك كان « بروخيانوف » يعكف على الأوراق النقدية ذات القيمة الصغيرة ، يقرأ كل حرف فيها ، وهو يجلس متعاظما على مقعد خارج بابه الحديدى الضخم ذى المصاريع الأربعة .. وقد كان شيخا أحول ، شبيها بالدب ، ذو عوينتين (نظارة) ، وسترة طويلة الذيل .. وكان يتجر فى الجلد ، والشوفان والتبن ، وعجلات العربات ، وأعنة الخيل وسروجها .. إلخ .

وهناك — نافذة صغيرة معتمة من نوافذ المتاجر — كانت ثمة بضعة أزواج من شموع العرس المنقوشة ومن طاقات

الزهر ، فى صناديق من الورق المقوى ، وقد جمعت فوقها غبار السنين .. بينما كانت تعقد — فى غرفة صغيرة فى مؤخرة المبنى ، عارية من الأثاث ، خالية من السلع اللهم إلا من كومة من قوالب الشمع الكبيرة المستديرة — صفقات بآلاف الروبلات ، مع مجهولين كانوا وكلاء لصانع شمع من أصحاب الملايين ، لم يكن أحد يدرى مقره ولا مقامه !

وهناك ، وسط صف الحوانيت ، كان متجر جالوزين للبدالة .. متجر كبير ذو ثلاث نوافذ . وكانت أرضه المؤلفة من قطع صغيرة من الخشب ، العارية من أى فرش ، تمسح — بأوراق الشاى المستعملة — صبحا وظهرا ومساء . فقد كان جالوزين وأعوانه يشربون الشاى طيلة اليوم . وهنا كثيرا ما كانت جالوزينا — وهى بعد زوجة شابة — تجلس طائعة مختارة وراء صندوق النقود . وكان اللون المحبب إليها هو البنفسجى الخفيف ، ولون الثياب الكنيسة فى بعض الأيام ذات القداسة ، ولون زهور الليلك وهى بعد براعم ، ولون افخم ثوب مخملى لديها ، ولون طاقم الكؤوس البلورية الذى تملكه .. كان لون سعادتها وذكرياتها . كذلك كانت روسيا تبدو لها — فى عذريتها ، قبل الثورة — مصطبغة بلون زهور الليلك (البنفسج) . ولقد كانت جالوزينا تستمرىء الجلوس خلف صندوق النقود ، لأن العتمة البنفسجية التى كانت تسود داخل المتجر — العبق برائحة النشا والسكر والحلوى ذات اللون القرمزى الضارب إلى السواد — تتمشى مع لونها المحبب إلى نفسها !

وهنا ، فى ركن الميدان ، بجوار فناء تخزين الخشب ، قامت دار عتيقة ، سمراء ، تركت تقلبات الجو آثارها على جوانبها الأربعة ، فكأنها مركبة مهدمة . وكانت ذات طابقين ، وذات مدخلين اماميين ، قام كل منهما فى جانب من جانبى الواجهة . وكان كل طابق ينقسم إلى قسمين . ففى الطابق الأسفل ، إلى اليمين ، كان حانوت « زالكيند » الصيدلى ، وإلى اليسار ، كان مكتب موثق العقود . وفى الطابق الأعلى ، كان ترزى السيدات المكتهل « شموليفيتش » يقيم ، فوق الصيدلى ، مع اسرته الكبيرة . أما المسكن المجاور لمسكن شموليفيتش — والقائم فوق مكتب موثق العقود — فكان يزدحم بسكان كانت حرفهم ومهنهم موضحة على بطاقات ولافتات تكسو الباب الأمامى بأسره : هنا كانت الساعات تصلح ، والأحذية ترتق .. وهنا كان معمل « كامينسكى » صانع الأختام ، واثنان من المصورين — هما « جوك » و « ستروداخ » — يعملان معا ، متشاركين . ولما كان مسكنا الطابق الأول مزدحمين ، فان مساعدى المصورين — وهما « بلاجيين » ، الطلب و « مجيدسن » الذى كان يقوم بتنقيح الصور (الرتوش) — اقاما « غرفة مظلمة » فى أحد طرفى المظلة الخشبية الكبيرة التى كانت فى فناء المبنى .. وادركت « جالوزينا » من العين الحمراء — المصباح الأحمر — التى كانت تحملق فى نافذة الغرفة المظلمة ، أن المساعدين كانا يعملان هناك فى ذلك الوقت . وتحت هذه النافذة بالذات ، كان الجرو « توميك » يجلس على السلسلة التى كانت تقيده ،

وهو يعوى ، حتى لتسمعه عبر الميدان ، فى شارع (ايلينينسكايا) .

وقالت جالوزينا فى نفسها ، وهى تمر بالدار السمراء : « ها هم أولاء هنا جميعا ، غلاة اليهود عن بكرة ابيهم .. إنه وكر للقذارة والنذالة ! » . ومع ذلك ، فقد خطر لها — فى اللحظة ذاتها — ان زوجها كان على خطأ فى كراهيته لليهود إلى هذا الحد . فما كان يبدو ان هؤلاء الناس كانوا سادة البلاد ، وما كان لهم من الأهمية ما يؤثر على اقدار روسيا .. وإن كان من الصحيح أن شموليفيتش الطاعن فى السن كان يجاهد ليلوى عضلات وجهه الدميم فى ابتسامة — إذا ما سألته عن السبب الذى يراه لما كانت فيه البلاد من اضطراب وقلقلة — ويقول : « ان ليبوتشكا يمارس الاعيبه بنشاط ! » .

* * *

ولكن ، اية مضيعة للوقت فى التفكير فى مثل هذه التفاهات ؟ ! .. افكانت لها قيمة ؟ اتراها كانت منبع متاعب روسيا ؟ إنما كانت المدن هى سر المتاعب . وليس معنى هذا أن الريف كان ينهض أو يسقط بتأثير المدن ، وإنما معناه أن اهل المدن كانوا متعلمين ، وكان أهل الريف سريعى التأثر ، فكانوا يغبطون المدن على علمها ، ويحاولون أن ينقلوا عنها أساليبها فى الحياة ، فلا يفلحون ن مضارعتها ، ومن ثم فانهم لم يصبحوا من هؤلاء ولا من اولئك .. لا هنا ولا هناك !

او لعل الأمر كان على العكس .. ولعل الجهل هو الذى كان سر المتاعب ؟ .. فالرجل المتعلم يستطيع ان ينفذ ببصره

خلال الجدران ، وأن يحدس مقدما كل ما يحدث ، بينما يكون بقيتنا اشبه بأناس يتخبطون فى غابة مظلمة ، على اننا لا نفقد — إذا ما قطعت رؤوسنا — سوى قبعاتنا ! .. وليس معنى هذا أن اهل المدن ينعمون بعيش رخاء فى هذه الأيام .. الا نظرى كيف كانت المجاعة تسوقهم إلى خارج المدن ! .. حاولى ان تتبينى الأمور على حقيقتها ! .. ولكن الشيطان نفسه يعجز عن أن يعرف لها اولا من آخر !

ومع كل هذا ، فقد كان اهل الريف هم الذين يعرفون كيف يعيشون ، فى جميع الظروف . انظرى إلى علاقاتهم وقراباتهم : آل سيليتفين ، وآل شيلابورين ، وبامفيل باليخ ، والأخوان موديخ . كانوا يعتمدون على أيديهم وعلى رؤوسهم ، فكانوا سادة انفسهم . وكانت المزارع الجديدة — على طول الطريق الخلوى — تؤلف منظرا بديعا .. خمسة عشر « ديسياتين » من الأرض الصالحة للزراعة ، واغنام ، وجياد ، وخنازير ، وابقار ، وغلال فى المخازن تكفى لثلاث سنوات مقبلة ! .. وآلاتهم الزراعية ، فوق كل هذا ! .. بل إن لديهم آلات للحصاد ! .. لقد كان « كولشاك » يغدق عليهم ،محاولا ان يكسبهم إلى صفه .. وكذلك كان « القوميسيرون » ، ليجتذبوهم إلى جيش الغابة . فلقد جاءوا من الحرب بصلبان القديس جورج ، فراح كل امرىء يجرى وراءهم ، رغبة فى استخدامهم كمدرسين لجنديه . فقد كان الطلب ينهال عليك دائما — سواء كنت ضابطا او صف ضابط — ما دمت على دراية بعملك ، وكان بوسعك دائما ان تجد موطئا لقدميك .

على ان الوقت كان قد حان كى تعود جالوزينا إلى دارها ، لمجرد انه لم يكن من اللائق بامرأة ان تهيم فى الشوارع فى مثل تلك الساعة المتأخرة . وما كان الأمر يهم فى شيء لو انها كانت فى حديقتها الخاصة ، اما وهى فى الشارع ، فان مسلكها لم يكن محفوفا بالوحل فقط ، بل انه كان مغرقا فى حمأة كريهة . وعلى أية حال فإنها اصبحت تشعر بشيء من التحسن ، كما خيل إليها ، فعادت إلى دارها ، وهى تتخبط فى خواطرها ، وقد فقدت كل سيطرة عليها على أنها وقفت هنيهة فى مدخل الدار — قبل ان تلجها — لتستعرض بضعة أمور اخرى فى ذهنها .

فكرت فى الناس الذين كانوا يتبوءون المكانة العليا فى (خوداتسكوى) فى الفترة الراهنة .. كانت تعرف — إلى حد ما — اى اناس هم .. كانوا من المبعدين السياسيين السابقين ، الذين اقصوا عن العواصم ، من أمثال «تيفرزين» ، و « انتيبوف » ، والفوضوى « فدوفيتشينكو » ، الذى كان يلقب بـ « الراية السوداء » ، وصانع الأقفال المحلى « جورشينى » ، الذى كان يعرف بـ « الكلب المجنون » .. كانوا دهاة ماكرين ، يعرفون ما يدور فى رؤوسهم عن بينة ، وقد اثاروا كثيرا من القلاقل فى أيامهم ، ولا بد انهم كانوا يدبرون شيئا من جديد ، فى هذه الفترة . فما كان بوسعهم ان يعيشوا دون أن يدبروا شيئا .. لقد انفقوا اعمارهم فى استخدام الآلات ، وكانوا جامدى القلوب ، عديمى الرحمة ، اشبه بالآلات ذاتها . وكانوا يروحون ويجيئون ، وقد ارتدوا المعرقات والصدريات الضيقة ، ويدخنون السجاير فى حامل

من العظم ، ويشربون الماء مغليا خوفا من ان يصابوا بمرض ما .

لقد كان « فلاس » المسكين يضيع وقته هباء ، فان هؤلاء الرجال خليقون بأن يقلبوا كل شيء راسا على عقب ، وقد اعتادوا دائما أن يبلغوا غاياتهم ، وأن يمضوا فى طريقهم .

ثم فكرت فى نفسها : كانت تعرف أنها امرأة بسيطة ، ولكنها أوتيت عقلا مستقلا ، وذكاء وشبابا بالنسبة لعمرها .. كانت فى مجموعها شخصا لا بأس به . ولكن شيئا من مؤهلاتها ما كان ليشق جليدا فى هذا الجحر الذى غفل الله عنه .. ولا فى اى مكان آخر له قيمة .

وتبادرت إلى ذهنها الأغنية الوقحة التى تدور حول « سنتيتيوريخا » العجوز الغبية .. كانت أغنية معروفة فى منطقة جبال (الأورال) من أولها إلى آخرها ، ولكن لا سبيل إلى نشر اكثر من شطريها الأولين :

« سنتيتيوريخا ، باعت عربتها ،
« واشترت بالاليكا ... »

ولم يكن يتلو هاتين الشطرتين سوى بذاءات . وكانوا يرددونها فى (كريستوفوزدفيتشينسك) ، وكانت جالوزينا ترتاب فى أنهم يقصدونها بها !

وتنهدت فى مرارة ، ثم دخلت الدار .

— ٥ —

ويممت شطر مخدعها مباشرة ، دون أن تتوقف فى البهو لتخلع عنها معطفها . وكانت الحجرة تطل على الحديقة ،

واشكال الظلال — فى ذلك الوقت من الليل — متشابهة قريبا ، سواء فى داخل الحجرة او فى الحديقة الممتدة خارج النافذة — وكأنها كانت تكرر بعضها بعضا — فكانت اشكال الستائر المتهدلة ، المتدلية ، تشبه الأشجار الملتفة بالظلمة ، المجردة من الأوراق ، التى لا تحدها خطوط واضحة . وفى الحديقة — حيث كان الشتاء قد رحل تقريبا — كان الوهج القرمزى الداكن ، المبشر بالربيع المقبل ، ينبثق من الأرض ، فيبعث الدفء فى ظلمة الليل الحريرية الناعمة ، كذلك بدا ان الظلمة الراكدة الهواء — داخل الغرفة بستائرها المتربة — قد اصطبغت واكتسبت نعومة ولينا ، بفضل الوهج البنفسجى القاتم الذى اوحى به العيد المقبل .

وكانما خلصت « العذراء » — فى صورة الأيقونة — يديها السمراوين النحيلتين ، ومدتهما خارج الاطار الفضى ، رافعة إياهما إلى اعلى ، كما لو كانت تمسك بينهما اول حرف وآخر حرف من اسمها المكتوب باليونانية « أم الرب » . وكان مصباح الأيقونة قاتما ، كبئر من المداد ، فى حامل ذهبى ، راح ينثر ضوءه على شكل نجمة — على بساط المخدع — وقد تناثرت خيوطه خلال الزجاج « المشطوف » .

وخلعت جالوزينا عنها معطفها وشالها ، فندت عنها حركة متوجعة ، وشعرت بالمها القديم . .نخسة فى خاصرتها ، تحت لوح الكتف . وارسلت صرخة جزعة ، وشرعت تتمتم : « يا حامية المحزونين القادرة ، يا أم الرب الطاهرة ، يا مساعدة المكنوب ، يا ملاذ الكون . . » . وفى وسط دعائها ، انفجرت باكية !

وعندما خبا الألم ، شرعت تفك مشابك ثوبها ، ولكن المشابك التى فى الظهر افلتت من اصابعها ، وغاصت فى القماش الناعم المجعد . ووجدت عناء فى العثور عليها .

واستيقظت « كسيوشا » — التى كانت فى حضانتها — فجاءت إلى الغرفة ، وتساءلت : « لماذا انت فى الظلام يا اماه ؟ . . هل احضر مصباحا ؟ » .

—لا ، لا تفعلى . . هناك من الضوء ما يكفى .

— دعينى افك لك ثوبك . . لا تتعبى نفسك !

— إن اصابعى كلها إبهامات ، حتى اننى اكاد ابكى . ولم يؤت ذلك الترزى ذوقا حتى يخيط المشابك ويثبتها فلا يعيى المرء البحث عنها . إنه اعمى كالخفاش ! . . لكم يدور بخلدى ان امزقها جميعا والقى بها فى وجهه القبيح !

— ما ابدع إنشادهم فى الدير ! . . إن السكون شامل ، حتى انك لتسمعين إنشادهم من البيت .

— لقد كان الانشاد جيدا ، ولكننى لا اشعر بأننى على ما يرام يا بنيتى . لقد عاودتنى تلك الوخزة مرة اخرى . . هنا وهنا . . فى كل مكان . انها جد مزعجة ، ولست ادرى ماذا افعل .

— لقد ساعدك المعالج ستايدوبيسكى فى العام الماضى .

— انه لا ينفك يسأل المريض أن يفعل ما هو مستحيل . إن هذا المعالج الذى تزعمين مجرد دجال ، لا خير يرتجى منه . هذا شىء ، والشىء الآخر انه قد رحل . . اؤكد لك انه



واستيقظت « كسيوشا » ـ التى كانت فى حضانتها ـ فجاءت الى الغرفة ، وتساءلت : « لماذا أنت فى الظلام يا أماه ؟.. »

رحل ، غادر البلدة . وليس هو أول من يفعل ، فقد اندفع الجميع يغادرونها قبيل العيد ، وكأنهم يتوقعون زلزالا ، أو شيئا من هذا القبيل !

ـ حسنا ، فما رأيك فى الطبيب المجرى ، أسير الحرب ؟ .. لقد أفدت من علاجه ، وتحسنت صحتك .

ـ لا جدوى من ذلك أيضا . أوكد لك انه لم يبق فى البلدة إنسان . إن « كيرينيى لايوس » مع المجرميين الآخرين ، على الجانب الآخر من الخط الفاصل . لقد ضموه إلى الجيش الأحمر !

ـ ولكنك تعلمين يا أماه انك تبنين أوهاما كثيرة .. إن قلبك فى حالة انفعال واضطراب . والايحاء فى حال مثل حالك خليك بأن يفعل المعجزات . وهذا ما يفعله الفلاحون على كل حال . أتذكرين تلك المرأة ، زوجة الجندى ، التى ذهبت همساتها بألمك ؟ .. ترى ماذا كان اسمها ؟

ـ لعمرى ! .. لابد انك تظنيننى مجرد جاهلة حمقاء ! .. لن يدهشنى إذا غنيت « سنتيتيوريخا » من وراء ظهرى !

ـ كيف تقولين مثل هذا القول يا أماه ؟ ! .. إنه ظلم ، وخليق بك أن تخجلى من نفسك . من الأفضل أن تساعدينى على تذكر اسم تلك المرأة ، فهو على طرف لسانى ، ولن يهنأ لى بال حتى أتذكره .

ـ إن لها من أسماء أكثر مما لديها من « الجونلات » ، ولست أدرى أى اسم منها الذى تفكرين فيه . فهم يسمونها « كوباريخا » و « ميدفديخا » ، و « زلايداريخا » ، ولا أدرى

كم من الأسماء الأخرى ، إلى جانب هذه . وهى الأخرى ليست موجودة ، فقد رحلت .. اختفت ! .. لقد سجنوها فى سجن (كيجما) لممارستها الاجهاض وعمل حبوب ومساحيق من نوع معين . ولكنها لم تلبث ان سئمت السجن ــ كما يسهل عليك أن تتصورى ــ فجازفت ، وهربت من السجن ، ورحلت إلى مكان ما من الشرق . اؤكد لك أن كل امرىء قد هرب من البلدة : فلاس ، وتيروشكا ، وخالت « بوليا » .. بيلاجيا ذات القلب المحب ! .. لم تبق فى البلدة امراة شريفة إلا نحن الاثنتان ، لأننا حمقاوان ! .. فاذا حدث شىء ، فليس بوسعك ان تجدى طبيبا فى اى مكان ، مهما تبذلى من حب او مال ! .. لست امزح ! .. فلم يبق لنا اى معونة طبية من أى نوع ! .. انهم يقولون إن هناك طبيبا فى (يورياتين) .. استاذ مشهور من (موسكو) ، ابن تاجر سيبيرى كان قد انتحر فيما مضى . ولكنى لم اكد افكر فى ان ارسل فى استدعائه ، حتى قطع الحمر الطريق فى اثنى عشر موضعا ! ... والآن ، هيا إلى فراشك ، وسأحاول ــ انا الأخرى ــ ان اظفر بقسط من النوم . وبهذه المناسبة ، ارى أن فتاك الطالب « بلاجيين » قد ادار راسك .. ما جدوى ان تقولى : لا ؟ .. إن وجهك قد تضرج حتى صار فى لون جذر اللفت . لسوف يقضى الليل كله عاكفا على بعض صور اعطيته إياها ليحمضها . فيا للغلام المسكين ! .. انهم لا ينامون فى ذلك المبنى ، ويستبقون غيرهم مؤرقين بسببهم ، فان كلبهم « توميك » لا يكف عن النباح ، وبوسعك ان تسمعيه فى طول البلدة وعرضها .. وإن غرابنا التعس لينعق بكل ما اوتى من قوة ، فوق شجرة التفاح ..

ويبدو اننى سأقضى ليلة اخرى مسهدة .. والآن ، فيم استياؤك ؟ .. لا تكونى مرهفة الحس إلى هذه الدرجة . فلماذا خلق الطلبة إن لم يكن لكى تقع الفتيات فى حبهم ؟ !

— ٦ —

ــ لماذا يعوى هذا الكلب ؟ .. اذهب فانظر ما الذى دهاه ، فليس من المعقول ان يحدث هذا الضجيج لغير ما سبب. انتظر لحظة يا ليدوتشكا ! الزم الصمت أيها اللعين! .. لا بد لى من ان أتبين ماذا يجرى ، وإلا اثرنا البوليس علينا قبل ان نفطن إلى شىء ! .. امكث هنا يا اوستين ، وانت يا سيفوبلوى . بوسعنا أن ندبر الأمر بدونكم !

ولم يسمع ليدوتشكا ــ مندوب اللجنة المركزية ــ أمر زعيم المتطوعين الثوريين بأن يكف عن الحديث ، فمضى فى كلامه بصوته الخافت ، الرتيب ، الباعث على الملل :

ــ إن الحكم العسكرى البورجوازى فى سيبريا كفيل بأن يفتح اعين اولئك الذين لا يزالون يخدعون انفسهم ، بفضل سياسته القائمة على النهب ، والاستيلاء ، والعنف ، والرمى بالرصاص، والتعذيب ! .. فهو لا يبدى العداء للطبقة العاملة فحسب ، وإنما يبديه ــ فى الواقع ــ لجميع الكادحين من ابناء الريف . ومن واجب الكادحين من ابناء الريف فى سيبريا وجبال الأورال أن يدركوا انه ليس امامهم سوى التحالف مع الكادحين فى المدن ، ومع الجنود .. ليس امامهم سوى التحالف مع فلاحى القرغيز وبوريات البائسين .

وفطن ليدوتشكا اخيرا إلى ان هناك من كان يقع عليـــه الحديث ، فصمت ، وجفف بمنديله وجهـــه المنضح بالعرق ، واغمض عينيه الكليلتين ، المنتفختين .

وهمس إليه اولئك الذين كانوا يقفون على مقربة منه : « استرح ! اشرب بعض المـــاء ! » .

واتجهت الهمســـات إلى زعيـــم المتطوعين الثوريين ، تطمئنه : « فيم كل هذا الصخب ؟ .. كل شيء على ما يرام ، فان مصباح الاشـــارة لا يزال فى النـــافذة ، و « المستطلع » — إذا جاز ان استخدم هذا التعبير البديع — لا يحول بصره عن الفضاء ، ولست اجد اى داع لنكف عن المضى فى المناقشة . استمر فى حديثك ايها الرفيق ليدوتشكا ! » .

وكانت كتل الأخشـــاب الموضوعة تحت المظلة الكبيرة ، فى فناء الدار التى يقيم فيها المصورون ، قد نقلت جانبا ، وعقد الاجتماع غير المشروع فى الفضاء الذى توسط المساحة ، تحت المظلة .. وقد حجبه عن الحجرة المظلمة ، وعن مدخل المبنى ، جدار عال — بارتفاع السقف — من الكتل الخشبية . وكان ثمة سبيل للفرار ، فى حالة الطوارىء ، خـــلال باب مستتر يؤدى إلى سرداب تحت الأرض ، يفضى بدوره إلى درب منعزل خلف الدير .

وكانت للخطيب بشرة داكنـــة فى لون الزيتون ، ولحية تمتد من إحدى اذنيه إلى الأذن الأخرى ، وقد ارتدى قلنسوة من الخيش الأسود على راسه الاصلع . وكان يعـــانى من حال عصبية تنشط إفراز العرق ، فهو دائما مبلل به . ولم تكن

سيجارته تنفك عن الانطفاء ، فكان يعيد إشعالهـــا بنهم ، من الوهج المتصاعد من مصباح البترول . وانحنى على أوراقـــه المتناثرة ، فتأملها فى انفعال ، بعينين قصيرتى البصر ، وكأنه يتشممها .. ثم استأنف حديثه بصوته الرتيب المضنى :

— ولا سبيل إلى هـــذا التحالف بين فقراء المدن وفقراء الريف ، إلا عن طـــريق مجـــالس السوفييت . أن الفـــلاح السيبيرى سيمضى نحو الغاية التى بدأ عمال سيبيريا يكافحون من اجلها ، منذ زمن طويل ، سواء رغب أو لم يرغب فى ذلك . وهذه الغاية المشتركة هى رفع نير الحكم الاستبدادى الذى يفرضه « الأميرالات » والقادة القوزاق ، وتوطيد ســـلطان الفلاحين والجنـــود السوفييت ، بفضـــل ثورة مســـلحة . وبمكافحـــة ماجورى البورجوازية من الضـــباط والقوزاق ، المدججين بالأسلحة حتى اذقانهم ، سيكون على المتمردين أن يخوضوا حربا حامية .. وسيكون الصراع طويلا ، وشاقا .

وتوقف عن الحديث مرة اخرى ، فمسح وجهه ، واغمض عينيه . وهب احد الحضور واقفا — منتهكا بذلك قواعـــد الاجتماع — ورفع يده طالبا الإذن له بان يدلى بتعليق .

* * *

وكان زعيم المتطوعين الثوريين ، أو — بتعبير ادق — قائد فريق (كيجما) من وحدات العصابات فى جبال الأورال ، يجلس فى استخفاف واستهتار مثيرين ، امام الخطيب مباشرة . وقد داب على مقاطعته باوقح لهجة ، ولم يبد له اى احتـــرام

البتة . وكان من العسير أن يصدق المرء أن عسكريا فى مثل سنه الصغيرة ــ إذ لم يكن قد تجاوز سن الفتيان بكثير ــ يتولى أمر جيوش كاملة ، وأن جنوده كانوا يطيعونه ويتطلعون إليه فى إكبار وتوقير . وكان يجلس وقد ولف يديه وقدميه فى أطراف معطف الفرسان الفضفاض الذى كان يرتديه ، وطوح برأسه إلى مسند مقعده ، وكشف عن ثوبه العسكرى ، وقد بدت على كتفيه لطخ داكنة خلفتها الاشارات الكتفية « الايبوليت » التى نزعت من مكانها .

وكان يقف إلى كل من جانبيه حارس صامت ، فى مثل سنه ، وقد ارتدى معطفا من جلد الغنم الأبيض ، استحال لونه إلى سمرة خفيفة ، وقد حف بأطرافه وبر مجعد . ولم يكن وجهاهما المليحان ، الجامدان كالصخر ، ليشيا بشىء اللهم إلا الولاء الأعمى لرئيسهما ، والاستعداد لخدمته ، مهما يكلفهما هذا من ثمن . ولم يتكلما ، ولا ابتسما ، ولا اشتركا فى شىء من النقاش ، ولا اهتزا لأى موضوع أثير خلاله .

وكان فى الحجرة اثنا عشر ، أو خمسة عشر شخصا آخر ، بعضهم وقوف ، وبعضهم جلوس على الأرض ، وقد استندوا إلى الجدار الذى تألف من كتل خشبية مطلية بالقار ، وامتدت سيقانهم أمامهم ، أو انثنت ركبهم تحت أذقانهم .. وكان بينهم ثلاثة أو أربعة ضيوف شرف ، جلسوا على مقاعد .. كانوا من العمال القدامى ، والطلائع التى خاضت غمار ثورة سنة ١٩٠٥ . وكان « تيفرزين » بينهم ، وقد بدا عابسا ، وألم به تبدل كبير عما عليه فى (موسكو) ، فيما

مضى .. وكذلك كان بينهم صديقه « انتيبوف » الشيخ ، الذى كان يقر ــ على الدوام ــ كل كلمة يقولها .. وكان هؤلاء الضيوف يجلسون ساكنين ، عابسين كالأصنام ، إذ كانوا يعدون بين الأرباب الذين ألقت الثورة عند أقدامهم عطاياها وقرابينها المشتعلة .. كانوا رجالا طرد الغرور السياسى منهم كل خلة حيوية وإنسانية !

وكانت فى الحجرة أشكال أخرى تستحق الاهتمام ، كذلك القطب من أقطاب الفوضوية الروسية « فدوفيتشينكو » ، الذى كان يلقب بـ « الراية السوداء » .. ولم يكن يستقر لحظة فى مكان ، فهو لا يفتأ يجلس على الأرض ، ثم ينهض ثانية فيذرع المكان جيئة وذهابا ، ثم يقف فى وسط الحظيرة .. كان رجلا عملاقا ، بدينا ، كبير الرأس ، واسع الفم ، ذا شعر كأنه لبدة الأسد . وقد كان ضابطا فى الحرب مع اليابان ، إن لم يكن فى الحرب التى سبقتها مع تركيا .. وكان حالما ، يستغرق أبدا فى أوهامه وخيالاته . ونظرا لما فطر عليه من أفق محدود ، ولحجمه الهائل الذى كان يحول بينه وبين الانتباه إلى كل ما هو أصغر منه حجما ، فإنه لم يحرص على أن يبدى انتباها كافيا لما كان يجرى من حديث ، فأساء فهم كل ما قيل ، وحمل آراء معارضيه على أنها آراؤه ، فراح يوافق على كل شىء !

وإلى جواره على الأرض ، كان يجلس « سفيريد » ، وهو أحد القناصة . ومع أنه لم يكن ممن يفلحون الأرض ، إلا أن صلته بالفلاحين والتربة كانت تتجلى خلال فتحة قميصه

الداكن ، الذى لم يكن ينفك عن شد قبضته عليه وعلى الصليب الذى كان يتدلى من سلسلة حول عنقه ، فيجذب طرفى فتحة القميص جانبا ، ليحك صدره بالصليب . وكان ينتمى — خلال احد ابويه — إلى « البوريات » ، وقد اوتى قلبا حارا .. وكان اميا لا يقرا ولا يكتب ، ذا شعر خفيف مجعد ، وشاربين غير كثيفين ، ولحية اقل منهما شعرا .. وكان وجهه يتجعد دائما فى ابتسامة ، وقسماته المنغولية تبديه اكبر من سنه الحقيقية.

واخذ الخطيب — الذى كان يطوف بسيبيريا فى مهمة عسكرية اوفدته فيها اللجنة المركزية — يستعرض فى ذهنه المساحة الشاسعة التى ما زال امامه أن يقطعها .. ولم يكن يجد فى معظم الرجال — الذين كان يخطب فيهم — ما يثير اهتمامه ، ولكنه كثورى قديم — منذ طفولته — وكبطل من ابطال الشعب ، راح يحدق بنظرات يكاد الإعجاب يطغى عليها ، فى القائد الشاب الذى كان يجلس امامه . فهو لم يغفر له فحسب ذلك النقص فى مسلكه ، الذى اعتبره مظهرا لطبيعة ثورية صادقة ، وإنما شعر باغتباط لوقاحته ، كما تغتبط امراة مفتونة ، بما يبديه لها عاشق مستبد من خشونة مجردة من كل حياء !

وكان قائد المتطوعين الثوريين هو « ليبريوس » ، ابن ميكوليتسين .. اما الخطيب ، فكان عضوا سابقا فى حزب العمال التعاونى ، يدعى « كوستويد أمورسكى » ، وكان ثوريا اشتراكيا ذات يوم ، وقد نقح آراءه ووجهات نظره ، واقر بأخطائه الماضية ونبذها فى عدد من البيانات المفصلة ، فلم

يقبل عضوا فى الحزب الشيوعى فحسب ، بل إنه لم يلبث ان اضطلع — بعد ذلك — بالمهمة ذات المسئولية ، التى كان يقوم بها فى الفترة الراهنة . ولقد اختير لهـا — بالرغم من انه لم يكن اكثر من جندى — كتحية للسنوات الطويلة التى قضاها فى الجهاد الثورى، وللمحن التى عاناها فى السجون القيصرية ، من ناحية ، وللاعتقاد بأنه — كعضو سابق فى الحزب التعاونى — كان يعرف طباع الجماهير الريفية فى مناطق سيبيريا المتمردة ، من ناحية اخرى . وقد اعتبرت هذه المعرفة المزعومة اهم — بالنسبة للفرض المرجو من بعثته — من الخبرة العسكرية .

ولقد بدل انقلاب معتقداته السياسية من مظهره ومسلكه بدرجة تفوق التصور . فما تذكر عنه احد انه كان أصلع أو ذا لحية فى الأيام الخالية .. ومع ذلك ، فربما كان كل هـذا من قبيل التنكر والاستخفاء ، إذ كان يخضع لأوامر صارمة من الحزب بأن يظل مستخفيا ! .. وكان اسمه فى الحركة السرية : « بيريندى » ، أو « الرفيق ليدوتشكا » .

* * *

وحدث هرج قصير ، أثاره تهور « فدوفيتشينكو » إذ صرح بأنه قد وافق على تعليمات اللجنة المركزية التى قرئت إذ ذاك . فلما تبدد الهرج ، استطرد كوستويد قائلا :

— ولاحتضان حركة الكتل الريفية المطردة النمو ، على اوسع نطاق ممكن ، لا بد من توطيد الاتصال فورا بوحدات

جنود العصابات التى تعمل فى الأراضى التابعة للجنة الاقليمية للحزب .

ثم تحدث عن التدابير المتعلقة بأماكن الاجتماعات السرية، وكلمات المرور ، والشفرات ، ووسائل تبادل المخاطبات ، واسهب فى وصف تفصيلات كل ذلك .. ومضى قائلا : « يجب أن تكون الوحدات على علم بمواقع مخازن الأسلحة والمهمات التى تمت للبيض ، وبالمراكز التى يحتفظون فيها بمبالغ كبيرة من المال ، وكذلك بالاحتياطات التى تتخذ لتأمين سلامتهم .. ومن الضرورى أن تدبر أدق تفصيلات المسائل المتعلقة بتنظيم فصائل العصابات ، وقادتها ، والنظام الذى يخضع له الرفاق فى الحرب ، والنشاط التآمرى ، والاتصال بالعالم الخارجى ، والسلوك نحو الأهالى ، ومحاكم الميدان الثورية الحربية ، والأساليب الفنية لأعمال التريب فى أرض العدو ، مثل تدمير الجسور ، وخطوط السكك الحديدية ، والبواخر ، و «صنادل» النقل ، والمحطات ، و « الورش » بكل اجهزتها الفنية ، ومكاتب البرق ، والمناجم ، والامدادات الغذائية .. وهذا من قبيل التمثيل لا الحصر » .

ولم يعد « ليبريوس » يحتمل اكثر من ذلك . فقد لاح له كل ما قيل وكأنه احلام هاو ، فهى خلو من اية علاقة عملية بعمليه .. فقال : « إنها محاضرة بديعة جدا ، وسأستوعبها عن ظهر قلب . اظن أن علينا أن نتقبل كل هـذا بدون كلمة اعتراض ، اللهم إلا إذا كنـا راغبين فى أن نفقد تأييد الجيش الأحمر ؟ » .

ـ لا بد لكم من تقبلها طبعا .

ـ وماذا ترانى فاعلا بقيودكم هـذه ـ التى تشبه القيود التى تفرضها المدارس على تلاميذها ـ يا عزيزى ليدوتشكا ، إذا كانت قواتى ـ واغمض عينيك عنها ، فهى ثلاث كتائب تضم مدفعية وفرسانا ـ قد ظلت تقوم بحملات لشهور عدة ، وتعمل جاهدة على تقويض العدو ؟

وقال كوستويد فى سريرته : « ما أروع ذلك ! .. يا لها من قوة ! » .

وقطع تيفرزين حبل النقاش ، فقد كان يمقت لهجة ليبريوس المتعجرفة ، فقال : « معذرة أيها الرفيق الخطيب ، فهناك شيء أغلق على فهمه .. ولعلنى كتبت إحدى نقاط التعليمات على غير صحتها ، فهل لى أن أقرأها عليك، إذ أحب أن أكون مطمئنا : « من المرغوب فيه إلى حد كبير اجتذاب المحاربين القدامى ، الذين كانوا فى الجبهة ، والذين كانوا ينتمون إلى منظمات الجنود عندما قامت الثورة ، ومن المستحب أن تضم عضوية اللجنة واحدا أو اثنين من ضباط الصف ، وواحدا من الفنيين العسكريين .. فهل ترانى كتبتها صحيحة أيها الرفيق الخطيب ؟ » !

ـ صحيحة تماما .. بنصها ، كلمة كلمة !

ـ إذن فاسمح لى بأن أقول هذا : اننى أرى أن النقطة الخاصة بالاخصائيين العسكريين لا تبعث على الاطمئنان . فنحن ـ معشر العمال الذين اشتركوا فى ثورة سنة ١٩٠٥ ـ لم نعتد أن نركن إلى رجال الجيش أو نثق فيهم ، فان بينهم دائما عناصر مناهضة للثورة .

وتصاعدت صيحات : « هذا يكفى ! .. القرار ! لنتخذ قرارا ! .. لقد آن لنا ان نعود إلى بيوتنا ، إذ اننـــا فى وقت متأخر ! » .

وقال فدوفيتشينكو فى صوت ذى هدير عميق : « اننى اتفق مع الأغلبية . وإذا استخدمنا تعبيرا شاعريـــا ، أمكن القول بأن النظم والتشريعات المدنيـــة يجب أن تقـــوم على الديموقراطيـــة .. يجب أن تنبت من تحت ، كالنبـــات الذى غرســـت بذرته فى الأرض ونمت جذوره فى التربـــة . وليس بوسعكم ان تدقوا النبات — من فوق — بالمطرقة ليستقر فى الأرض ، كعصى وقوائم السياج . لقد كانت هذه بالذات غلطة ديكتاتوريـــة اليعاقبة ، والســـبب الذى من اجله اســـتطاع الثورميدوريـــون ان يســـحقوا المجمع الوطنى » . فقـــال « سفيريد » — صديقه الذى كان يتبعه فى شطحاته — يعزز رأيه : « انه لأمر واضح وضوح ضوء النهار ، وبوســـع اى طفل صغير أن يتبينه . وكان جديرا بنا أن نفكر فيه قبل الآن . فقد تأخرنا عن الفرصة المناسبة ، واصـــبحت مهمتنـــا الآن مقصورة على أن نقاتل وان نمضى فى طريقنا مهما تكن العواقب . وإلا ، فكيف ننكص على اعقابنا بعد إذ بدأنا ؟ .. لقد اخترنا طريقنا ، فعلينا أن نمضى فيه » .

واخذ الحضور يصيحون — من كل جانب — مرددين : « القرار ! .. القرار ! » .

واستمروا فى الكلام فترة أخرى ، ولكن كل ما قالوه كان يبعد شيئا فشيئا عن كل معنى وقيمة . وما لبث الاجتماع ان

انفض أخيرا ، عند الفجر . فانصرفوا إلى بيوتهم واحدا بعد واحد ، متخذين الاحتياطات المعتادة .

— ٧ —

كان ثمة مكان بديع المنظر ، على الطريق الخلوى ، حيث يفصل نهر (باجينكا) الصغير ، السريع الجريان ، بين قريتى (كوتينى بوســاد) و (مالى يرمولاى) ، وقد امتدت إحداهما منحدرة على سفح التل ، وتناثرت الأخرى فى الوادى الذى يقع اسفله . وكانت هناك حفلة اقيمت فى (كوتينى) لتوديع المجندين الذين عباهم الأميرال كولشـــاك ، كمـــا أن اللجنة الطبية فى (يرمولاى) — تحت رئاسة الكولونيل «ستريسه» — استأنفت بعد عطلة عيـــد الفصـــح فحص أولئك الصـــالحين للتجنيد ، من ابناء المنطقة . وكان الفرسان من « المليشيا » و « القوزاق » يعسكرون فى القرية لهذه المناسبة .

وكان اليوم الثالث من ايام أسبوع الفصح الذى تأخر عن المعتاد ، فى ربيع مبكر حار ، خاليا من اية نسمة ، على غير المعتـــاد كذلك . ومدت الموائـــد محملة بالطعـــام والشراب للمجندين ، فى العراء ، تحت قبة السماء — فى (كوتيينى) — على بعد قليل من الطريق الخلوى ، حتى لا تسد سبيل المرور . وكانت الموائد قـــد وضعت متلاصـــقة — وإن لم تكن فى خط مستقيم تمام الاستقامة — وغطيت بأغطيـــة بيضاء تدلت إلى الأرض ، فبدت متعرجة وهى تنحدر بانحدار الشارع الرئيسى للقرية ، وكأنها عقد طويل من « السجق » الأبيض .

وكان اهل القرية قد جمعوا مواردهم ليفوا بمطالب الحفلة ، فاذا الأصناف الرئيسية من الطعام هى بقايا غداء عيد الفصح : طبقان من لحم الخنزير المدخن ، وعدة اطباق من « كوليش » و « الباشقا » . وعلى مسافات متفاوتة ، على الموائد جميعا ، كانت ثمة اوعية مليئة بالفطر والخيار والكرنب المخلل ، وصحاف بها خبز بيتى قطع إلى كتل سميكة ، واطباق مترعة ببيض عيد الفصح . وكان معظم البيض مصبوغا باللون الوردى او الأزرق الزاهى .

وتناثر على العشب الحديث النمو — حول الموائد — قشر البيض ، بين وردى وازرق زاه محوط بحواف بيضاء . وكذلك كانت اقمصة الرجال وثياب الفتيات ، بين وردية وزرقاء زاهية .. كما كانت تمخر عباب السماء الزرقاء سحب وردية ، اخذت تتهادى فى بطء وجلال ، وكأنما كانت السماء تتحرك معها !

وهبط « فلاس جالوزين » درجات سلم دار «بافنوتكين» — على السفح الذى كان يعلو الطريق الخلوية مباشرة — وقد ارتدى قميصا ورديا ، وحزاما من الحرير ، وراح يحرك اصابع قدميه يمنة ويسرة .. وجرى نحو الموائد ، وشرع يلقى خطابه :

« اما وقد اعوزتنا الشمبانيا ، فانى اشرب تحية لكم — ايها الفتيان — « فودكا » بيتية ، متمنيا حياة طويلة وسنين سعيدة لكم ايها الشبان الذين تعتزمون الرحيل اليوم . ولكم كنت ارجو ان اتيح لكم انخابا عديدة اخرى .

« ايها السادة المجندون ، هلا اصغيتم إلى ! .. إن طريق الصليب الذى يمتد أمامكم ، هو الدفاع عن وطننا ضد الغاضبين السفاكين الذين يغرقون الحقول بدماء الإخوة . لقد كان الشعب يصبو إلى الأمل فى ان يناقش فتوح الثورة بروح سلمية ، ولكن حزب البلاشفة — عبيد الأموال الأجنبية — شتتوا الجمعية التاسيسية التى كانت اسمى أمل لدى الشعب ، بقوة الحراب الغاشمة . واصبح دم المستضعفين — الذين بلا دفاع — يتدفق كالنهر .

« ايها الشبان المنطلقون اليوم ، إن شرف اسلحتنا المهيض أمانة فى اعناقكم ! .. لقد جللنا انفسنا بالخزى ، وإنا لمدينون لحلفائنا الشهماء . ذلك لأننا لسنا أمام الحمر وحدهم ، بل إن ألمانيا والنمسا قد عادتا ترفعان راسيهما الوقحين من جديد . إن الله معنا ايها الفتيان ... » .

وكان لا يزال سادرا فى الكلام ، حين طغى التهليل والهتاف على صوته ، فرفع كأسه المليئة بالفودكا الثقيلة إلى شفتيه ، ورشف رشفة . ولكنه لم يستمرئها ، فقد كان يفضل عليها النبيذ ، وكان يألف النكهات الشذية . ولكن الشعور بانه كان يضحى من اجل الصالح العام ، ملأ صدره رضاء !

* * *

وقال « جوشكا ريابيخ » فى صوت مترنح ، وسط الصخب الذى اثاره الشراب حول المائدة ، لصديقه «تيريوشكا» — ترينتى جالوزين — الذى كان يجلس بجواره : « إن شيخكم لعظيم فى الخطابة ، حتى ان ميليوكوف لا يقارن

به ، وحق الله ! .. إنـه لرجـل رائع حقـا ! .. على اننى لا احسبه يعمل بكل هـذا الجـد لغير ما شيء ، واتوقع انه سيخلصك من التعبئة كجزاء له » .

ـ خسئت يا جوشكا ! كيف يدور بخلدك أمر كهذا ؟ .. بخلصنى من التجنيد حقا ؟ ! .. بودى ان أراه يسعى لذلك ! .. ولسـوف اتسلم اوراقى فى ذات اليوم الذى تتسلم فيه اوراقك ، وسوف تتبين ذلك . ولسوف نخدم فى وحدة واحدة ... لقد طردونى من المدرسة ، أولاد الحرام ! إن أمى لتفرى قلبها من اجلى ، واحسب اننى لن استطيع الآن ان اصبح ضابطا .. إن ابى يعرف فعلا كيف يتحدث ويخطب ، وهو يجيد فى كل مرة . واغرب ما فى الأمر انها هبة فطرية لديه ، فهو لم يتعلم البتة !

ـ هل سمعت عن (سانكا بافنوتكين) ؟

ـ اجل . أهو حقا مرض شديد العدوى ؟

ـ لا شفاء منه ، وعليه أن يتحمله إلى أن يقضى عليه . إن الذنب ذنبه ، فقد حذرناه من الذهاب .. إن عليك أن تكون جد حريص فى انتقاء من تختلط بهم !

ـ وما الذى سيجرى له الآن يا جوشكا ؟

ـ إنها حال فظيعة . لقد اراد ان يطلق الرصاص على نفسه . ولقد استدعى للخدمة ، وهو الآن فى الفحص الطبى فى (يرمولاى) ، واحسبهم سيأخذونه . وكان يقول ـ قبل ذلك ـ إنه سيهرب وينضم إلى العصابات « لينتقم من علل المجتمع » !

ـ إنك لتعلم يا جوشكا انك تتكلم عن مرض معد .. ولكنك قد تصاب بمرض آخر ، إذا لم تذهب إليهم .

ـ اعرف ما ترمى إليه ، وان مظهرك ليشى بانك قد اصبت به . على أن هذا ليس مرضا ، وإنما هو رذيلة سرية !

ـ لسوف اهشم انفك جزاء قولك مثل هذه الأمور يا جوشكا . انها للهجة بديعة تخاطب بها صديقا ، ايها المفسود الكذوب !

ـ هدىء من غضبك ، فما كانت هذه سوى مزحة . إنما اردت ان اقول لك اننى ذهبت إلى (باجينسك) فى عيد الفصح ، وكان هناك محاضر جد ظريف .. واحد من الفوضويين . وقد تكلم عن « تحرير الشخصية » ، وقد استمرات حديثه ، إذ كانت مادته طيبة . ولسوف انضم إلى الفوضويين .. لقد قال إن هناك قوة داخلية فى نفوسنا ، وإن من الواجب إيقاظها .. قال إن الجنس والخلق هما مظهرا الكهربائية الحيوانية . ما قولك فى هذا ؟ .. لقد كان عبقريا .. إن فحيح الذين يطالبوننى بالصمت يتزايد . إن الناس يصرخون من أعماق رؤوسهم من كلّ ناحية ، وهذا يكفى لأن يصيب المرء بالصمم . ليس بوسعى أن احتمل ، فاصمت يا « يرينيتى » ، واشرب !

ـ فليكن ، ولكن اخبرنى اولا بأمر واحد يا جوشكا ! .. اننى لا افقه بعد كل تلك الكلمات عن الاشتراكية ، ماذا يقصد بـ « سابوتاجنيك » مثلا ؟ .. ما معناها ؟

ـ إننى خبير بكل هذه الكلمات ، ولكنى اصارحك يا ترينيتى باننى ثمل ، فدعنى وشأنى . إن « سابوتاجنيك »

معناها الشخص الذى ينتمى إلى نفس العصابة . أليست «فاتاجا» تعنى عصابة ؟ .. حسنا ، إذا قلت «سافاتجنيك» ، فمعناها انك تنتمى إلى نفس « الفاتاجا » . أتفهم أيها الغبى؟

ــ هذا عين ما ظننت .. كلمة سباب ! .. ولكنك كنت تتكلم عن تلك القوة الكهربائية . لقد سمعت عنها ، وكنت افكر فى ان اطلب حزاما كهربائيا للفتق من (بطرسبورج) ، رايته فى إعلان .. والثمن نقدا . وقد جاء فى الاعلان : « لكى تزيد قوتك » . على انه كانت ثمة ثورة اخرى ، ومن ثم فقد كانت هناك أمور اخرى تشغل الفكر ..

ولم يتم « ترينيتى » عبارته ، فقد طغى على ضجيج الأصوات الثملة حول المائدة صوت انفجار عال ، مدو ، غير بعيد . ثم سكت لحظة ، وما لبث ان أعقبه انفجار اعلى دويا وادعى للاضطراب من ذى قبل . وقفز بعض الناس عن مقاعدهم ، فبقى منهم على اقدامهم اولئك الذين كانوا أقل اضطرابا وتأثرا بالخمر . وحاول آخرون أن يجروا اقدامهم ليهربوا مترنحين ، ولكنهم ارتموا تحت المائدة ، واخذوا يغطون ! .. وراحت النسوة يولولن .. وحدث هرج عام .

* * *

ووقفت « فلاس » يتطلع حوله بحثا عن الجانى . وبدا له ــ فى اللحظات الأولى ــ أن الانفجار انبعث من مكان ما من القرية ، بل لعله كان من مكان جد قريب من الموائد . وانتصبت العروق فى عنقه ، واحتقن وجهه ، وصاح مزمجرا : « من هو

« اليهوذا » الذى فى صفوفنا ؟ .. من الذى ارتكب هذا العمل الشنيع ؟ من الذى كان يعبث بقنابل يدوية هنا ؟ .. لسوف أخنقه بيدى ، هذا الأفعوان ، ولو كان ابنى . ايها المواطنون، إننا لن نسمح لأى امرىء بأن يسخر منا ويعبث بنا . يجب أن نحاصر القرية ، وسوف نعثر على الشقى ، ولن ندعه يهرب ! » .

وأصغوا إليه فى بادىء الأمر ، ثم اتجه اهتمامهم إلى عمود من الدخان الأسود ، أخذ يتصاعد ببطء نحو السماء ، منسابا من دار القيادة الاقليمية للمنطقة ، فى (مالى يرمولاى) ، فاندفعوا إلى حافة الوادى ، يرسلون البصر عبر النهر ليتبينوا ما كان يجرى هناك .

كان المبنى يحترق ، وقد خرج منه عدد من المجندين ــ بينهم واحد حافى القدمين ، عار إلا من سروال ــ مهرعين ، مع الكولونيل « ستريسه » وضباط غيره من لجنة الفرز . وراح فرسان القوزاق والمليشيا يذرعون القرية جيئة وذهابا بحثا عن شخص ما ، وقد انحنوا على سروجهم ، واخذوا يلوحون بسياطهم ، والجياد تتلوى تحتهم كأنها ثعابين .. وكان كثير من الناس يجرون فى الطريق الخلوى نحو (كوتيينى) ، تتبعهم دقات نواقيس الكنيسة الصاخبة ، الملحاحة ، التى كانت تنذر بالخطر .

وتطور الموقف بسرعة رهيبة . فعند الغسق ، بدا ان الكولونيل « ستريسه » قد أيقن من ان صيده قد غادر (يرمولاى) ، فركب مع فرسانه القوزاق إلى (كوتيينى) ،

وطوقوا القرية بدوريات منهم ، ثم شرعوا يفتشون فى كل كوخ وكل بيت .

وكان نصف المجندين قد غابوا عن الدنيا ، فى تلك الأثناء . فقد مكثوا فى مكان الحفلة ، واستسلموا للنوم متهالكين على الأرض ، أو مسندين رؤوسهم إلى الموائد ، وهم يغطون . وكان الظلام قد لف القرية عندما انتشر نبأ وجود « المليشيا » فيها .

واطلق كثير من الشبان — بينهم ترينيتى وجوشكا — لسيقانهم العنان ، شاقين سبيلهم خلال الساحات الخلفية للبيوت ، إلى اقرب مخزن للغلال ، ثم راحوا يتراكلون ويتدافعون ، ليزحفوا إلى ما تحت الأرض ، خلال ثغرة ضيقة فى اسفل سياج المخزن . ولم يكونوا — فى غبشة الظلام وغمرة الاضطراب — وقد تبينوا لمن هذا المخزن ، ولكنهم لم يلبثوا ان حكموا — على هدى رائحة السمك المجفف والبترول — ان مخزن الغلال كان مخزنا يستخدمه بدال القرية لاختزان سلعة ، كما تراءى لهم . ولم يكن لدى الشبان ما يحرج ضمائرهم ، فكان من الغباء ان يختبئوا .. بلّ إن معظمهم جروا هاربين تحت وحى اللحظة ، لأنهم كانوا سكارى ، وقد فقدوا قدرتهم على التفكير . على ان فئة قليلة منهم ظلوا متلازمين ، الأمر الذى لم يلبث ان لاح لهم منطويا على اتهام ، بل إنهم خشوا ان يؤدى — إذا ما تكشف — إلى هلاكهم . فمن الصحيح ان زملاءهم لم يكونوا اكثر من عربيدين ، ولكن احدا لم يكن يدرى قط ما تخبئه الظروف ، فان اى شىء قد يكتسب مسحة سياسة ، فى هذه الأيام . ولقد كانت العربدة

تعتبر دليلا على انتكاسة رجعية سوداء فى المنطقة السوفييتية ، فى حين انها كانت تعد — فى المنطقة البيضاء — لونا من البلشفية !

ووجدوا انهم لم يكونوا وحيدين فى المخزن ، فان غيرهم كانوا وقد سبقوهم إليه ، فاذا الفراغ الذى بين الأرض والسقف قد ازدحم بأناس من القريتين معا . وكان أولئك الذين من (كوتيينى) سكارى تماما ، بعضهم يغط ، وبعضهم يصر على اسنانه ويئن اثناء نومه ، وبعضهم يعانى الغثيان . وكان الظلام دامسا ، والمكان خاليا من الهواء ، والروائح التى ملأته فظيعة . وكان آخر الذين وصلوا قد سدوا الثغرة التى فى السياج ، ليخفوا مخبأهم عن الذين فى الخارج .. وبعد فترة من الزمن ، انقطع الغطيط والأنين ، واستغرق السكارى فى نوم عميق هادىء ، وساد السكون التام ، اللهم إلا من همسات ملحاحة كانت تنبعث من احد الأركان ، حيث كان ترينيتى وجوشكا منكمشين — فى ذعر — مع « كوسكا » .. وهو فتى شرس ، مشاكس ، من (يرمولاى) .

وراح كوسكا يقول : « لا ترفع صوتك هكذا ، وإلا كشفت عن مكاننا ايها الشيطان ذو الأنف السائل المخاط ! .. الا تسمع ؟ إن رجال ستريسه يروحون ويغدون فى الخارج لقد وصلوا إلى نهاية الشارع ، وها هم أولاء راجعون .. ها هم اولاء لا تتنفس والا خنقتك ! من حسن حظك انهم انصرفوا .. ما الذى دفعك إلى المجىء إلى هنا ، بحق الشيطان ؟ .. ما الذى يدعوك إلى الاختباء ايها الغبى ؟ .. اى مخلوق على الأرض كان يملك أن يشير إليك بأصبع ؟ » .



وراح كوسكا يقول : « لا ترفع صوتك هكذا ، والا كشفت عن مكانـا أيهـا الشيطان ذو الأنف السـائل المخـاط !.. »

ـ لقد سمعت جوشكا يصرخ : « اختبىء ! » ، فزحفت إلى هنا .

ـ إن لدى جوشكا من الأسباب القويـة ما يدعوه إلى الاختباء ، فان أسرته عن بكرة أبيها فى محنة .. إنهم جميعـا محوطون بالشبهات . فان لهم أقارب يعملون فى « ورش » السكك الحديدية فى (خوداتسكوى) ، وهـذا هو السر .. لا تتململ ، بل ابق ساكنا أيها الأحمق . لقد ظل الناس يتبولون ويتقيأون فى طول المكان وعرضـه ، فاذا أنت تحركت ، نثرت علينا جميعا الأوساخ . ألا تشم الروائح الكريهة ؟ .. أتعرف السبب الذى من أجله يجوب « ستريسه » القرية ؟ إنه يبحث عن أناس من خارجهـا .. من (باجينسك) .. هـذا كل ما يفعل !

ـ وكيف حدث كل هذا يا كوسكا ؟ .. كيف بدأ الأمـر كله ؟

ـ أن «سـانكا» هو الذى بدأه .. «سـانكا بافنوتكين» . لقد كنـا جميعا فى إدارة التجنيد ، وقد اصطففنا عرايـا ، فى انتظار الطبيب . فلما حان دور « سـانكا » ، أبى أن يخلع ثيابه . كان قد أفرط فى الشراب ـ بعض الشىء ـ عندما أقبل إلى الإدارة . وأمره الموظف بأدب أن يخلع ثيابه ، وقد ذهب فى تأدبه إلى درجة أنه كان يخاطبه بـ « حضرتك » ، ولكن « سـانكا » صرخ بأعلى صوته : « لن أخلع ثيابى .. لن أكشف عورتى أمام الناس جميعا ! » .. وكأنه كان مستحييا ! .. وما لبث أن انقض على الموظف ، ولكمه فى فكه . وصدقنى إذا قلت لك إن « سـانكا » انحنى ـ فى لمح البصر ـ فأمسـك

بمكتب الموظف من قوائمه ، وقلبه راسا على عقب ، فهوى على الأرض ــ بكل ما كان عليه من محبرة ، وقوائم الجيش ، وكل شيء ــ فى ضجة مزعجة ! .. وإذ ذاك ، اقبل ستريسه صائحا : « إننى لن اسكت عن اى عربيد ، ولن اقبل اية ثورة بلا دم هنا . ساعلمكم كيف تحترمون القانون فى مكان رسمى كهذا ! .. من زعيم العصابة ؟ » .

« وهنا صرخ سانكا : التقطوا ثيابكم ايها الرفاق، فقد انتهى عهدهم بنا ! » . وذهب إلى النافذة ، فهشم زجاجها بقبضة يده . والتقطت ثيابى ، وهرعت خلفه ، وانا ارتديها اثناء الجرى . واندفع إلى الخارج ، فانطلق فى الشارع كانه الريح ، ومضيت خلفه ، وتبعنا واحد او اثنان غيرنا . ورحنا نجرى بكل ما فى سيقاننا من سرعة ، فاقبلوا خلفنا يصرخون ويصيحون .. اما إذا سالتنى عن سبب هذا كله ، فليس فى وسع امرىء ان يعرف له اولا ولا آخرا ! » .

ــ ولكن ، ما قصة القنبلة ؟

ــ ما شانها ؟

ــ أقصد .. من الذى القاها ؟ .. القنبلة ، او القذيفة اليدوية ، او كيفما تكن !

ــ رحماك يا رب ! .. ما احسبك تظن اننا القيناها ؟

ــ إذن فمن الذى فعل ؟

ــ وكيف لى ان اعرف ؟ .. لا بد ان الذى القاها شخص ما .. شخص راى كل هذا الهرج يجرى ، فقال فى

نفسه : « لماذا لا انسف المكان كله على رؤوس اصحابه ، فى غمرة هذا الصخب ؟ .. إنهم سيلقون الشبهات على غيرى ! » . لا بد انه شخص « سياسى » .. واحد من اولئك « السياسيين » ، من (باجنيسك) ، فان ذلك المكان ملىء بهم .. صه ! اصمت ! الا تسمع ؟ .. إن رجال ستريسه عائدون . لسوف تكون هذه نهايتنا . قلت لك الزم السكون !

وسمعت أصوات تقترب فى الشارع ، وصرير احذية ضخمة ، وصلصلة المهاميز . وانبعث صوت حاد آمر ، يتكلم بلهجة اهل (بطرسبورج) الدقيقة النطق بمخارج الكلمات .. صوت الكولونيل : « لا تجادل ! لن تستطيع أن تغرر بى . اننى واثق من أن شخصا ما كان يتكلم فى هذا المكان ! » .

ومضى عمدة قرية (يرمولاى) ــ وهو صياد شيخ يدعى « اوتفياجستين » يجادل : « لابد انه خيل لسعادتك ــ من قبيل الوهم ــ انك تسمع حديثا . ثم ما الذى يمنع اهل القرية من ان يتكلموا ؟ .. انهم ليسوا فى حرم كنيسة . لعلهم كانوا يتحدثون ، فان البيوت مليئة بالناس . ليسوا حيوانات اعجمية ! .. او لعل الشيطان كان يهز شخصا ما فى نومه » !

ــ وبعد ؟ ! .. كف عن تمثيل دور غبى القرية ! الشيطان بعينه ؟ ! .. ارى انكم جميعا تكبرون دون ان تكبر عقولكم ، فى هذا المكان . لسوف تزداد مهارة وذكاء ، ولن تلبث ان تتكلم فى البلشفية بعد ذلك !

ــ اللهم ارحمنا ! .. كيف تقول هذا القول يا صاحب السعادة .. يا سيدى الكولونيل ! .. إن اهل قريتنا سذج ،

وجهلة ، لا يستطيعون القراءة .. ولو فى كتاب الصلوات ! .. فما الذى يبتغونه من البلشفية ؟

ــ هكذا تقولون جميعا ، إلى ان ينكشف امركم وانتم متلبسون .. مر بتفتيش هذا الحانوت من اعلاه إلى اسفله .. اخرجــوا كل شىء فيه من مكانه ، ولا تنس البحث تحت مناضد البيع !

ــ سمعا وطاعة يا صاحب السعادة !

ــ اننى اريد بافنوتكين ، وريابيخ ، ونيخفالينيخ ، احياء او امواتا . ولا يهمنى كيف تعثر عليهم ، ولو غصــت وراءهم إلى قاع البحر . كذلك اريد ذلك الفتى .. جرو جالوزين . وليس يهمنى كل ما يلقيه ابوه من خطب وطنية . إن بوسعه ان « يبرطع كالحمار » فى خطبه ، ولكنه لن يثبت علينا الغفلة . إن ثمة ما يريب فى انطلاق بدال ينثر الخطب فى كل مكان . انه لامر يدعو إلى الشك .. انه لامر غير طبيعى ! ان لدينا بيانات تنم عن ان آل جالوزين يتسترون على مجرمين سياســيين ، وانهم يعقــدون اجتماعــات غير مشروعــة فى دارهــم فى كريستوفوزدفيتشينسك . فجئنى بذلك الجرو ! .. اننى لم اقرر بعد ما ينبغى ان افعل به ، ولكننى لن اتردد ــ إذا ما ثبت شىء ضده ــ عن ان اشنقه ليكون درسا للآخرين !

وابتعد الباحثون ، فلما صاروا على بعد كاف ، همس كوسكا إلى ترينيتى ، الذى اوشك ان يموت ذعرا : « هل سمعت ؟ » .

فهمس الآخر فى صوت واهن : « أجل » .

ــ حسنا ، لم يعد هناك ســوى مكان واحــد لى ولك ولسانكا ولجوشكا .. إنه الغابــة . ولســت أعنى اننــا سنضطر إلى الاقامة هناك نهائيا ، وإنمــا .. ريثما تهــدا الأمور ، فحسب . ثم نتدبر الأمور ، فقد نستطيع أن نعــود ثانية !

الفصل الحادى عشر

أخوة الغابة

— ١ —

انقضى عامان تقريبا ، مذ وقع « يورى » اسيرا فى ايدى العصابات الوطنية . ولم تكن ثمة قيود محددة على حريته فما كانت هناك جدران حول مكان أسره ، ولا اقيم عليه حارس ، ولا روقبت حركاته . وكانت تلك القوة من جنود العصابات لا تنى عن التنقل ، ولا تعتزل سكان الأراضى والمحلات التى كانت تمر بها ، فكانت تختلط بهم .. بل كانت تذوب وتندمج فيهم .

وكأنما كان اسر «يورى» وفقدانه حريته ، مجرد وهم ، فقد كان اشبه برجل حر أخفق فى ان يستغل حريته لنفسه .. لم يكن اسره وفقدانه حريته يختلفان فى شىء عن اشكال القسر الأخرى التى تفرضها الحياة ، والتى كثيرا ما تكون خفية ، غير ملموسة ، والتى تبدو — هى الأخرى — كما لو لم يكن لها وجود ، وكأنها مجرد وهم مختلق .. خيال .. خرافة ! .. ومع ذلك ، فقد كان « يورى » مضطرا إلى أن ينصاع لهذا الحرمان من الحرية ، وإن بدا خياليا ، برغم انه لم يكن حبيسا ، ولا مغلولا ، ولا محوطا بالرقابة ! .. فلقد حاول الفرار من جنود العصابات ثلاث مرات ، فكانت كل محاولة

تنتهى بوقوعه فى قبضتهم . ولم يكن يتعرض لاى عقاب ، ولكنه كان يلعب بالنار ، فلم يرجع للمحاولة بعد ذلك ..

ولقد لقى حظوة لدى رئيس الفرقة « ليبريوس ميكوليتسين » ، الذى ارتاح إلى صحبته ، فجعله ينام فى خيمته الخاصة . وقد وجد « يورى » هذه الزمالة المفروضة عليه عبئا ممضا .

— ٢ —

وكان جنود العصابة يسعون باطراد — خلال هذه المدة — نحو الشرق . وكان تنقلهم هذا يتخذ — فى بعض الأوقات — شكل زحف ، فهو جزء من الحملة العامة لطرد « الكولشاك » من سيبريا الغربية .. وفى أوقات أخرى — عند ما كان البيض يوقعون ضرباتهم من الخلف ، ويوشكون ان يحاصروا الحمر — كان هذا التنقل يتخذ شكل فرار .. نحو الشرق دائما . ولقد مكث « يورى » زمنا طويلا لا يفقه له معنى ولا شكلا .

وكانت سبيلهم تمتد موازية للطرق الخلوية العامة ، او تتبعها فى بعض الأحيان . وكانت القرى والمدن الصغيرة التى تصادفهم تكتسب الصبغة الحمراء او البيضاء ، تبعا لحظ كل من الفريقين فى الحرب . فكان من العسير أن يدرك المرء من مظهرها — فى اية لحظة معينة — اى الفريقين هو المسيطر عليها .

وعندما كان هذا الجيش من الفلاحين يجتاز اية محلة ، كان كل شىء يفقد معناه ويتضاءل ، فكأنما كانت المنازل — على

جانبى الطريق ــ تنكمش حتى تلاصق الأرض ، فيلوح الجند بخيلهم وبنادقهم وأجسامهم الضخمة المتدافعة ، الخائضة فى الوحل ، كأنهم يفوقون البيوت ارتفاعا .

وإذ كانوا ــ ذات يوم ــ فى بلدة صغيرة تدعى (باشينسك) ، سعى يورى إلى الصيدلى ليتسلم قدرا من الامدادات الطبية البريطانية ، التى كانت وحدة من الضباط البيض ــ بقيادة الجنرال كابيل ــ قد خلفتها ، فأصبحت غنيمة لجنود العصابات .

وكان الأصيل مكفهرا ، مطيرا ، لا يتراءى فيه سوى لونان: فحيثما يقع النور فاللون أبيض ، وما عدا ذلك فهو أسود . . وكذلك كان مزاج « يورى » مقصورا على حالين لا ثالثة لهما ، ولا وسط بينهما ! . . ولم تكن الطريق ــ التى خربها مرور الجيوش تماما ــ سوى نهر من وحل أسود ، لا سبيل إلى عبوره إلا فى بقاع قليلة ، لا يتسنى الوصول إليها إلا باحتضان المنازل والالتصاق بها لبضع مئات من الياردات .

وفى هذه الظروف التقى « يورى » ببيلاجيا تياجونافا ، التى كانت زميلته فى السفر ، فى القطار الذى استقله من موسكو ، قبل سنوات ثلاث . وكانت هى السابقة إلى معرفته ، بينما احتاج هو إلى بضع لحظات ليتذكر المرأة التى ظلت تحملق فيه من الجانب الآخر من الطريق ــ وكأنهما على ضفتى قناة تفصل بينهما ــ وعلى محياها تعبير يوحى باستعداد لأن تحييه إذا هو عرفها ، أو لأن تظل نكرة بالنسبة إليه إذا هو لم يعرفها .

وتذكرها أخيرا ، فتدافعت إلى ذهنه ــ مع ذكراها ــ صورة سيارة النقل المكتظة ، والعمال المجندين وحراسهم ، والمرأة ذات الضفيرة المسدلة على كتفها ، ومنظر أسرته . . وتدفقت عليه أدق تفصيلات الرحلة ، وتألقت فى ذاكرته صور وجوه أولئك الذين كانوا أعزاء لديه ، والذين أصبح يفتقدهم فى حنين يائس . . وأومأ إلى « بيلاجيا » كى تمضى قدما فى الطريق ، إلى حيث كانت ثمة أحجار يمكن الخطو فوقها ، وسار فى الاتجاه ذاته ــ من ناحيته ــ ثم عبر الطريق وأقبل يحييها .

* * *

واطلعته على أشياء كثيرة صادفتها خلال العامين الأخيرين ، وذكرته بذلك الفتى المليح ، ذى الوجه البرىء ، « فاسيا » الذى جند للعمل ظلما وبدون حق ، والذى كان يشاطرها عربة القطار . . ووصفت له إقامتها مع أم الفتى فى قريتها (فريتنيكى) . . لقد كانت جد سعيدة بين الفتى وأمه ، ولكن القرية عاملتها كما لو كانت غريبة دخيلة ، ثم اتهمت زورا وبهتانا بأنها كانت على علاقة غرامية بفاسيا ، واضطرت ــ آخر الأمر ــ إلى أن تغادر القرية حتى لا ترجم إلى أن تموت . ولقد استقر بها المقام مع أختها المتزوجة « أولجا جالوسينا » ، فى بلدة (هوليكروس) . ثم استدرجتها إلى (باشينسك) شائعات بأن « بريتولييف » قد شوهد فى المناطق المجاورة ، ولكن الشائعات كانت زائفة ، فوجدت نفسها

مضطرة إلى البقـــاء فى البلـــدة الصغيرة ، حيث استطاعت — فيما بعد — ان تحصل على عمل .

وفى تلك الأثناء ، كان النحس قد استولى على أصدقائها . فلقد اجتيحت (فريتنيكى) جزاء إمساكها الامدادات الغذائية ، وقيل إن دار « فاسيا » قد أحرقت عن آخرها ، وإن أحد أفراد أسرته قـد هلك فى الحريق .. وفى (هوليكروس) سيق « فلاس جالوزين » زوج أخت « بيلاجيا » إلى السجن ، أو لعله رمى بالرصاص — فما استطاع أحد ان يعرف عن يقين — كما أن ابن اختها اختفى .. اما أختها ، فقد تضورت جوعا بعض الوقت ، ولكنها استطاعت اخيرا ان تعمل — لتكسب ما يقيم أودها — كخادم لدى أسرة من الفلاحين كانت من أقارب الشقيقتين !

وشاءت المصادفة أن تكون « بيلاجيا » غاسلة أوعية لدى الصيدلى الذى كان « يورى » على وشك الاستيلاء على ما لديه من أدوية . وكان هذا الاجراء يهدد بالخراب كل أولئك الذين كان الصيدلى يعولهم ، وبينهم بيلاجيا . ولكن « يورى » كان عاجزا عن أن يحـول دون ذلك . وقد حضرت بيلاجيا الحديث الذى دار بشأن الأدوية .

ووقفت مركبة « يورى » خلف الحانوت ، فنقلت إليها أكياس ، وصناديق ، وزجاجات معبأة فى سلال . وراح جواد الصيدلى — وكان هزيلا أجرب — يرقب من حظيرته هذا النقل فى أسى ، كما كان الناس يرقبونه . وكان اليوم المطير قد أخذ يقترب من نهايته ، فانجلت الغيوم قليلا عن وجه السماء ،

واطلت الشمس الآفلة وقد جفت بها السحب ، ونثرت على الساحة أشعة برونزية ، قاتمة ، صبغت برك الروث المذاب بطبقة ذهبية صدئة ، كئيبة .. ولم تكن الريح تقوى على تحريك هذه البرك ، فقد كان هذا السماد السائل أثقل من ان يهتز . ولكن ماء المطر الذى تخلف على وجه الطريق أخذ يرتعش وهو يشع ببريق زنجفرى .

وواصل الجنود سيرهم ، مشيا على الأقدام ، أو ركوبا حيث كانت البرك عميقة .. وظهر أن بين الامدادات الطبية التى استولوا عليها جرة مليئة بأكملها بالكوكايين الذى كان رئيس العصابة قد أصبح — فى الفترة الأخيرة — يدمن تعاطيه .

— ٣ —

ومع تفشى « التيفوس » فى الشتاء و « الديسنطاريا » فى الصيف ، فضلا عن تزايد عدد الجرحى بعد إذ تجدد القتال ، أصبح « يورى » مغرقا فى العمل حتى أذنيه .

وبالرغم من الصدمات ، ومن تكاثر الارتدادات ، فان صفوف العصابات ظلت فى تضخم مستمر ، بفضل تدفق الثوار من المحلات التى كان جيش الفلاحين يمر بها ، والعصاة الهاربين من صفوف الاعداء . ولقد ازدادت الوحدة التى كان « يورى » يرافقها — خلال الثمانية عشر شهرا التى قضاها معها — عشرة أمثال تعدادها الأصلى ، وبلغت فى تلك الأثناء تعداد القوة التى كان ليبريوس قد تباهى بها فى الاجتماع الذى عقد فى (هوليكروس) .

وحظى « يورى » بعدد من المرضين المدربين ، واثنين من المساعدين الأوائل ، الذين عينوا حديثا .. وكان الاخيران من أسرى الحرب السابقين : « كرينيى لاجوس » — وهو شيوعى مجرى ، كان ضابطا طبيا فى الجيش النمساوى — ورجل كرواتى يدعى « انجيلار » ، كان قد تلقى قسطا من الدراسة التى تعده لان يكون طبيبا .. وكان « يورى » يتكلم الألمانية مع « كرينيى لاجوس » . اما «انجيلار» ، فكان يفهم الروسية قليلا .

— ٤ —

كان من الواجب على الاعضاء الطبيين فى الجيش ان لا يشتركوا فى العمليات العسكرية العدوانية، بمقتضى « وفاق الصليب الأحمر الدولى » . ولكن «يورى» اضطر إلى أن يخرق هذه القاعدة فى مناسبة واحدة . فقد كان فى الميدان حين بدىء احد الالتحامات ، وكان عليه ان يشاطر المحاربين مصيرهم .

وكان خط القتال ، الذى حاصرته عنده نيران العدو ، على حافة غابة . فارتمى على الأرض منبطحا إلى جانب عامل التليفون التابع للوحدة . وكانت الغابة خلفهما ، وامامهما حقل .. وعبر هذا الفضاء الذى لم يكن من سبيل إلى الذود عنه ، كان البيض يشنون هجومهم .

واخذ البيض يقتربون ، حتى لقد تسنى ليورى أن يرى وجوههم .. كانوا فتية حديثى التطوع ، من سكان العواصم المدنيين ، وكبارا حشدوا من رجال القوات الاحتياطية . وكان

الذين يذكون المعركة هم الصغار ، من طلبة الصف الأول من الجامعات ، والصف النهائى من المدارس .

ولم يتسن ليورى أن يتعرف على أحد منهم ، ومع ذلك فقد لاح له أن كثيرين منهم مألوفون لديه . ولقد ذكره بعضهم بأصدقائه فى المدرسة ، فراح يسائل نفسه : اتراهم اخوة زملائه فى الدراسة ؟ .. وخيل إليه انه كان قد لمح بعضا آخر منهم فى المسارح أو فى الطرقات ، فى السنوات الخالية . ولقد استرعت وجوههم انتباهه .. كانوا يلوحون وكأنهم أهله ، من نوعه وشاكلته .

وكان شعورهم بالواجب — كما كانوا يفهمونه — يملأهم شجاعة متحمسة ، لا داعى لها ، بل هى مثيرة محرضة . وكانوا يتقدمون فى جماعة متناثرة ، وهم يبزون الحرس فى رشاقتهم فى الاستعراضات .. كانوا يسيرون منتصبين فى تحد ، لا يجرون ، ولا ينبطحون على الأرض ، برغم أن الأرض لم تكن من الانتظام بحيث تهيىء لهم وقاء ، فراح رصاص يحصدهم !

وكانت فى وسط الحقل العارى الواسع ، شجرة ميتة ، أصابتها صاعقة فأحرقتها ، أو لعل الشظايا هى التى أصابتها فى معارك سابقة . وكان كل واحد من المتطوعين الزاحفين ينظر إليها ، وهو يكافح الاغراء بأن يقف خلفها — ليحتمى بها ويحسن تسديد رمايته — ثم ينبذ الفكرة جانبا ، ويواصل السير .

وكانت لدى العصابات كمية محدودة من الطلقات ، كما كانت لديها اوامر — عززتها موافقة من القيادة الاقليمية — بأن

تتجنب الالتحام بقوات تفوقها ، وبأن لا يطلق أفرادها النار إلا عن كثب .. ولم تكن لدى « يورى » بندقية ، فظل مستلقيا على الأرض ، يراقب تطور الاشتباك ، وقد اتجهت كل عواطفه نحو أولئك الأبطال البواسل الذين كانوا يلتقون بالموت ، فتمنى لهم التوفيق بكل قلبه ، إذ كانوا ينتمون إلى أسرات ربما كانت قريبة إليه بروحها ، وتعليمها ، ونظامها وقيمتها ومقاييسها الخلقية .

وخطر له ان يجرى إلى الحقل وأن سلم نفسه إليهم ، فيفوز باطلاق سراحه . ولكن هذا كان أمرا بالغ الخطورة ، إذ كان من الممكن ان يرمى بالرصاص من الجانبين — وهو يجرى رافع الذراعين — فيصاب فى صدره وظهره من العصابات عقابا له على خيانته ، ومن البيض الذين قد يسيئون فهم دوافعه .. كان على دراية بمثل هذا الموقف ، فقد خاض غماره من قبل ، وقد درس كل الاحتمالات التى تترتب على خطط الفرار التى من هذا النوع ، ونبذها جميعا باعتبارها غير مجدية .

* * *

ومن ثم فقد اسلم نفسه لمشاعره الموزعة ، وهو منبطح على بطنه فوق الأرض ، متطلعا بوجهه نحو الخلاء ، مراقبا تطورات المعركة وهو اعزل . ولكن الاكتفاء بالتفرج — وهو معطل من النشاط ـ بينما كان هذا الصراع القاتل يدور حوله ، كان أمرا مستحيلا ، يفوق طاقة اى إنسان .. ولم تكن المسألة مسألة وفاء للجانب الذى كان يحتفظ به أسيرا ، ولا مسألة

ذود عن حياته ، وإنما كانت انصياعا لإملاء الأحداث ، وللقوانين التى راحت تهيمن على ما كان يجرى أمام عينيه .. وكان بقاؤه خارج المعمعة ضد هذه القوانين .. كان لزاما عليه ان يفعل ما كان كل امرىء يفعله .. كانت ثمة معركة دائرة الرحى ، وكان الرصاص يصوب إليه وإلى رفاقه ، فكان لزاما عليه أن يرد على الطلقات بمثلها !

لذلك فعندما اختلج عامل التليفون بجواره بحركة عنيفة ، ثم رقد جامد الحراك ، زحف يورى إليه ، وأخذ حزام ذخيرته وبندقيته ، وعاد إلى مكانه ، ثم افرغ البندقية طلقة إثر طلقة .. بيد انه كان يسدد رصاصاته نحو الشجرة المحترقة ، مختارا اللحظات التى لم يكن فيها أحد بين بصره وهدفه ، إذ حال الاشفاق بينه وبين إصابة الشبان ــ الذين كان معجبا بهم ، والذين كان يعطف عليهم ــ كما ان إطلاق الرصاص فى الهواء كان حماقة يتعذر تصورها !

واتبع فى ذلك اسلوبه الفنى القديم . فكان يعين هدفه ، ويحسن التسديد إليه ، وهو يضغط الزناد ببطء ، دون أن يهبط به إلى نهاية مجراه ، وكأنه لا يبغى ان يطلق الرصاصة فعلا .. ومن ثم فان الرصاصة كانت تنساب من تلقاء ذاتها فى النهاية ، وكأنها لم تكن متوقعة الانطلاق .. وبدقة الرماية ــ التى اعتادها فى الماضى ــ راح يصيب الفروع الدنيا من الشجرة الميتة ، فيبترها وينثرها حول الشجرة .

ولكن ، وا أسفاه ! .. فبالرغم من انه راح يحاول ــ فى عناية وحذر ــ ان يتجنب إصابة اى امرىء ، فان أحد الشبان

كان يخطو — بين آن وآخر — إلى مجال هدفه فى اللحظة الحرجة .. ولهذا فانه جرح اثنين منهم ، كما لاح أن الثالث — الذى سقط بالقرب من الشجرة — قد فارق الحياة !

واخيرا ، اقتنعت قيادة البيض بعدم جدوى الهجوم ، فأمرت بالتراجع .. وكان عدد جنود العصابات قليلا ، فان جزءا من قوتهم الرئيسية كان متغيبا فى زحف ، كما أن فريقا آخر كان مشتبكا مع فصيلة اكبر — من العدو — على مسافة من ذلك الموقع . ومن ثم فإنهم احجموا عن مطاردة البيض المنسحبين ، وإن يكشفوا عن ضعفهم .

ولحق المساعد « انجيلار » بيورى فى الخلاء ، مع اثنين من الممرضين يحملان محفات . وامره يورى بأن يعنى بالجرحى ، ثم انحنى هو على عامل التليفون ، وفى نفسه أمل مبهم بأنه قد يجد فيه نفسا يتردد ، فيستطيع إنقاذ حياته . ولكنه حين فتح قميصه وتحسس قلبه ، ألفاه قد كف عن الوجيب تماما . وكانت ثمة تعويذة معلقة إلى عنق الميت بخيط من حرير ، فخلعها يورى ، وإذا بها تحتوى على ورقة بليت وتفككت عند الخطوط التى طويت عليها ، وقد خيطت إلى قطعة من القماش .

وعلى الورقة التى تفككت تقريبا بين أصابع يورى — حين نشرها — كانت ثمة مقتطفات نقلت عن المزمور التاسع ، تتخللها تحريفات فى الكلمات كتلك التى كثيرا ما تتسلل إلى الأدعية الشائعة ، من جراء كثرة التكرار ، فتجعلها تنحرف باطراد عن أصلها .. وكانت الآيات تنقل عن اللغة السلافية بحروف روسية .

وكانت كلمات المزمور : « الساكن فى ستر العلى » قد تحولت إلى عنوان : « الساكن ستر » .. وتحولت الفقرة : « لا تخش من خوف الليل ولا من سهم يطير فى النهار » ، إلى تشجيع واستحثاث : « لا تخش سهما يطير فى القتال » ! .. وبدلا مما جاء فى المزمور : « ارفعه لأنه عرف اسمى » ، ورد فى الورقة : « لأنه أضمر اسمى » .. وتحولت عبارة : « معه أنا فى الضيق .. » ، إلى : « معه أنا فى الليل » !

وكان المعتقد أن لهذا المزمور فعل المعجزات فى الوقاية من الرصاص ، فكان الجنود يحملونه كتعويذة فى آخر حرب استعمارية وكان المسجونون — بعد ذلك بعشرات السنين — يخيطونه فى ثيابهم ، ويرددون كلماته فى السجن ، عندما كانوا يستدعون للتحقيق ، أثناء الليل .

* * *

وإذ ترك عامل التليفون ، سار « يورى » فى الحقل إلى الشاب الذى كان قد أرداه ، من رجال الحرس الأبيض . وكان وجه الفتى المليح يحمل أمارات البراءة ، ومظهر الألم المشوب بالصفح والغفران .

وفك يورى أزرار سترة الفتى وفتحها .. كانت يد حانية — لعلها يد أمه — قد عنيت بتطريز اسمه وقلبه على ثيابه الداخلية ، بحروف واضحة : « سريوجا رانتسيفيتش » . وبرز من صدر قميص « سريوجا » صليب متصل بسلسلة ، ورصيعة قلادة ، وعلبة صغيرة مسطحة من الذهب ، أشبه بعلبة السعوط ، وقد بدت معطوبة كما لو أن مسمارا دق فيها



وفك يورى أزرار سترة الفتى وفتحها .. كانت يد حانية ـ لعلها يد أمه ـ قد عنيت بتطريز اسـمه وقلبه على ثيـابه الداخليـة ..

.. وسقطت ورقة ، فتناولها يورى وفضها ، فلم يكد يصدق عينيه .. وكانت تحتوى على المزمور التاسع ذاته ، وقد طبع ــ فى هذه المرة ــ بكامل نصه السلافى الأصلى .

وفى تلك اللحظة ، تحرك « سريوجا » متأوها .. كان على قيد الحياة !

وظهر فيما بعد أنه إنما فقد وعيه فحسب ، نتيجة جرح داخلى طفيف . فقد أوقفت رصيعة أمـه نفاذ الرصاصـة ، فأنقذت حيـاته .. ولكن ، ما الذى كان على يورى أن يفعله ــ إذ ذاك ــ بهذا الرجل الفاقد الوعى؟ ! .. كانت تلك الأيام تتسم باتقاد الوحشية فى النفوس ، فلم يكن الأسرى يصلون إلى مراكز القيادة أحياء ، وكان الجرحى يذبحون بالسكين فى الميدان !

ونظرا لميوعه حجم قوة جنود العصابات ، بسبب السيل الكبير من الهاربين الذين كانوا يفرون إلى أو من العدو ، كان فى الوسع ادراج « رانتسيبيفيتش » كحليف انضم حديثا ، إذا روعيتالسرية التامة . ومن ثم فقد خلع يورى ثيـاب عامل التليفون الميت ، بمعونة انجيـلار ــ الذى كان يثق فيـه ــ واستبدل بها ثياب الفتى .. وراح مع انجيلار يعنيان بسريوجا حتى استرد صحته .. فلما تحسنت حاله ، اطلقا سراحه ، برغم انه لم يخف عنهما انه كان معتزمـا ان يعود إلى جيش كولشـاك وان يواصل محاربة الحمر .

— ٥ —

اتخذ جنود العصابات لأنفسهم معسكرا ــ فى الخريف ــ فى دغل الثعلب ، وهو تل منحدر كثيف الأشجار ، ذو جدول

مزبد ، سريع الجريان ، حول ثلاثة جوانب من التل ، ولا ينفك يفت من حواف مجراه .

وكان البيض قد قضوا فيه فصل الشتاء من العام السابق ، وقد حصنوا موقعهم هناك بمساعدة اهل القرى المجاورة . بيد أنهم تركوه — فى الربيع — دون أن يهدموا استحكاماتهم ، فاصبحت العصابات تستخدم مكامنهم وخنادق مواصلاتهم . ولقد اشترك « يورى » مع « ليبريوس ميكوليتسين » فى مكمن غائر فى الأرض، واستبقاه هذا ساهرا بثرثرته ليلتين متتابعتين . وفى الليلة الثالثة ، قال له : « ترى ماذا يفعل أبى الموقر ، بابا المحترم ، فى هذه اللحظة ؟ » .

فزفر يورى ، قائلا فى نفسه : « يا الهى ! .. لشد ما اكره هذا الرجل ! .. وانه لصورة حية من أبيه ! » .

— أرى من احاديثنا السابقة انه قد قدر لك أن تعرفه تمام المعرفة ، ويبدو انك قد كونت لنفسك فكرة غير طيبة عنه . فماذا لديك من قول فى هذا الصدد ، يا سيدى العزيز ؟

— إن لدينا الاجتماع السابق على الانتخابات غدا يا ليبريوس افرسيفيتش .. ثم إن امامى محاكمة المرضين الذين كانوا يقطرون الفودكا .. إذ لا يزال لزاما على أن اراجع — مع لاجوس — الأدلة .. ثم اننى لم انم منذ ليلتين ، فهلا يمكن ارجاء هذا الحديث ؟ .. اننى ميت لفرط التعب !

— ليكن ، فلن يعفيك هذا من ان تذكر لى رايك فى ابى المسن .

— لنبدأ بالقول إن اباك لا يزال صغير السن ، ولست ادرى لماذا تتكلم عنه هكذا . طيب ، لا بأس ، سأذكر لك ما تشاء . وانا — كما قلت لك مرارا — لا اعرف الكثير عن مختلف الوان الاشتراكية ، فلست استطيع ان ارى فارقا كبيرا بين البلاشفة والاشتراكيين .. وابوك من اولئك الذين تدين لهم روسيا باضطراباتها وقلاقلها الحالية .. انه طراز ثورى .. شخصية ثورية . انه مثلك ، يمثل مبدأ الفوران والتفاعل فى الحياة الروسية !

— هل المقصود بهذا مديح او لوم ؟

— مرة اخرى ، ارجوك ان ترجىء النقاش إلى وقت اكثر ملاءمة .. ثم أن من واجبى حقا ان انبهك إلى اسرافك فى استهلاك الكوكايين ، فلقد اخذت تستنفد متعمدا الكمية التى انا موكل بها . وانك لتعرف تمام المعرفة أن الحاجة تدعو إليها لاغراض اخرى ، فضلا عن انها سم ، وانا مسئول عن صحتك !

— لقد قطعت حبل الدراسة فى الليلة السالفة كذلك . إن لك ادراكا اشتراكيا ضامرا ، تماما كما لو كنت فلاحة امية ، او « بورجوازيا » راسخا فى « البورجوازية » . ومع ذلك فانت طبيب ، تجيد القراءة ، بل احسبك تجيد الكتابة والانشاء . فكيف تفسر هذا ؟

— لست افسره .. واراني غبيا كذلك ، ولا حيلة لى فى الأمر ، فجدير بك ان تأسف لحالى .

— لم هــذا التواضــع الزائف ؟ .. لو انك — بدلا من استخدام هذه اللهجة الساخرة — حفلت بمعرفة ما نفعله فى فصولنا الدراسية ، لما تغطرست بهذا الشكل !

— يا للســماء ! .. لســت متغطرســا يا ليبريوس افرسيبيفيتش . إننى اكن لجهدك التعليمى اقصى احترام ، ولقد رايت المذكرات التى تصدرها عن الدراسات ، واعرف آراءك فى تحسين المستوى الخلقى للجند .. وانها لآراء رائعة ! .. كل ما تقول عن مسلك الجندى نحو رفاقه ، نحو الضعيف ، نحو العاجز ، نحو النساء ، نحو الشرف والعفة .. انهــا تقريبا تعاليم « الدوخوبور » . كل ما على هذه الشــاكلة من تعاليم تولستوى اعرفه عن ظهــر قلب . لقــد كانت مرحلة مراهقتى مليئة بمثل هــذه الأمانى نحو حيــاة افضل ، فكيف استطيع ان اضحك من مثل هذه الأمور ؟

« ولكن فكرة الاصلاح الاجتماعى — كما اصبحت مفهومة منذ ثورة اكتوبر — لا تملأنى بالحماس . هذا اولا ، وثانيا هى ابعد من ان تطبق عمليا ، وقد ادى مجرد الحديث عنها إلى كل هــذا البحر من الدماء ، حتى اننى لم اعد اوقن مما إذا كانت الغاية تبرر الوسيلة . ثم — اخيرا ، وقبل كل شىء — اننى كلما سمعت الناس يتحدثون عن إعادة تشكيل الحياة ، افقد سيطرتى على نفسى ، واتردى فى القنوط .

« إعادة تشكيل الحياة ؟ ! .. إن الذين يقولون هذا لم يفقهوا يوما اى شىء عن الحياة .. لم يشعروا قط بأنفاسها ، بقلبهــا .. مهما يكن ما راوه او ما فعلوه ! .. انهم ينظرون

إليها كما لو كانت كتلة من مادة اولية تحتاج إلى صــنعة على أيديهم ، وإلى ان تكتسب سموا بلمساتهم ! .. ولكن الحياة لا يمكن ان تكون مادة يمكن صوغها وتشكيلها ابدا . وإذا شئت ان تعرف ، فالحياة هى مبدأ تجديد النفس ، انها تجدد ذاتها ، وتعيد صنعها ، وتتبدل ، وتتحول باستمرار دائب .. انهــا فوق نظرياتك ونظرياتى عنها ، بمراحل لا نهاية لها !

— ومع ذلك فأنت تعرف انك ما كنت لتشعر بنصف هذا القنوط المثبط لو انك جئت إلى اجتماعاتنا ، ولو انك ظللت على اتصال بقومنا الرائعين ، العظــام .. ما كنت لتعانى هــذا الاكتئاب .. هذه (الميلانخوليا) . اننى اعرف مبعثها ، فأنت ترانا منكسرين ، ولا تستطيع ان ترى قبس امل امامك . ولكن على المرء ان لا يذعر قط ، يا صديقى العزيز . إن بوسعى ان انبئك بأمور تفوق هذه الحال ســواء .. امــور تتعلق بى شخصيا ، وينبغى الا تذاع على الملأ فى الوقت الراهن .. ومع ذلك فاننى لا افقد راسى . ان ارتداداتنا ليست سوى مؤقتة ، إذ ان من المقدر على كولشــاك ان يخسر فى النهــاية . تذكر كلماتى هذه ، وسوف ترى .. لسوف نكسب على مر الزمن ، فابتهج !

وقال يورى فى نفســه : « انه لامر يعجز القــول عن وصــفه . كيف يتســنى لأى امرىء ان يكون بهــذا العقل الصفيق ، الصبيانى ! .. اننى انفق وقتى أردد على مسمعيه ان افكارنا اشبه بقطرين متعارضين .. لقد اسرنى بالقوة ، ولا يزال يستبقينى على غير إرادة منى ، ومع ذلك فهو لا يزال يتصور ان تقهقراته تثير الجزع فى نفسى ، وان آماله تشرح

صدرى ! .. كيف يتسنى لامرىء ان يكون اعمى بهذا الشكل ؟ ! .. إن مصير الكون معلق – فى رأيه – على انتصار ثورة اكتوبر ! » .

على ان « يورى » لم يقل شيئا ، بل اكتفى بأن هز كتفيه ، فاذا هذا يوضح بجلاء ان سذاجة ليبريوس قد ارهقته حتى انه اصبح يملك زمام نفسه بعناء ازاءها . ولم يفت هذا ليبريوس من ناحيته ، فقال : « انك غاضب ياجوبيتر ، وهذا يعنى انك ولا بد مخطىء ! » .

– افهم بالله ، ولو لمرة واحدة ، ان لا شىء من هذا يعنينى : « جوبيتر » و « لا يذعر قط » و « كل من يقول لا بد انه يعنى (ب) » و « لقد أدى المراكشى مهمته ، فلينصرف المراكشى » .. إن شيئا من هذه المصطلحات المأثورة ، (الكليشيهات) ، التعبيرات الشائعة المبتذلة ، لايستهوينى . لسوف اقول ، فلا أعنى (ب) .. مهما تفعل ! .. سأقر بأنكم محرور روسيا ، ونجومها الساطعة ، وأنها كانت بدونكم تسير إلى ضياع وتغرق فى التعاسة والجهل ، ولكنى لا أزال – برغم ذلك – لا اقيم اتفه وزن لأى واحد منكم . اننى لا احبكم، ولكم جميعا ان تذهبوا إلىالشيطان ! .. إن أولئكالذين يفكرون لكم يعمدون إلى الأمثال والأقوال المأثورة ، ولكنهم ينسون حكمة واحدة : « بوسعك ان تسوق جوادا إلى الماء ، ولكنك لا تملك ان تجعله يشرب » ، وهم قد اعتادوا ان يحرروا ، وأن يغدقوا المنافع ، على من لم يسألوهم ذلك من الناس .. احسبك تتصور اننى لا استطيع ان أرى فى الدنيا شيئا أكثر بهجة من

من معسكرك وصحبتك ، واحسب انه لزام على ان اباركك لانك تستبقينى اسيرا ، وان اشكرك لانك « حررتنى » من زوجتى ، وابنى ، وبيتى ، وعملى ، ومن كل ما اعتز به ، وكل ما يجعل الحياة – فى نظرى – جديرة بان احياها ! .. هناك شائعة استطارت بأن قوة غير معروفة – وليست قوة روسية – قد أغارت على (غاريكينو) ونهبتها .. إن « كامينودفورسكى » لا ينكرها .. انهم يقولون إن قومك وقومى قد استطاعوا الفرار . والظاهر ان نوعا من المحاربين الخفيين ، ذوى العيون المنحرفة المائلة ، فى معاطف من اللباد ، وقبعات من الفراء ، قد عبروا نهر (رينفا) فى عاصفة فظيعة من الصقيع ، ثم أعدموا كل امرىء فى المكان بالرصاص – فى هدوء – واختفوا كما أقبلوا فى غموض . فهل تعرف شيئا عن هذا ؟ .. أصحيح هذا ؟ » .

– هراء . محض أكاذيب . شائعات زائفة .

– إذا كنت على ما تزعم – حين تلقى محاضراتك عن التحسين الخلقى للجنود – من رحمة وكرم ، فدعنى ارحل .. سانطلق بحثا عن اسرتى .. فلست ادرى اين افرادها ، بل اننى لا ادرى ما إذا كانوا احياء أو أمواتا . فاذا لم تفعل ، فاصمت بالله ، ودعنى وشأنى ، لأننى لا احفل بشىء آخر ، ولن اكون مسئولا عما يصدر منى إذا أنت مضيت فى حديثك . وعلى اية حال ، افليس لى حق فى ان انام ، بحق الجحيم ؟ !

ورقد يورى على سريره منبطحا ، ووجهه فى الوسادة ، باذلا قصارى جهده فى ان لا يسمع ليبريوس وهو يبرر

مسلكه ، ويسرى عنه بما يرتجى من نصر نهائى على البيض قبل أن يحل الربيع .. فتنتهى الحرب الأهلية ، ويحل السلام، والحرية ، والرخاء ، ولا يجسر أحد أن يستبقى « يورى » لحظة واحدة بعد ذلك . ولكن عليه أن يصبر إلى ذلك الحين ، لا سيما وأنهم قد بذلوا كل التضحيات ، وتحملوا كل انتظار ، فلم يكن بالكثير أن يترقبوا بضعة أشهر أخرى . وعلى أية حال ، فالى أين كان بوسعه أن يذهب إذ ذاك ؟ .. كان من الواجب منعه من الذهاب وحيدا إلى أى مكان ، لمصلحته .

وراح يورى يقول فى نفسه ، مغيظا محنقا : « فلينفلق ! .. انه كاسطوانة الحاكى ! لا يستطيع أن يكف . لماذا لا يخجل من أن يظل يتشدق بنفس الحديث كل هذه السنوات ؟ .. كيف يقدر على أن يمضى فى استماع جرس صوته ، هذا الشيطان التافه التعس ؟ ! .. انه يظل كذلك ليل نهار . يا لله ، لكم أمقته ! يشهد الله أننى سأقتله يوما ما ! .. اين انت يا تونيا ؟ .. يا حبيبتى ، يا صغيرتى المسكينة ! أأنت على قيد الحياة ؟ .. يا ربى العزيز ، لقد كانت توشك أن تضع وليدها بعد قليل ، فكيف استطاعت أن تمضى خلال المخاض ؟ .. وهل رزقنا ولدا أو بنتا ؟ يا احبائى ، ما الذى يجرى لكم جميعا ؟ .. يا تونيا ، انك مصدر تقريع ضميرى دوما ! .. يا لارا ، اننى لا اجرؤ على ان انطق باسمك خشية ان الفظ معه حياتى ! .. اواه يا إلهى ! اواه يا إلهى ! .. ومع ذلك ، فلا يزال هذا الوحش المقيت ، عديم الشعور ، يتكلم ! .. لسوف يتمادى ذات يوم فأقتله .. سأقتله ! » .

- ٦ -

وانقضى الصيف الشديد الحر ، وجاء يوم صاف ، ذهبى ، من أيام الخريف . وعند الطرف الغربى من غابة الثعلب ، كان ثمة برج خشبى لمنزل بناه البيض ، لا يزال قائما فوق الأرض . وهناك، كان يورى قد تواعد مع مساعده المجرى « لاجوس » على اللقاء ليبحثا مختلف مسائل القسم الطبى . وقد وصل فى الموعد ، فراح ينتظر صديقه ، متمشيا على طول حافة المتاريس المنهارة ، ثم صعد إلى برج المراقبة ، واطل من الشقوق التى كانت امام الأوكار — التى خلت من مدافعها الرشاشة — على الأرض المكسوة بالغابة ، والمترامية خلف النهر .

وكان الخريف قد أقام حدا واضحا بين اشجار الشربين ، واشجار الصنوبر ، والأشجار الحولية . وبين الجدران القاتمة — ذات الاشواك المنتصبة — من اشجار الصنوبر التى قارب لونها أن يكون أسود ، كانت الأشجار القصيرة ، الكثيفة ، المورقة ، تشع بلون كاللهب والنبيذ .. فكأنها بلدة صغيرة من مدن القرون الوسطى ، وقد بدت سقوف قصورها المطلية ، الموشاة باللون الذهبى ، والتى بنيت من الخشب المقتطع من قلب الغابة .

وكانت الأرض تحت قدمى يورى ، وفى داخل الخندق ، وفى الأخاديد التى كانت تتخلل طريق الغابة ، متيبسة ، مكسوة بالصقيع الأرضى ، وقد تراكمت عليها اكوام صغيرة ، متماسكة ، من أوراق الصفصاف الجافة ، كأنها اكوام من

فضلات المسحاة .. وخالط هواء الخريف عبير هذه الأوراق البنية النفاذة الأريج ، وروائح كثير من البقول الحريفة . فأخذ يورى يعب فى نهم ذلك العبير الفلفلى المتصاعد من التفاح الذى اعطبه الصقيع ، والفروع الجافة ذات الرائحة الفجة ، والتربة النضاحة بالرطوبة ، وضباب سبتمبر الأزرق المتصاعد كدخان نار حديثة الانطفاء .

ولم يسمع وقع قدمى لاجوس حين اقبل من خلفه .. وقال بالألمانية : « كيف انت ايها الزميل ؟ » . ثم شرعا يتحدثان فى اعمالهما .

— هناك ثلاث نقاط . أولا : المحاكمة العسكرية للممرضين الذين كانوا يقطرون « الفودكا » .. ثانيا : اعادة تنظيم نقل الجرحى من الميدان ، والمخازن الطبية .. ثالثا : اقتراحى بشأن معالجة الأمراض العقلية فى الميدان . ولست ادرى ما إذا كنت توافقنى يا عزيزى لاجوس ، ولكننا — على ضوء ما الحظه — نوشك ان نجن ، وان انواع جنوننا الحديثة لمعدية !

— إنها مسألة جد طريفة ، وسأعود إليها بعد لحظة . ولكنى اود ان اذكر قبل ذلك امرا آخر : هناك تذمر فى المعسكر ، وعطف على مقطرى الفودكا . ثم إن الرجال فى هم وقلق من اجل اسراتهم التى تهرب من البيض . وهناك قافلة مقبلة — كما تعلم — تضم زوجات واطفالا ، وشيوخا ، وقد رفض بعض جنود العصابة ان يبرحوا المعسكر إلى ان تصل هذه القافلة .

— اعلم هذا .. وسنضطر إلى انتظارها .

— وكل هذا يجرى ونحن مقبلون على انتخاب قيادة مشتركة لوحدتنا ولعدة وحدات اخرى مستقلة عنا كل الاستقلال . وإخال ان المرشح المحتمل الوحيد هو الرفيق ليبريوس . ولكن بعض الشباب يدفعون « فدوفيتشينكو » إلى الأمام ، وهو مؤيد بفريق غريب عنا فى روحه ، وينتمى إلى طبقة مقطرى الفودكا .. فريق من أبناء البدالين واصحاب الأراضى ، ومن الهاربين من كولشاك هؤلاء هم يحدثون اكبر قسط من الضجيج .

— وما الذى تظن انه سيحدث عند المحاكمة ؟

— اظن انه سيقضى عليهما بالاعدام ، ولكن التنفيذ سيوقف .

— حسن ! لنتحدث فى العمل . اولا : نقل الجرحى من الميدان .

— لا بأس ، ولكن لابد لى من ان انبئك باننى غير مندهش لاقتراحك الخالص بالعلاج الوقائى للأمراض العقلية، فأنا — شخصيا — اومن به . ونحن امام ظهور وتفشى نوع من المرض العقلى مرتبط بوقتنا الحاضر ، وينجم مباشرة عن الظروف التاريخية . ولدينا فى المعسكر حالة منه : « بامفيل باليخ » ، وهو جندى سابق فى جيش القيصر ، ذو وعى ثورى عال ، وإدراك طبقى متغلغل فى نفسه وسر محنته هو قلقه بشأن اسرته إذا ما قدر له ان يقتل ، وخوفه من أن تقع فى ايدى البيض ، وان تلقى عليه تبعة اعماله . إنها حالة عقلية معقدة . واعتقد أن اسرته من تلك الأسرات الوافدة فى القافلة . ولست اعرف من اللغة الروسية

ما يمكننى من سؤاله كما ينبغى ، ففى وسعك ان تتبين امره من انجيلار او كامينودفورسكى . . انه جدير بالفحص .

اننى أعرف « باليخ » معرفة جيدة جدا ، فكثيرا ما كنا نتعارض فى اجتماعات مجلس الجيش ، فى فترة من الفترات . . انه أسمر ، قاس ، ذو جبين ضيق . . ولست ارى ما تراه فيه من خير . لقد كان يجنح دائما إلى الاجراءات المتطرفة : الرمى بالرصاص ، والعقاب . وقد اعتدت ان اجده دائما مثيرا للنفور والاستنكار . ومع ذلك ، فسوف أعنى بحالته !

— ٧ —

كان اليوم صحوا ، مشمسا ، وقد ظل الجو راكدا ، جافا ، اسبوعا باكمله .

وكان طنين الضجيج العادى يسرى فى جو المعسكر الكبير ، اشبه بهدير البحر البعيد . . كان ثمة وقع أقدام ، واصوات ، وارتطام الفؤوس بالأخشاب إذ تشقها ، ورنين سندان ، ونباح كلاب ، وصهيل جياد ، وصياح ديكة . وكانت تحوم فى الغابة جماعات من رجال سمر الوجوه ، بيض الأسنان ، باسمى الثغور . فكان الذين يعرفون الطبيب منهم يومئون له بالتحية ، بينما كان سواهم يمرون به غير محيين .

وكان الرجال قد رفضوا ان يغضوا المعسكر حتى تلحق بهم أسراتهم ، التى كانت هاربة من ديارهم . اما وقد أصبح هؤلاء الهاربون وشيكى الوصول ، فقد اتخذت الاجراءات

تأهبا للرحيل ، فاذا الأشياء تنظف وتصلح ، وإذا الصناديق تغلق بالمسامير ، وعربات النقل تحصى وتفحص .

وكانت فى وسط الغابة بقعة كثيرة من الأرض الفضاء ، كثيرا ما عقدت فيها الاجتماعات . . كانت أشبه بكثيب او بربوة سحقت حشائشها تحت الأقدام . وقد دعى الجميع — فى ذلك اليوم — إلى اجتماع عام ، لاعلان امر ذى اهمية .

ولم تكن كثير من أشجار الغابة قد ذبلت بعد واصفرت ، نظلت — فى اجوافها — ناضرة ، مخضوضرة . . وكانت الشمس وهى تنحدر خلف الغابة فى الأصيل ترسل اشعتها خلالها ، فاذا الأوراق الشفافة تشع بلهب اخضر .

واخذ كامينودفورسكى ، كبير ضباط الاتصال ، يحرق — فى بقعة من الفضاء أمام خيمته — اوراقا ، ومهملات أقصاها عن سجلات الجنرال كابيل التى وقعت بين يديه ، وعن اضابيره الخاصة بجنود العصابات . وكانت النار شفافة كورق الشجر ، ازاء الشمس الغاربة فلم يكن اللهب مرئيا ، بل كانت موجات الوهج والحرارة هى وحدها التى تشى بأن ثمة شيئا يحرق .

وهنا وهناك ، كانت الغابة تتألق بثمار التوت البرى الناضجة : باهداب نبات « قميص الست » ، وبثمار توت الحورة التى فى حمرة الطوب ، وعناقيد نبات « الفبرنوم » الذى تحول لونه من الأبيض إلى القرمزى . . وذبابات « السرمان » تحدث طنينا خفيفا بأجنحتها الشبيهة بالزجاج — والتى كانت فى شفافية اللهب وأوراق الشجر — وهى تمخر ببطء عباب الهواء .

ولقد كان « يورى » مشغوفا — منذ طفولته — بمشاهد الغابات كما تبدو تحت الشمس الجانحة إلى الغروب . وكان يشعر فى مثل تلك اللحظات كما لو أن نصال الضوء كانت تنفذ خلاله هو الآخر .. وكانما كانت نعمة الروح الحية تسرى فى صدره ، وتخترم كيانه ، ثم تخرج من كتفيه كزوج من الأجنحة ! .. وإذا بالصورة المثالية للحياة ، التى تتكون فى كل طفل ، وتظل دوما — بعد ذلك — تبدو كتمثال لشخصيته يكمن فى أعماق نفسه .. إذا بهذا التمثال يهب فى اكمل قواه الجوهرية ، فيضطر الطبيعة — الغابة ، والشفق ، وكل شىء آخر يتجلى للعين — إلى أن تستحيل إلى صورة اصلية ، كاملة ، شاملة لفتاة .. لـ « لارا » ! .. وراح يورى — وهو مغمض العينين — يهمس ، ويفكر ، مخاطبا بهمساته وافكاره الحياة بأسرها ، وارض الله كلها ، وكافة المساحة التى كان ضوء الشمس يقع عليها أمامه !

بيد أن واقعية الحياة اليومية المألوفة ، كانت ما تزال قائمة : كانت روسيا ماضية فى ثورة اكتوبر ، وكان يورى اسيرا لدى جيش العصابات !

* * *

وسار — وهو شارد الذهن — إلى النار التى اشعلتها كامينودفورسكى ، وقال : « اتحرق سجلاتك ؟ .. الم تفرغ بعد ؟ » .

— إن لدى من هذه الأوراق ما يستغرق حرقه اياما .

وحرك يورى كومة من الأوراق بحذائه ، فاذا بها مراسلات اركان حرب قيادة البيض . وخطر له انه قد يقع فيها على ذكر « رانتسيبيفيتش » ، ولكن كل ما وقع عليه بصره كان مملا .. مراسلات بالشفرة عفى عليها الزمن . وركل كومة اخرى ، فاذا بها مجموعة من مذكرات اجتماعات العصابات ، لا تقل عنها إملالا واضجارا .

واخرج كامينودفورسكى ورقة من جيبه اسلمها إلى يورى ، قائلا : « هاك اوامر السير الخاصة بوحدتك الطبية . إن قافلة اسرات رجال العصابات جد قريبة من هنا ، ولن يأتى مساء اليوم حتى تسوى خلافاتنا داخل المعسكر . ومن ثم فلنا ان نتوقع مغادرة المكان فى اى يوم » . والقى يورى نظرة على الأوامر ، ثم قال فى شكوى : « ولكنكم تعطوننى وسائل للنقل اقل من تلك التى أعطيتمونيها فى المرة السالفة ، برغم كل هذه الزيادة فى الجرحى . ولسوف يضطر القادرون إلى المشى ، ولكن هؤلاء قلة . ثم ، ماذا ترانى فاعلا بالمرضى الذين لابد من نقلهم على محفات ؟ .. ومختزناتنا من الأدوية ، والأسرة والمعدات ؟ » .

— وسيكون لزاما عليك ان تدبر الأمر بطريقة ما . ان تبسط ساقيك على قدر لحافك . والآن أمر آخر . انه رجاء منا جميعا . هل لك ان تفحص واحدا من رفاقنا ؟ .. انه مجرب ، ومخلص للقضية ، وجندى بديع . ولكن ثمة ضرا أصابه .

— اهو باليخ ؟ .. لقد حدثنى لاجوس عنه ..

— أجل .. اذهب لتراه . افحصه !

— أهو مصاب بمرض عقلى ؟

— أظن ذلك ، فهو يقول إن لديه « الدبيب » .. أوهام وتخيلات تهوسية ، كما هو واضح .. ارق .. اوجاع فى الراس .

— لا بأس . وقد يحسن ان اذهب الآن فأراه ، ما دمت خلوا من العمل فى هذه الفترة . متى يبدأ الاجتماع ؟

— أظنهم قادمين الآن . ولكن ، فيم يهمك هذا ؟ .. انا الآخر لست ذاهبا ، كما ترى . وفى وسعهم ان يعقدوا اجتماعهم بدوننا .

— سأذهب إذن لأرى بامفيل ، وإن كنت لا اكاد اقوى على أن أفتح عينى ، فان النعاس يثقلهما .. إن ليبريوس افرسييفيتش يحب أن يتفلسف فى الليل ، وقد انهك قواى بكلامه . أين أجد بامفيل ؟

— اتعرف دغل شجر التامول ، القائم خلف حفرة الفضلات ؟

— اجل ، اظننى اعرفه .

— ستجد بعض خيام الضباط فى الفضاء ، وقد وضعنا إحداها تحت أمر بامفيل ، فان اسرته قادمة ، إذ انها مع القافلة .. وهناك ستجده .. فى إحدى الخيام .. لقد منح مكانة قائد فصيلة .. جزاء كفاءته الثورية !

— ٨ —

واستبد التعب بيورى ، وهو فى طريقه ليرى بامفيل ، نتيجة الأثر المتراكم من جراء ليال عديدة من السهاد والأرق . وكان بوسعه أن يعود إلى مضجعه وان ينام ، ولكنه كان يخشى المكث هناك ، فلربما جاءه ليبريوس فى اية لحظة فاقض راحته . ووقف فى درب متوار ، تناثرت فيه أوراق الأشجار المجاورة ، وقد اتخذت شكل رقعة الشطرنج ، وكذلك كانت الأشعة المنخفضة — المنبعثة من الشمس الآفلة — وهى تستلقى على هذا البساط الذهبى .. ومن شأن هذا البريق المزدوج ، المتقاطع ، أن يدير راسك ، وان يسلمك إلى النعاس ، كما تفعل بك الحروف الصغيرة ، فى اى مطبوع تقراه .. او اى امر متوافر فى استرسال رتيب .

واستلقى يورى على الأوراق الحريرية ، ذات الحفيف ، واسند راسه إلى ذراعه ، واسند ذراعه إلى وسادة من الأعشاب الفطرية النامية اسفل إحدى الأشجار ، فغشيه النعاس فى الحال . واصبح البريق الذى بهر بصره ، والذى اسلمه إلى النعاس ، يكسوه بشبكة من الضوء والظل المتعاقبين ، بحيث لم يعد من الممكن تمييز جسده — المستلقى على الأرض — من ضوء الشمس ومن أوراق الشجر ، فلم يعد يبدو واضحا للعين ، وكأنه ارتدى طاقية سحرية !

على أن قوة رغبته فى النوم ، وشدة حاجته إليه ، لم تلبثا ان ايقظتاه بعد فترة جد قصيرة . فان الأسباب المباشرة لا تكون فعالة إلا فى الحدود التى خلقت لها ، فاذا جاوزتها

انتجت اثرا عكسيا . وإذا لم يجد وعيه اليقظ اى راحة ، اخذ يدور محموما فى فـــراغ .. وراحت الأفكـــار تدور وتلف فى راسه ، ومضى عقله يدق فى اضطراب ، كمحرك اصيب بخلل . وازعجه هذا الاضطراب الداخلى وارهقه . وقال فى نفســـه ساخطا : « يا لهذا الخنزير القذر ليبريوس ! .. كانما الدنيا لا تضم ما يكفى لان يسوق إلى الجنون ، فهو يرى من واجبه ان ياخذ رجلا سليم العقل ، ويحوله معتمدا إلى مريض مختـــل العقل ، بأن يستبقيه اسيرا ، ويضجره بصداقته وثرثرته . لسوف اقتله فى يوم من الأيام ! » .

وراحت تطير فى الجانب المشمس من الفضاء فراشـــة مرقشـــة باللـــون البنى ، فكانها قصاصـــة ملونة تنطـــوى وتنبسط . ومضى يورى يتأملهـــا بطـــرف ناعس . واختارت الفراشة مكانا ذا لون يقارب لونها ، فاستقرت على لحـــاء شجرة صنوبر مرقش باللون البنى ، وتوارت فيه ، فاختفت من جراء خداع الضوء والظل ، كما اختفى « يورى » !

وعاد عقله إلى جولته المعتادة بين الأفكار التى كان قد ذكرها — بطريقة غير مباشرة — فى كثيرمن مؤلفاته الطبية .. افكار عن الإرادة والفرض كاسمى اشكال التكيف والتجانس .. والتقليد والمحاكاة والتلون الوقائى .. وبقاء الأصلح ، ومـــا إذا كان الانتخاب الطبيعى هو سبيل التطور ومولـــد الوعى فعلا .. ثم مـــاذا كان « الموضـــوع » ؟ .. ومـــاذا كانت « المـــادة » ؟ .. وكيف كان من الممكن تحـــديد كنههما ؟ .. وافضت به خواطـــره من « داروين » إلى « شيلينج » ، ومن

الفراشة إلى الرسم الحديث بالزيت ، وإلى الفن التاثيرى . وفكر فى الخلق، والخليقة ، والقدرة الخلاقة ، والحيلة والمكر !

* * *

ومرة اخرى ، استسلم للنوم ، ولكنه صحا بعد لحظة ، إذ اقض نومه حديث مكتوم . وكانت الـــكلمات القلائل التى سمعها كافية لان تنبئه بأن الحديث كان يتعلق بسر ما ، وبخطة غير مشروعة . ولم يكن المتآمرون قد رأوه ، فلم يساورهم اى هاجس بوجوده . وكان من المحتمـــل أن تكبـــده أتفه حركة حياته ، فجمد « يورى » فى مكانه ، وارهف السمع !

وتعرف على بعض الأصوات .. كانت اصوات حثالة جنود العصابات .. بعض الامعات من أمثال « جوشـــكا » ، و « ســـانكا » ، و « كوســـكا » ، وتابعهم المعتـــاد « تيرنتى جالوزين » .. شبان لم يكونوا صالحين لأى شىء ، وكانوا فى قراراة كل نوع من الهياج والشغب . كذلك كان « زاخـــار » بينهم ، وهو شخص يفوقهم خطرا ، كان له صـــلة بقضـــية « الفودكا » ، ولكنـــه لم يقدم للمحاكمـــة مؤقتـــا ، لانه وشى بالمذنبين الرئيسيين . وكان أشد ما ادهش يورى هو وجود « سيفوبلوى » الذى كان من افـــراد « الوحـــدة الفضية » المنحلة ، والذى كان من الحرس الخاص للقائد . وجريا على تقليد يرجع إلى « سينكا راسين » و « بوجاتشيف » ، كان هذا المقرب من الرئيس ، المعروف بأنه موضـــع ثقته ، يلقب بـــ « اذن القائد » .. وكان من الواضح انه — هو الآخر — كان من المشتركين فى المؤامرة !

وكان المتآمرون يتفاوضون مع مندوبين موفدين من المراكز الأمامية للعدو . ولم يكن من الميسور التعرف على المندوبين ، إذ كانوا يتحدثون إلى الخونة بأصوات جد خافتة ، فلم يكن يورى يسمع حديثهم ، بل كان يحدس انهم يتكلمون ، عندما كانت فترات من الصمت تقطع التهامس .

وكان « زاخار » السكير هو الذى تولى معظم الحديث ، وهو يطلق السباب بين كل لحظة واخرى ، بصوته الذى كان ينبعث فى فحيح أجش . وبدا انه كان زعيم العصبة ، وقد راح يقول : « والآن ، انصتوا انتم الآخرون ! .. إن الأمر الرئيسى هو أن علينا أن نتكتم. فاذا تكلم امرؤ .. اترون هذه السكين؟ .. لسوف اشق بها احشاءه ! أواضح هذا ؟ .. إن علينا ان نظفر بالعفو عنا . وعلينا ان ندبر حيلة لم يشهد احد مثلها من قبل .. انهم يريدون أن يأخذوه حيا . ثم إنهم يقولون إن رئيسهم « جوليفوى » قادم إلى هنا » .. فتداركوه مصححين: « جاليولين » ، ولكنه لم يلتقط الاسم ، فقال : « الجنرال جالييف » ، واستطرد فى حديثه : « هذه هى فرصتنا ، ولن تتاح لنا فرصة أخرى مثلها . وها هو ذا وفدهم ، وسيذكر لكم افراده كل شىء عن الأمر .. إنهم يقولون إن علينا ان نأسره حيا . والآن ، انبئوهم ايها الآخرون بما لديكم ! » .

واخذ المندبون يتكلمون ، فلم يستطع يورى ان يلتقط كلمة واحدة ، ولكنه حدس — لطول فترة السكوت — انهم كانوا يشرحون الخطة المقترحة بالتفصيل . وما لبث زاخار ان عاد يقول : « هل سمعتم هذا ، ايها الزملاء ؟ ..

انكم لترون مدى براعته ! .. إنه لا يكاد يبلغ مبلغ الإنسان .. لقد أوتى نصف ذكاء .. انه راهب أو ناسك . كف عن الابتسام يا ترينتى . لسوف أتيح لك ما يجعلك تبتسم ، ايها الرخو ! .. اننى لم اكن اتكلم عنه . إنما كنت أقول انه .. ناسك . هكذا هو . فدعوه يسلك طريقه ، ولن يلبث ان يحولكم جميعا إلى رهبان .. لسوف يعمل على ان يخصيكم ! ما الذى يدعوكم إليه ؟ .. لا سباب ، ولا إفراط فى الشراب ، وكل تلك الأمور التى يدعوكم إليها بشأن النساء . فكيف تستطيعون ان تعيشوا على هذا النسق ؟ لسوف نستدرجه الليلة إلى المخاضة ، وسأعمل على ذلك . ثم ننقض عليه جميعا . لن تكون ثمة مشقة .. ولا خطر فى ذلك . أصعب ما فى الأمر هو أنهم يريدونه حيا . إنهم يقولون : «أوثقوه !» . لا بأس ، سنرى .. وإذا لم تفلح هذه الخطة ، فسأنبرى له بنفسى ، وسأجهز عليه بيدى . ولسوف يرسلون رجالهم ليساعدونا ! » .

ومضى يشرح الخطة ، ولكنهم اخذوا ينصرفون تباعا ، فكف يورى عن الإصغاء إليهم . وقال فى نفسه باشمئزاز واستنكار : « انه ليبريوس الخنزير الذى يتآمرون على تسليمه للبيض ، أو قتله ! » . ونسى تماما كيف انه كثيرا ما تمنى لمعذبه الموت ، وراح يفكر : كيف يتسنى تفادى ذلك ؟ .. وقرر ان يعود إلى كامينودفورسكى فيخبره بالمؤامرة ، دون أن يذكر اية اسماء . .وان يحذر ليبريوس كذلك .

ولكن كامينودفورسكى لم يكن قائما على حرق الأوراق ، حين عاد يورى ، وإنما كان مساعده يراقب النار المتأججة ، ليحول دون امتدادها إلى ما حولها .

ولم يقدر للجريمة أن تقع ، فقد احبطت قبل ان تبدأ . فلقد عرف أمر المؤامرة ، كما ظهر فيما بعد ، وكشف سرها فى ذلك اليوم ذاته ، والقى القبض على المتآمرين . إذ كان سيفوبلوى قد لعب دوره كجاسوس محرض ، مما جعل يورى يزداد اشمئزازا !

— ٩ —

اصبح من المعروف أن اسرات جنود العصابات باتوا على مسيرة يوم من المعسكر ، فراح الجنود يتأهبون للقائها ، ثم للرحيل عقب ذلك مباشرة .. وذهب يورى ليرى « بامفيل باليخ » ، فوجده عند مدخل خيمته ، وفى يده فأس ، وأمامه كومة عالية من شجيرات التامول الصغيرة ، كان قد اجتثها ولكنه لم يبدأ بعد فى شقها . وكانت بعض الشجيرات قد هوت حيث كانت قائمة من قبل ، فارتطمت بكل ثقلها بالأرض الرطبة ، فانغرست شظاياها الحادة فى التربة إلى مسافات عميقة .. بينما كان « بامفيل » قد جر الشجيرات الأخرى من مسافات قصيرة ، ووضعها فوق تلك .. وكانت الفروع التى نمت فى الربيع تهتز وتتأرجح ، إذا أن الشجيرات لم تمتد ملاصقة سطح الأرض ، ولا ملاصقة بعضها بعضا ، فبدت وكأنها كانت تبسط أذرعتها لتصد بامفيل الذى اجتثها ، ولتسد

عليه الطريق إلى خيمته ، بأغصانها الكثيفة ، المتشابكة ، ذات الأوراق الخضراء .

وبادره بافيل قائلا : « انها لضيوفى الأعزاء .. زوجتى واطفالى . إن الخيمة جد منخفضة ، والمطر ينساب إلى داخلها ، وقد قطعت هذه الأشجار لأشقها كتلا لصنع سقف» .

— لست أقر ان يسمحوا لك بأن تؤوى أسرتك فى خيمتك يا بامفيل . فمنذ الذى سمع بمدنيين — نساء واطفال — يباح لهم أن يقيموا فى مسعكر ؟ .. لسوف يمكثون فى العربات ، فى بقعة ما خارج المعسكر ، وسيتاح لك أن تراهم كيفما تشاء ، فى وقت فراغك . ولكنى لا أحسب أن سيكون من المسموح لهم به أن يقيموا فى خيمتك ! .. ولكننى لم آت من أجل هذا . وإنما قيل لى إنك تزداد هزالا ، وإنك لا تستطيع الأكل ولا النوم ، فهل هذا صحيح ؟ .. على اننى أراك تبدو بخير . وإن كان من الخير لك أن تقص شعرك !

وكان بامفيل رجلا ضخما ، ذا شعر أسود متهدل ، ولحية ، وجبهة بارزة ، يتخللها أخدود غائر ، فان تضخما فى العظمة الجبهية كان يضغط على صدغيه كأنه طوق أو حلقة من فولاذ ، مما اكسبه حاجبين بارزين ونظرة متألقة .

وعندما خيف — فى أوائل الثورة — أن تكون الانتفاضة حدثا مبتسرا مآله إلى الفشل ، كما وقع فى سنة ١٩٠٥ ، ولا يؤثر إلا على القلة المتعلمة ، دون أن يمسن الطبقات الأدنى — والأكثر تغلغلا — فى المجتمع ، بذل كل جهد لترويج الدعاية الثورية بين الناس لتحريكهم ، وتحريضهم ، وإنهاض عزائمهم ،

وإذكاء هياجهم .. فى تلك الأيام الأولى كان أمثال بامفيل ممن لا يحتاجون إلى تشجيع على كراهية المثقفين ، والضـــباط ، والموظفين، وعلية القوم كراهية وحشية هوجاء .. كان هؤلاء يعتبرون — فى نظر المثقفين اليساريين المتحمسين — « كنزا » نادرا ، وكانـــوا يحظون بتقـــدير عظيم .. كان نبوهم عن الإنسانية يبدو معجزة من معجزات الوعى الطبقى ، وكانت وحشيتهم الهمجية تبدو مثالا لحزم الطبقة الكادحة وللغريزة الثورية . وبمثل هذه المواهب وطد بامفيل سمعته ، وحظى بتقدير كبير من قادة حرب العصابات ، ومن زعماء الحزب .

اما فى نظر يورى ، فان هذا العملاق البشع ، الهمجى ، بدا بميوله الضحلة وافكاره الضيقة، وروحه العقيمة ، إنسانا منحلا ، ناقص العقل .

وقال له بامفيل : « تعال ندخل الخيمة ! » .

— لا .. ولماذا ؟ إن البقاء فى العراء أدعى للانشراح . ثم اننى لا استطيع الدخول ، على اية حال .

— لا بأس ، اختر لنفسك ما يحلو .. نســـتطيع ان نجلس على جذوع الشجر .

وجلسا على الشجيرات الربيعية ، ثم اخذ بامفيل يروى ليورى قصة حياته ، قائلا : « يقولون إن القصـــة إذا رويت فسرعان ما تنتهى . ولكن قصتى طويلة ، لا أملك ان ارويهـــا بأكملها فى ثلاث سنوات . ولست ادرى من اين ابدأ . ولكن لا بأس ، فلأحاول : كنا — زوجتى وأنا — ما نزال صغيرين . وكانت هى تعنى بالبيت ، بينما أعمل انا فى الحقول . ولم تكن



وجلسا على الشجيرات الربيعية ، ثم اخذ بامفيـــل يروى ليورى قصـــة حيـــاته ..

حياة رديئة . وقد رزقنــا بأطفــال . ثم أخذونى للجيش ، وارسلونى إلى الحرب . أجل ، الحرب ! ما الذى ينبغى أن أذكره لك عن الحرب ؟ لقد رأيتها بنفسك أيها الرفيق الطبيب .. ثم جاءت الثورة . ورأيت النور . وتفتحت أعين الجنود . وسمعنا أن الأجانب لم يكونوا وحدهم الأعداء . كان لدينــا أعداء فى داخل الوطن كذلك .. « يا جنود الثورة العالميــة ، نكســوا بنــادقكم ، وعــودوا إلى دياركم ، وثــوروا على البورجوازيين » ، وما إلى ذلك من نداءات . انك تعرفها أنت الآخر ، أيها الرفيق طبيب الجيش .. حســنا ، لنمض فى القصة . وجاءت الحرب الأهلية بعد ذلك ، فانضــممت إلى العصابات . والآن ، لا بد لى من التجاوز عن كثير من القصة ، وإلا فلن يقدر لها أن تنتهى أبدا .. وبعد كل ذلك ، ما الذى أراه الآن ، فى هذه اللحظة الراهنة ؟ .. إن ابن السفاح ذلك ، قد أحضر كتيبتى (ستافروبول) من الجبهة الغربية ، وكذلك فرقة أورينبورج الأولى ، من فرق القوزاق . اننى لســت بالطفل . أترانى طفلا ؟ .. أو لست أفهم ؟ .. أو لم أخدم فى الجيش ؟ .. انها لمهمة سيئة أيها الدكتور ، لقد انتهى أمرنا ! .. إن الذى ينتوى هذا الخنزير عمله هو أن ينقض علينا بكل هؤلاء الأوغاد . إنه يريد أن يطوقنا !

« ولكننى أوتيت زوجة وأطفالا ، فكيف لهم أن ينجوا منه إذا بلغ القمة ؟ .. انهم أبرياء حقا ، وهم بعيــدون عن كل شىء ، ولكنه لن يشــغل باله بذلك . لســوف يقبض على زوجتى ، ويوثق كتافهــا ، ثم يشرع فى تعذيبها بســببى ..

سيعذب زوجتى وأطفالى ، وسيهشم كل عظمة فى أجسادهم ، ولسوف يمزقهم إربا .. ثم تسألنى ـ بعد ذلك ـ كيف لا أنام ؟ .. قد يكون المرء مصنوعا من فولاذ ، ولكن هذه الأمور تكفى لكى تخرجك عن طوقك ! » .

ـ ما أغربك يا مفيل ! .. اننى لا أستطيع أن أفهمك . لقد ظللت سنوات بعيدا عن أسرتك ، حتى إنك لم تكن تعرف أين هم ، بل انك لم تحفل بذلك . أما وأنت توشك أن تراهم ، إذا بك تتأهب لتترنم فى جنازتهم ، بدلا من أن تكون ســعيدا هانئا !

ـ كنت خليقا بأن أسعد فى الماضى ، أما الآن فالأمــر يختلف . إنه ـ ابن السفاح الأبيض ـ يوقع بنا ضرباته . على اننى لا أتكلم عن نفسى ، على أية حال ، فأنا قد انتهيت ، ولن ألبث أن أموت عما قريب . ولكنى لا أستطيع أن أصطحب صغارى إلى العالم الآخر ! .. أترانى أستطيع ؟ .. لسوف يبقون ، ولسوف يقعون فى يديه الوحشيتين . لسوف يعتصر الدم من أجسادهم قطرة قطرة !

ـ ألهذا تشعر بالخدر يسرى فى أوصالك ؟ .. لقد قيل لى انك ترى رؤى وهمية وأشباحا ؟

ـ حسنا يا دكتــور ، إننى لم أنبئك بكل شىء ، فقــد احتجزت أهم شىء . الآن سأنبئك بالحقيقة كلها ، إذا شئتها .. سأقولها لك بصراحة ، فيجب أن لا تمسكها ضدى .. لقد قضيت على كثير من صنفك ، وإن يدى لمضرجتان بدم كثير من الضباط .. ضباط من علية القوم ! .. وما حملت لذلك هما

البتة ، بل اننى كنت أريقه كالمــاء .. لقد تبددت الأســماء والأرقام من ذهنى . لقد قتلت ذلك الصبى المدلل ، ولن انسى هذا ! .. ولمــاذا وجدتنى مضطرا لقتله ؟ .. لقد اضحكنى ، نقتلته على سبيل المزاح .. دون ما مقابل ، كأى احمق !

« كان ذلك فى ثورة فبراير ، فى ايام كيرنسكى . وكنا قد اعلنا التمرد والعصيان .. وكنا على مقربة من محطة للسكك الحديدية ، وقد هجرنا الجبهة ، وارسلوا إلينا شابا صغيرا محرضا ، ليتحدث الينا عن العودة إلى الجبهــة ، حتى نظل نحارب إلى أن يتم النصر .. حسنا ، لقد جاء ذلك الصبى الصغير لكى يقنعنا بأن نكون جنــودا طيبين . وكان اشــبه بالفرخ (الكتكوت) الصغير ! .. وكان الشــعار الذى راح يردده : « قاتلوا حتى النصر » ! .. وصعد فوق برميل للماء ، وراح يهتف بشعاره هذا . وكان البرميل على رصيف المحطة . لقد صعد فوقه لكى يجعل صيحته الداعية إلى القتال ، تنبعث من مكان عــال .. افهمت ؟ .. وفجأة انقلب غطــاء البرميل تحته ، فسقط فى البرميل مباشرة .. سقط فى الماء مباشرة . انك لا تستطيع أن تتصور كيف كان منظره مضحكا . لقد كاد جنباى ينشقان لفرط الضحك ! .. وكنت أمسك ببندقيــة . وكان الضحك يعبث بعقلى ، فلم اكن املك أن اكف عنــه .. تماما كمــا لو انه كان يدغدغنى ! .. ومــا لبثت أن رفعت بندقيتى ، وسددت الرماية نحــوه ، ثم اطلقت رصاصــة ، نارديته ! .. ولست أتصور كيف حدث هذا .. تماما كما لو أن شخصا ما كان يدفعنى !

« وهكذا ، كان ذلك سبب الخدر الذى يدب فى اوصالى . اننى احلم بتلك المحطة فى الليل . لقد كان الأمر مضحكا فى ذلك الحين . اما الآن .. فانا آسف ! » .

ــ اكان ذلك فى محطة (بيريوتشى) بالقرب من مدينــة (ميليوزييفو) ؟

ــ ليس بوسعى أن اتذكر .

ــ أكنت فى تمرد زيبوشينو ؟

ــ لا اتذكر !

ــ اية جبهة كنت فيها .. اهى الجبهة الغربية ؟ .. اكنت فى الغرب ؟

ــ يلوح لى ذلك .. لابد اننى كنت فى الغرب .. لست انكر !

الفصل الثانى عشر
شجرة الدردار

— ١ —

مضت القافلة ومعها عائلات المشايعين والانصار ، بأطفالهم وامتعتهم ، خلف القوة الرئيسية من الأنصار .. ثم اعقبتها العربات الضخمة ، ومن ورائها قطيع كبير من الماشية يتألف من الوف عديدة من البقر ..

وبوصول النسوة ، ظهرت فى المعسكر شخصية جديدة ، هى شخصية « كوباريخا » ، وكانت زوجة لأحد الجنود تقوم بعلاج الماشية ، كما كانت تشتغل سرا بالسحر . وكانت تمضى وهى تضع على راسها قبعة مستديرة تنحدر على راسها من كل الجوانب ، وترتدى معطفا اخضر اللون كان جزءا من المهمات البريطانية التى قدمت للأميرال « كولشاك » .. وكانت تؤكد لكل فرد انها صنعت هذا كله من قلنسوات المساجين واثوابهم ، وان الحمر اطلقوا سراحها من سجن (كيزما) حيث كان الأميرال « كولشاك » قد اعتقلها لأسباب غير معروفة .

وهجر الانصار « غابة الثعلب » إلى ارض جديدة ليعسكروا فيها ، وكان المفروض ان يمكثوا هناك حتى يتم استطلاعهم الأمكنة المجاورة ، ويتكشفوا اماكن ملائمة لقضاء الشتاء ، ولكن الظروف المتغيرة اجبرتهم على تمضية الشتاء فى تلك الأرض ..

وكان هذا المعسكر يختلف تمام الاختلاف عن المعسكر القديم .. فالغابة من حوله كثيفة ، وبعض مسالكها معقدة ، وجانب منها يحيط بالمعسكر ، والطريق الوعر الطويل يمتد إلى ما لا نهاية . وفى الأيام الأولى للهجرة — بينما كانت الخيام تنصب ، وعندما كان لدى «يورى » بعض الفراغ — استطاع ان يكتشف الغابة من اتجاهات عديدة ، ثم انه اقنع نفسه بان الإنسان يستطيع بسهولة ان يتيه فيها . وقد تأثر اثناء قيامه بهذه الرحلات والجولات بمكانين ظلا عالقين فى ذاكرته :

كان احد هذين المكانين يقع فى نهاية الغابة ، خارج المعسكر ، وكانت اشجار الغابة قد جردها الخريف من اوراقها ، حتى انك لتستطيع ان تنظر خلالها كما تنظر خلال بوابة مفتوحة ، اللهم فيما عدا شجرة منعزلة رائعة من اشجار الدردار كانت هى وحدها تحتفظ بأوراقها . وكانت هذه الشجرة تنمو على ربوة تعلو الأجمة المنخفضة ، وترتفع إلى اعلى ناشرة « كئوس » ثمرات التوت البرى القرمزى ، حتى تحميه من قسوة الشتاء وتهديده ، واستقرت بعض طيور الشتاء ، من امثال « الدغناش » و « الزمير » — بريشها اللامع الوضاء ، كنجر تساقط فيه البرد — على هذه الشجرة ، فجعلت تلتقط اكبر ثمرات التوت ، ثم تمد رقابها ، وترجع برؤوسها إلى الوراء لتبتلع هذه الثمرات .

وكان يبدو كان هناك علاقة وثيقة بين الطيور والشجرة ، كما لو أن شجرة الدردار قد رقبتها طويلا دون ان تفعل لها شيئا ، ثم فى النهاية عطفت عليها .. وكانها قد فتحت صدارها

كما تفعل الأم الرؤوم ، فقدمت لها ثدييها وهى تبتسم كثيرا وتقول : « حسنا .. حسنا .. تغذى منى أيتها الطيور .. واشبعى » ..

اما المكان الآخر فكان غريبا ، كان مرتفعا ينحدر أحد جوانبه بشدة ، ولو انك نظرت فى الوادى الضيق العميق الذى بأسفله ، لشعرت بأن لا بد ان يكون هناك فى القاع شىء مغاير لما هو على القمة .. قد يكون هذا الشىء نهرا أو أخدودا عميقا او مرجا من الحشائش البرية ذات البذور ، ولكن الحقيقة أن الوادى كان تكرارا لقمة الهضبة على عمق يثير الدوار ، كما لو ان الغابة قد غاصت فى الأرض فهبطت قمم اشجارها حتى صارت عند مستوى قدميك .. والمحتمل انه حدث فى وقت ما انحدار او انهيار فى الأرض .

كان هذا المكان يبدو كأن هذه الغابة العظيمة الكئيبة قد تعثرت وهى تناطح السحاب واضطربت فى مشيتها فوقعت ، مرة واحدة .. او كأنها كانت على وشك ان تغوص فى الأرض، لولا انها انقذت نفسها فى اللحظة الأخيرة بمعجزة .. وهكذا بقيت — كما هى الآن — آمنة هادئة ، تسمعنا حفيفها من تحتنا ..

ولكن هذا كله لم يكن السبب الذى جعل هذا الوادى شيئا مذكورا ، فعلى امتداد حافته كان محاطا باحجار كبيرة من الجرانيت ترتكز على احد اطرافها ، وتبدو مثل اطلال الآثار القديمة الملساء .. وما إن وصل « يورى » إلى هذه المنطقة الصخرية حتى اقتنع تماما بأنها ليست طبيعية ، بل

إن يد الإنسان قد تركت اثرا عليها ، فربما تكون معبدا قديما كانت تقام فيه الصلوات وتقدم القرابين — فى يوم من الأيام — من اناس غير معروفين يقومون بعبادة الأوثان ..

لقد تم هنا فى صباح يوم بارد كئيب تنفيذ حكم الاعدام فى احد عشر زعيما من زعماء المؤامرة ، واثنين من الجنود « المراسلة » حوكما بسبب صناعة الفودكا .. إذ قامت جماعة من الحرس من اكثر الأنصار إخلاصا — عددها عشرون ، ومعها بعض أعضاء الحرس الخاص لـ «ليبريوس» يشدون ازرها — بإحضار الرجال المحكوم عليهم إلى هذه البقعة .. ثم التفوا حولهم فى نصف دائرة ، مندفعين إلى الامام فى خطوات سريعة ، فاكتسحوا هؤلاء المحكوم عليهم إلى حافة الهاوية ، حيث لم يبق لهم مفر إلا السقوط إلى قرارها .

وكان التحقيق ، والسجن الطويل ، وانواع المهانة التى قاسوا منها ، كل ذلك كان قد ازال عن وجوه هؤلاء المساجين كل اثر إنسانى .. كانت وجوههم شاحبة ، واجسامهم هزيلة منهكة ، وبشرتهم سوداء داكنة .. لقد كانوا يثيرون الرعب كالأشباح تماما .

وكان قد تم نزع سلاحهم عندما اعتقلوا اول الأمر ، ثم لم تقم احد بتفتيشهم مرة أخرى قبل تنفيذ الحكم فيهم ، فمثل هذا التفتيش شىء لا ضرورة له ، ويدل على الخسة والضعة ، وسخرية لا مسوغ لها من رجال على شفا الموت .

وحدث فجأة ان اطلق « رزانتسكى » — وهو صديق « فدوفيشنكو » الذى كان يسير بجانبه ، والذى كان مثله

نوضويا قديما — ثلاث رصاصات على الحرس ، جاعلا هدفه « سيفوبلوى » .. وقد كان « رزانتسكى » راميا بارعا ، ولكن يده اهتزت نتيجة لاضطرابه فاخطأ الهدف .. فاذا نفس الحكمة والتروى والعطف على الرفقاء القدامى — والتى حالت دون تفتيشهم — تمنع الحرس من الهجوم عليه او إعدامه فورا بالرصاص جزاء لهذه المحاولة التى قام بها .. وكان فى مسدس « رزانتسكى » ثلاث رصاصات لم تطلق بعد ، ولكنه — وقد اصابه الجنون لفشله ، او ربما لانه فى اضطرابه نسى ان هذه الرصاصات موجودة — قذف بالبراوننج الذى يمتلكه بعيدا على الصخور ، فاصاب الرصاص احد المحكوم عليهم بجراح ، كما اصاب الجندى المراسلة « باشكوليا » فى قدمه ..

وصاح « باشكوليا » وهو ممسك بقدمه ، وسقط على الأرض يصرخ من الالم .. وكان رجلان واقفين على مقربة منه ، هما « سانكا بافنتكين » و « كوسكا جورازديخ » ، فرفعاه عن الأرض وامسكا بذراعيه وسحباه حتى لا يطأه رفقاؤه الذين لم يكونوا يدرون ما يفعلون ، ونظراً لانه اصبح عاجزا عن وضع قدمه الجريحة على الأرض ، فقد اخذ يعرج ويقفز تجاه البقعة الصخرية — حيث سيق الرجال المحكوم عليهم بالاعدام — واخذ يصيح بلا توقف . واثارت صرخاته القاسية ثائره الآخرين ، وافقدتهم السيطرة على انفسهم .. ولن يمكنك ان تتخيل ما حدث بعد ذلك : ثارت عاصفة من النواح والبكاء والسب ، والصلوات واللعنات ! ..

ورفع «تيرنتى جالوزين» قلنسوته ، وركع على ركبتيه ، ثم تحرك — وهو ما زال راكعا — إلى الخلف ، يتبع بقية الرجال تجاه الأحجار الرهيبة ، وانحنى كثيرا إلى الأرض امام الحرس مجهشا بالبكاء ، وقال لهم مستعطفا فى صوت خافت وهو لا يعى تماما :

— اعفوا عنى ايها الرفاق ، إنى آسف . ولن افعل ذلك مرة اخرى .. ارجوكم اطلقوا سراحى .. لا تقتلونى .. إننى لم اعش بعد .. إنى اريد ان اعيش فترة اخرى من الزمن . اريد ان ارى اخى مرة اخرى .. ارجوكم اطلقوا سراحى .. ايها الأصدقاء .. ارجوكم اعفوا عنى .. سافعل كل شىء من اجلكم .. ساقبل الأرض تحت اقدامكم .. اواه ، الرحمة .. الرحمة .. يا اماه .. لقد يئست ..

ثم — فى صوت هادىء بطىء — اخذ احد الأفراد الآخرين ، وكان مختبئا بين الجميع ، يغنى :

— ايها الرفاق الطيبون .. ايها الرفاق ذوو القلوب العطوفة الرحيمة .. كيف يمكن هذا ؟ لقد قاتلنا معا فى حربين اثنتين .. اطلقوا سراحنا ايها الزملاء .. سنرد إليكم هذا العطف .. سنشعر بالامتنان لكم إذ تنقذون حيواتنا .. سنبرهن لكم على هذا بأعمالنا .. هل اصابكم الصمم ، ام ماذا ؟ .. لماذا لا تجيبون ؟ .. الا يوجد المسيح بداخل نفوسكم !

وصاح آخرون فى « سيفوبلوى » :

— يا يهوذا .. يا قتل المسيح .. إن كنا نحن خائنين مرة ، فانك لخائن ثلاث مرات .. ايها الكلب .. فلتختنق ..

لقد قتلت القيصر الشرعى الذى اقسمت امامه وعاهدته .. لقد اقسمت يمين الإخلاص والولاء لنا .. ولكنك خدعتنا وحنثت بالعهد .. فهيا اعط قبلة لشيطانك — فورستر — قبل ان تخونه .. فانك حتما ستخونه وتخدعه حالا !

وعلى حافة القبر ، ظل «فدوفيشنكو» صادقا مع نفسه — كما كان طيلة حياته — وقال ورأسه مرتفع ، والريح تعبث بشعره الرمادى ، موجها كلامه إلى « رزانتسكى » فى صوت عال يستطيع ان يسمعه الجميع :

— لا تهن نفسك وتشعرها بالمذلة .. ان احتجاجك لن يصلهم .. إن هؤلاء الرجال الذين يشبهون رجال الأمن فى عصر إيفان الرهيب ، وهؤلاء الذين يشرفون على غرف التعذيب الجديدة ، لن يفهموك ابدا! .. ولكن لا تبتئس .. ان التاريخ سيقول الحقيقة ، كما أن الأجيال القادمة ستصم بالخزى والعار ، هؤلاء الرجال اشباه اسرة « البوربون » ، وستشهر بأعمالهم السوداء القذرة .. إننا نموت كضحايا فى فجر الثورة العالمية .. مرحبا بثورة الروح ، مرحبا بالفوضوية العالمية !

ثم تدفق من بنادق الجنود سيل من عشرين رصاصة ، فحصد نصف المحكوم عليهم دفعة واحدة ، مصيبا معظمهم فى مقتله .. أما الآخرون فقد أطلق عليهم مدفع آخر .. واختلج الفتى « تيرنتى جالوزين » طويلا ، واخيرا رقد فى صمت وسكون . .

— ٢ —

ولم يقلع الأنصار بسهولة عن فكرة الهجرة إلى اقصى الشرق لقضاء فصل الشتاء ، فأرسلوا الكشافين لارتياد المنطقة فيما وراء الطريق الكبير ، على امتداد مقسم المياه « فيتسك كيزما » ، وكثيرا ما كان « ليبريوس » يغيب تاركا « يورى » لنفسه يفعل ما يشاء .

ولكن الحقيقة ان الوقت كان متأخرا بالنسبة للأنصار لكى يهاجروا إلى أى مكان آخر ، كما انه لم يكن هناك اى مكان يلجأون إليه . وكان ذلك اسوأ وقت ينتكسون فيه .. فالبيض ، بعد ان قرروا ان يقضوا على الوحدات غير المنتظمة الموجودة فى الغابة ، احاطوا بهم — قبل هلاكهم بوقت قصير — وكانوا يضغطون عليهم من كل جانب . ولو ان قطر دائرة الحصار كان اقل من ذلك لحلت بالحمر كارثة . لقد كان لحجم الدائرة اثر فى حمايتهم ، ذلك لأن الشتاء الذى كان يزحف عليهم قد جعل اقتحام الغابة عسيرا ، وحال بين العدو وبين إحضار وحداته لضيق الحصار على جيش الفلاحين .

ومع ذلك ، اصبحت الهجرة مستحيلة عليهم ، وقد كان فى استطاعتهم حقا ان يتدفقوا إلى مراكز جديدة لو انه كانت لهم خطة ذات مزايا عسكرية خاصة ، ولكنهم لم يكونوا قد درسوا مثل هذه الخطة . كانوا قد ضاقوا ذرعا بالحياة ،

وحل بهم الفقر والعوز والفاقة ، وفقد القواد الصغار املهم ، كما فقدوا نفوذهم وسيطرتهم على اتباعهم .. وكان كبار القواد يجتمعون فى الليل ويقترحون بعض الحلول المتضاربة ، ثم انتهى الأمر أخيرا بأن تخلوا عن فكرة تغيير المعسكر ، وقرروا تدعيم المراكز الخالية فى قلب الغابة ، فميزة هذه المراكز أن الثلوج تجعلها عسيرة المنال فى الشتاء ، وخصوصا ان البيض ليست لديهم احذية لوقايتهم من الثلوج . وكانت هناك مهمة عليهم ان يسرعوا بتنفيذها ، وهى حفر كهوف كبيرة يقبعون فيها ..

واعلن قائد المعسكر عن نقص خطير فى الدقيق والبطاطس ، ولكن الماشية كانت كثيرة ، وكان من رأيه ان الطعام الرئيسى فى الشتاء يجب أن يقتصر على اللبن واللحوم .. وكذلك كان هناك نقص فى الملابس الشتوية ، حتى لقد كان بعض الانصار يتجولون وهم انصاف عرايا .. ثم انه تقرر قتل كلاب المعسكر ، وانهمك ذوو الخبرة فى شئون الفراء فى صناعة سترات من جلود الكلاب ..

وحرم على « يورى » استخدام وسائل النقل لإحضار الجرحى ، فقد احتجزت العربات لأمور اهم من ذلك . وفى آخر مرة قام فيها الأنصار بتغيير معسكرهم ، تم حمل الجرحى على نقالات مسافة ثلاثين ميلا ..

وكانت الأدوية الوحيدة فى المعسكر هى « الكينين » ، واملاح « جلوبر » ، واليود . وكان اليود على هيئة بلورات ، وكان لا بد من إذابته فى الكحول قبل ان يستخدم فى الجروح والعمليات . وتحسر الجميع على الفودكا . ثم بدات من جديد صناعة الكحول رسميا — بعد ان كانت قد الغيت — وذلك لأغراض طبية . واعرب الجميع بالإيماءات والغمزات عن ابتهاجهم بهذه الأنباء ، وانتشر شرب الخمور والعربدة مرة اخرى . وساهم هذا كله فى إضعاف الروح الأخلاقية عامة ، بل القضاء عليها .

وكان الكحول الذى يأتون به نقيا مائة فى المائة ، ولذلك كان مفعوله قويا فى إذابة بلورات اليود ، وكذلك فى تحضير محلول الكينين، وكان هذا المحلول يستخدم فى علاج التيفوس، الذى اصبح وبائيا بشكل خطير مرة اخرى ، بسبب الطقس البارد ..

— ٣ —

وذهب يورى لزيارة « بامفيل » وعائلته ، وكانت زوجته واطفاله الثلاثة (بنتان وولد) قد امضوا الصيف الماضى كله مشردين فى الطرقات المتربة ، تحت السماء العريضة الواسعة . لقد افزعتهم تجاربهم وملأت قلوبهم رعبا ، وكانوا

يعيشون وهم يتوقعون مخاوف جديدة . وكان الأربعة ذوى شعر خفيف جعلته الشمس فى لون الكتان ، وذوى حواجب ثقيلة بيضاء ، على عكس وجوههم التى لوحتها الشمس واثر فيها الطقس كثيرا فصارت داكنة . ولكن ، بينما كان الأطفال الصغار لا تبدو عليهم آثار أرتياعهم وأحزانهم وآلامهم ، كان وجه الأم شاحبا لا حياة فيه . وقد عمل الخوف والتوتر العصبى الذى عاشت فيه على تضييق شفتيها إلى خط رفيع ، كما تحولت ملامحها الجافة المنتظمة إلى جمود ، من اثر المعاناة وحالات الدفاع التى قاستها .

وقد كرس « بامفيل » حياته لهم جميعا ، وكان يحب اطفاله إلى درجة الجنون . ولقد ادهش « يورى » بمهارته فى نحت اللعب للأطفال على هيئة ارانب وديوك ودببة ، مستخدما طرفا من سلاح فأسه الحادة .

وقد شعر بالبهجة والسرور عند ما وصلت عائلته ، وبدأ يستعيد نشاطه . ولكن الأنباء سرت بأن القيادة قد اعتبرت وجود العائلات شيئا يسىء إلى النظام ، وانه لذلك سيتم ترحيلهم تحت حراسة قوية إلى مخيمات الشتاء على بعد من المعسكر ، حتى يتحرر العسكريون من اعباء المدنيين الذين لا فائدة منهم . على ان الحديث عن هذه الخطة كان أكثر من الاستعداد الحقيقى لتنفيذها ، حتى لقد اعرب « يورى » عن

شكه فى تنفيذها والعمل بها ، ولكن الحزن طغى على « بامفيل » ، وعادت إليه نوبة من التوجس كانت كثيرا ما تنتابه .

— ٤ —

وقبل ان يحل الشتاء نهائيا ، عانى المعسكر فترة من الاضطرابات والقلاقل والشكوك ، واضطرب فى مواقف معقدة كثيرة هددت حياته ، وأحداث غامضة لا منطق لها .. فقد اتم البيض الحصار طبقا للخطة ، وكان على رأسهم « فيتزن » و « قدرى » و « بساليجو » . وكان هؤلاء الثلاثة مشهورين بقسوتهم وغلظتهم وقراراتهم الصارمة ، وكانت أسماؤهم وحدها كافية لإثارة الرعب والفزع بين اللاجئين داخل المعسكر ، كما كانت تثيرهما بين المواطنين الأميين الذين ما زالوا فى قراهم فى مؤخرة القوات المحاصرة .

ولم يكن العدو يرغب فى تضييق الخناق ، ولا كان هناك من سبب يجعل الأنصار يقلقون بشأن هذا الأمر ، ولكن كان من المستحيل عليهم ان يظلوا عاجزين عن القيام بأى عمل ، فقبولهم لهذا الموقف يقوى من روح العدو المعنوية . ورغم انهم كانوا يعيشون فى امن وسلام داخل هذا الفخ الذى وقعوا فيه ، إلا انه كان عليهم ان يجدوا لهم مخرجا ، ولو كمظهر من المظاهر العسكرية ..

وخصصت قوة كبيرة لهذا الغرض ، تركزت مهمتها فى مواجهة القوس الغربى للدائرة ، وأوقفت فعلا بالبيض هزيمة كبيرة ، وتغلغلت إلى مؤخرتهم بعد قتال عنيف استمر عدة أيام .

وأدى هذا التصدع إلى فتح طريق للمعسكر فى الغابة ، ومنه تدفق سيل من المهاجرين الجدد ، لم يكونوا على صلة بالأنصار والمشايعين . ثم إن الفلاحين — الذين يعيشون فى المناطق الريفية المجاورة — هربوا من منازلهم ، خوفا من الإجراءات التعسفية التى يتخذها البيض ، وأخذوا يفكرون فى الانضمام إلى جيش الفلاحين الذى كانوا ينظرون إليه على انه حاميهم الطبيعى ..

ولكن قيادة المعسكر كانت تتطلع فى شغف إلى التخلص من الذين تتكفل بهم ، ولا تريد ان تتحمل اعباء القادمين الجدد والغرباء . فأرسلت الرسل لمقابلة الهاربين والمهاجرين وتحويلهم إلى قرية تقع على نهر « شيليمكا » اسمها « دفورى » ، كان مقررا جعلها مأوى للاجئين فى فصل الشتاء ، وإرسال المؤن التى تم الاستغناء عنها مؤقتا لهم . .

وبينما كانت القيادة تتخذ هذه الاجراءات ، كانت الأحداث تمضى فى طريقها ، ولم تستطع القيادة ان تحول دون

وقوعها . فقد اغلق العدو الثغرة التى حدثت فى صفوفه ، واصبحت الوحدة التى تسربت عن طريق هذه الثغرة عاجزة عن العودة إلى الغابة ..

ومما ضاعف من متاعب الأنصار والمشايعين ، ان النسوة اللاجئات كن يسلكن ويتصرفن بطريقة غريبة ، فقد كانت كثافة الغابة تجعل من العسير العثور على أماكنهن . وعندما كانت الرسل تحاول اقتيادهن ، كن يعتصمن بالغابة ويقطعن الأشجار وينشئن الطرق والجسور ، ويحققن الكثير من العجائب على طول الطريق . ولم يكن اى من هذه الأشياء مطابقا لخطة قيادة الأنصار وافكارها ، ومن ثم وجد ليبريوس ان خططه قد انقلبت رأسا على عقب ..

— ٥ —

وكان هذا هو السببالذى جعله فى حالة مزاجية عنيفة ، وهو يقف متحدثا إلى « سفريد » ، الرجل المشهور بوضع خطط الحصار ، وذلك بالقرب من الطريق الكبير الذى يخترق نهاية الغابة . وكان يقف فى الطريق بعض أعضاء قيادته يتجادلون فيما إذا كانوا يقطعون أسلاك التلغراف التى تمتد بجوار الطريق . وكان من حق ليبريوس أن يصدر القرار النهائى فى ذلك ، ولكنه فى تلك اللحظة كان يتحدث إلى

« سفريد » باهتمام وحدة ، وكان يشير إلى الآخرين بالتزام الصمت وانتظاره حتى يفرغ من حديثه ..

وقد تأثر « سفريد » تأثرا عميقا باطلاق الرصاص على « فدودفيشنكو » ، الذى كانت جريمته الوحيدة انه كان ينافس ليبريوس ، وبذلك حدث انقسام فى المعسكر . وكان « سفريد » يتمنى لو انه ترك الانصار وعاد إلى حياته القديمة الخاصة المستقلة ، ولكن لم يكن فى وسعه ذلك . لقد احتار بين الأمرين ، ولو انه ترك رفقاءه فى الغابة الآن لأصابه ما أصاب « فدوفيشنكو » !

وكان الطقس قاسيا فظيعا ، وريح صرصر عاتية تجتاح امامها السحب الممزقة السوداء التى فى لون « الهباب » المتطاير على ارتفاع منخفض من الأرض .. وسقطت الثلوج من هذه السحب فى سيل ابيض سريع ، وفى الحال تغلف الأفق واصبحت الأرض كملاءة بيضاء . ولكن ما إن مرت دقيقة واحدة حتى تبخرت الملاءة البيضاء ، وانصهرت إلى حبيبات صغيرة جدا ، وعادت الأرض سوداء كالفحم تحت السماء ، وقد رشت بخيوط منحدرة من مياه السيول البعيدة ، ولم تستطع الأرض ان تتشرب مزيدا من الماء .

وعندما تتكسر السحب وينفصل بعضها عن بعض ، كانت تحدث فراغات كنوافذ فتحت لتوهية السماء . وكانت

الأرض تتجاوب مع السماء فى ذلك ، فكانت البرك والحفر التى تمتلىء بالمياه تسطع وتتألق . وكان المطر ينساب على اشجار الصنوبر ، فتبدو كثياب مبللة بالزيت . كما أن اسلاك البرق كانت تعلق بها قطرات الماء ، كل قطرة بجوار الأخرى مثل الخرز ، وكأنها لن تسقط أبدا .

وكان « سفريد » احد هؤلاء الذين ارسلوا لمقابلة النسوة الهاربات ، وكان يتمنى لو يقول لرئيسه شيئا عما رآه ، كالاضطراب الذى نتج عن الأوامر التى لا يمكن أن تنطبق على الظروف المحيطة ، والتى يتناقض الواحد منها مع الآخر ، والأفعال المرعبة التى ارتكبتها اضعف للنساء عندما فقدن الثقة ، واصابهن اليأس والقنوط . فقد تخلت الأمهات الصغيرات المنهوكات القوى ، واللائى لم يعد فى صدورهن لبن يطعمن به صغارهن ، واللائى كن يسرن فى إعياء على اقدامهن حاملات اللفائف والأطفال والجوالات ، تخلين عن اطفالهن ، واسقطن القمح على الأرض من الجوالات التى يحملنها ، وعدن من حيث أتين .. لقد صرحت النسوة بانهن يفضلن ان يقعن فى قبضة العدو ، على أن تمزقهن وحوش الغابة إربا إربا !

وعلى الرغم من ذلك ، كانت النساء ــ بصفة عامة ــ قويات العزيمة ، فقد اظهرن شجاعة نادرة ، وسيطرن على انفسهن بدرجة لا يعرفها الرجال .

وكان لدى « سفريد » اشياء كثيرة يريد ان يقصها على رئيسه . كان يريد ان يحذره من حدوث ثورة اخرى ، ثورة اكثر خطرا من تلك التى تم إخمادها ، ثورة يخيم شبحها على المعسكر ، ولكنه كان مترددا . كما ان ليبريوس بكلامه السريع لم يترك له فرصة للحديث ، ولم يكن السبب فى نفاد صبر ليبريوس ان اصدقاءه كانوا ينادونه ويلوحون له بأيديهم من الطريق الكبير ، ولكن لانه كان فى الأسبوعين الأخيرين قد تلقى تحذيرات مشابهة مرات كثيرة ، وهو الآن يعرفها جيدا ويحفظها عن ظهر قلب :

قال « سفريد » :

— بعضا من وقتك يا سيدى الرفيق . إن الكلمات تقف فى حلقى ، انها تخنقنى . إن ما اريد ان اقوله هو ان تذهب إلى معسكر النساء ، وتأمرهن بأن يتوقفن عن هذه الترهات .. وإلا فانى اريد ان اسالك : ماذا سيؤدى إليه هذا الأمر ؟ هل سيؤدى إلى الهتاف ضد كولشاك ؟ ام إلى حرب اهلية بين النسوة ؟

— اختصر حديثك ولا تطل .. انت تعلم ان هناك من ينادينى ..

— هناك هذه المراة الشيطانة التى اسمها « كوباريخا »

.. الشيطان وحده هو الذى يعلم من هى .. إنها تقول : اجعل منى امراة تشرف على الماشية ..

— طبيبة بيطرية .. اليس هذا ما تعنيه ؟

— هذا ما اقوله ، امراة تشرف على علاج الماشية من البرد ، ولكنها لا تراعى الماشية الآن .. هذه المراة اللعينة الملحدة ربيبة الشيطان ، إنها تطالب باشياء كثيرة للبقر ، وتحول بين الزوجات الصغيرات اللاجئات وبين اداء واجبهن ، وتقول لهن : « لا تلمن إلا انفسكن على ما انتن فيه من آلام وبؤس .. إن هذا كله نتيجة اهتمامكن وجريكن وراء العلم الأحمر .. فحذار ان تفعلن ذلك مرة اخرى ! » .

— هؤلاء اللاجئون الذين تتحدث عنهم ، اهم لاجئون من المعسكر ام لاجئون آخرون ؟

— آخرون بالطبع .. إن اللاجئين الجدد هم الغرباء .

— ولكن .. لقد صدرت اليهم الأوامر بالذهاب إلى (دفورى) ، فكيف حضروا إلى هنا ؟ ..

— (دفورى) ؟ هذا شيء عظيم .. لقد احترقت (دفورى) : طاحونتها وكل شيء فيها ، ولم يعد هناك إلا رماد .. وهذا ما راوه عندما ذهبوا إلى هناك ، لا شيء على قيد

الحياة ، لا شيء بل رمــاد واطـــلال .. وقد اصيب نصفهم بالجنون وصرخوا وعادوا مسرعين إلى البيض ، اما النصف الآخر فقد جاء إلى هذا الطريق ..

— ولكن كيف ساروا فى الغابة وفى المستنقعات ؟

— وما فائدة الفئوس والمناشير إذن ؟ .. لقد ساعدهم بعض زملائنا الذين بعثنا بهم إليهم لحمايتهم ، وهم يقولون انهم قطعوا عشرين ميلا من الطريق ، وتحدثوا عن النسوة وكيف فعلن اشيئاء تستغرق منا شهورا طويلة ..

— شيء جميل ! عشرون ميلا من الطريق .. ولكن ماذا يجعلك تبدو مسرورا هكذا ايها الأبله .. ؟ إن هذا بالضــبط ما يريده البيض .. انهم يريدون طريقا كبيرا فى الغابة . الآن ليس عليهم إلا أن يتقدموا بمدفعيتهم فقط .

— عليك بقوة .. ارسل إليهم قوة لتضليلهم !

— إنى سافعل ما اشــاء .. اشكرك على النصيحة !

— ٦ —

وبدأ النهار يتقاصر ، وامسى الظلام يخيم على الكون فى الساعة الخامسة . وما إن اقترب الغسق حتى عبــر يورى الطريق الكبير ، حيث كان ليبريوس واقفا يتحدث مع «سفريد»

منذ بضعة ايام .. كان فى طريقه عائدا إلى المعسكر ، وبالقرب من المنطقة القاحلة الجرداء — حيث الهضبة وشجرة الدردار تحدان المعسكر — سمع صوت «كوباريخا» القوى المتحدى ، «كوباريخا» منافسته التى يسميها مستهزئا « طبيبة الماشية » ! كانت تغنى فى مرح وسرور ، وكان فى صوتها « بحة » عالية ، كانــه مجهــد .. وإذا كان لنــا ان نســتنتج من الضحكات المتواصلة وصلصلة الأجراس المستمرة ، لقلنا انه كان هناك جمع من الرجال والنساء ينصتون . ثم ساد الصمت والكون ، فلا بد ان الناس قد تفرقوا ..

وبعد ان تأكدت « كوباريخا » انها قد اصبحت وحدها ، اخذت تغنى اغنية اخرى ، فى رقة وعذوبــة ، وكأنهــا تغنى لنفسها .. وتوقف « يورى » الذى كان يسير فى حذر فى هذا الغسق ، فى المر الذى يحد المستنقع امام شجرة الدردار . وكانت الأغنية تتناهى إلى اذنيه كأغنية شعبية قديمة ، ولكنه لم يعرفها .. على انه ربما كانت « كوربايخا » ترتجل هــذه الأغنية من تلقاء نفسها .

والأغنية الشعبية فى روسيا ، قديما ، تشبه المــاء وهو يتدفق فى « عيون القناطر » : يبدو هادئا ســاكنا ، وهو فى اعماقه لا يكف عن الاندفاع خــلال الفتحــات ، وما هدوءه إلا ستار يغطى حقيقته !

وقد حاولت هذه الأغنية ، بكل وسيلة ممكنة — عن طريق التكرار والتشبيهات — أن تتوقف أو تهدىء من حدة موضوعها ، حتى وصلت إلى نقطة حاسمة ، وحينئذ كشفت نجاة عن نفسها .. وفى هذه المحاولة المجنونة لإيقاف تدفق الزمن ، إذا بروح حزينة تكظم غيظها ، وتجد الطريقة للتعبير من ذاتها ..

وكانت « كوباريخا » كأنها تغنى ، وكأنها تتكلم ، وهى تقول :

« كأرنب برى يجرى فى انحاء العالم ..

فى انحاء العالم .. على الثلوج البيضاء .

اخذ يعدو .. ذلك الارنب الأبيض ذو الأذنين المرتخيتين

امام شجرة الدردار ، واخذ يشكو لها :

اليس لى — انا الأرنب البرى ذو الأذنين المرتخيتين — قلب يخاف ،

يخاف الوحش الكاسر ..

الوحش الكاسر ، والذئب الجائع المفترس ؟

ارحمينى يا شجرة الدردار .. يا شجرة الدردار الجميلة

لا تهبى جمالك للعدو ، اللدود الغادر

العدو الغادر ، والصقر الشرير .

اقذفى بثمرات توتك الأحمر للرياح ..

اقذفى بها للرياح بكميات كبيرة ، ودعيها تحمل هذه الثمرات إلى بقاع العالم ، على الثلوج البيضاء ..

اقذفى بهم ، وابعثيها إلى مدينتى الحبيبة ..

إلى اقصى الشارع ، البيت الأخير ..

البيت الاخير فى الشارع ، آخر نافذة ، آخر حجرة ..

حيث يقبع فى وحدة تامة ..

حبى العزيز ، حبى الذى اتوق إليه

اهمسى فى اذن حبيبتى الملتاعة ، فى اذن عروسى الجميلة بكلمة دافئة حارة ..

انا جندى ، اتألم فى سجنى ..

مريض انا ، ذلك الجندى التعيس ، والقابع فى اماكن غريبة عنه لسوف اهرب من هذا السجن المرير ..

سأذهب إلى توتتى الحمراء ، إلى حبى الجميل .. » .

- ٧ -

وكانت اجافا — زوجة بامفيل — قد احضرت بقرتها العليلة إلى « كوباريخا » ، وتم عزل البقرة عن القطيع . وشدت إلى شجرة بحبل مربوط فى قرنيها ، وجلست صاحبتها على جذع شجرة عند قدميها الخلفيتين ، اما كوباريخا فقد جلست على كرسى صغير عند قدميها الأماميتين ..

اما بقية القطيع الذى لا حصر له ، فقد انحصر فى الممر . تحيطه من كل جانب الغابة الظلماء ، الغاصة باشجار الصنوبر المخروطية الشكل ، الطويلة كالتلال .. والتى تجعلها فروعها المنحدرة الكثيرة كانها جالسة على الأرض ..

وكانت الأبقار كلها سوداء وبيضاء ، وتنتمى إلى عائلة سويسرية مألوفة فى سيبريا . وكانت متعبة منهكة ، لا تقل فى ذلك عن اصحابها ، بسبب نقص الغذاء ، وبسبب الرحلات التى لا تنتهى ، وبسبب ضيق المكان الذى تعيش فيه . فكانت كل بقرة تحتك بالأخرى تشعر بالهياج وتنسى جنسها ، وتقف على قدميها الخلفيتين وتثب على ظهر الأخرى، ثم تجهد نفسها وهى تحمل ضروعها ، وتخور مثل الثيران . وتسرع العجول الصغيرة التى كانت راقدة تحت هذه الأبقار بالهروب مندفعة إلى الغابة ، وهى تهز ذيولها فى الهواء ، وتطأ العشب وفروع

الشجرة باقدامها .. وهنا يجرى الرعاة من اطفال ورجال خلفها ، وهم يصيحون بصوت عال ..

ثم إن السحب البيضاء والسوداء تتجمع وتضطرب كالأبقار تماما ، كما لو أن الدائرة الضيقة من قمم الأشجار — التى ترتفع فى سماء الشتاء فوق الممر — قد حصرتها وضيقت عليها الخناق ..

وتضايقت الساحرة من المتفرجين الذين كانوا يقفون على بعد منها ، واخذت تحدجهم من اعلى إلى اسفل بنظرات شريرة قاسية ، ولكن كان مما يضعف كرامتها كفنانة أن تعترف بانهم قد ازعجوها ، لذلك قررت الا تلقى إليهم بالا ، واخذ يورى يراقبها من خلف الجمع الكبير ، من غير أن تراه .

وكانت هذه اول مرة يستطيع أن يراها فيها ويملأ منها نظره ، وكانت تضع على راسها قبعتها التى اعتادتها ، وترتدى معطفها الأخضر ذا الياقة المتكسرة الذى حصلت عليه من الجيش البريطانى ، ولكن منظر التعالى والتعبير العاطفى الذى يكسو وجه هذه المراة العجوز فيعطيها حيوية الشباب ، كان ينم عن عدم اكتراثها بما ترتدى او لا ترتدى ..

وقد ادهش يورى ذلك التغير الذى طرا على زوجة

« بامفيل » ، فقد كانت عيناها تكادان تخرجان من محجريهما ، كما ان رقبتها كانت طويلة ونحيلة مثل يد العربة . لقد كبرت سنوات ، فى الأيام القليلة الماضيــة ، حتى أن « يورى » لم يعرفها إلا بصعوبة شديدة . وكان هذا كله نتيجة مخاوفهــا التى تعتمل فى نفسها ..

قالت « اجافا » : « ان هذه البقرة لا تدر لبنا .. اعتقد انها قد تكون تعانى من مرض فى فخذها .. » .

— ولمــاذا فى فخذها ؟ يمكنك ان تتاكدى من البثور التى يكونها الطاعون البقرى على ضرعها . ساعطيك بعض زيوت الأعشاب لتدلكى بها الضرع ، وطبعا سأهمس لهــا ببعض الكلمات ..

— ومشكلتى الأخرى هى زوجى ..

— سأستخدم الطرق السحريــة لاســتعيده لك حتى لا يهرب ، هذا أمر سهل .. سوف لا يفترق عنك ابدا ، حتى انك لن تستطيعى الخلاص منه .. ما مشكلتك التالية ؟

— إنه لا يهرب ، فهذا لا يهم .. المشكلة هى انه يتعلق بى وبالأطفال بكل طاقته وقوته ، وهــذا يحطم قلبه .. انى اعرف انه يفكر ، يفكر فى انهم سوف يقسمون المعسكر .. سيرسلوننا إلى مكان ويرسلونه إلى مكان آخر .. وســوف

نقع فى قبضة رجال « بساليجو » . ولن يكون هو هناك ، ولن يكون لنا احد يعضدنا ويقف بجوارنا .. وسوف يعذبوننا ، ويبتهجون لآلامنا ، انى اعرف افكاره ، واخشى ان يؤذى نفسه ..

— سافكر فى هذا الأمر .. سابحث عن سبيل لإنهاء احزانك .. ما هى مشكلتك الثالثة ؟

— ليس لى مشكلة ثالثة .. هذا كل ما هنالك : بقرتى، وزوجى ..

— إنك فقيرة فى احزانك يا عزيزتى .. إن الله رحيم بك ، من الصعب العثور على مثلك .. إنك مثل إبرة فى كومة من القش .. مشكلتان فقط فى قلبك .. إحداهما زوج محب غيور .. حسنا .. لنبدأ .. ماذا ستعطيننى من اجل البقرة ؟

— ماذا تريدين ؟

— اريد رغيفا من الخبز .. وزوجك ..

وهنا ضج المتفرجون بالضحك ..

— اتمزحين ؟

— اهــذا كثير ؟ .. حســنا .. لا داعى للرغيف .. سأقتصر على زوجك ..

فارتفع الضحك ..

— ما الاسم .. ؟ اسم البقرة ، لا اسم زوجك .. !

— « بيوتى » ..

— نصف القطيع يسمى بهذا الاسم .. نبدا بشكر الله ..

وبدات تتلو الأدعية السحرية للبقرة . والحقيقة انها كانت فى اول الامر مهتمة بالبقرة ، ولكنها بعد لحظة بعدت عن الموضوع ، واخذت تعطى لزوجة « بامفيل » — « اجاثا » — تعليمات عن السحر .. واخذ « يورى » ينصت وهو مشدوه ، كما كان ينصت — عندما وصل لأول مرة إلى سيبيريا قادما من روسيا الأوربية — إلى الحديث الرقيق من السائق « باكوس » ..

وكانت المراة تقول :

— يا عمتى مارجستا .. تعالى وانزلى ضيفة علينا .. تعالى يوم الاربعاء .. ازيلى المرض .. وازيلى السحر .. وازيلى الجرب والاسقربوط .. اما انت ايتها الدودة الحلقية ، فاتركى ضرع العجلة الصغيرة .. ويا ايتها البقرة ، اثبتى فى مكانك ، قومى بواجبك .. لا تقلبى دلو الحليب .. اثبتى فى مكانك كالتل .. دعى اللبن يجرى وينساب . ويا ايها الرعب،

اظهر قوتك وشجاعتك .. اعمل على إزالة فساد الدم .. ازل الجرب .. والق به بعيدا .. إن كلمة الساحر ذات قوة عظيمة كقوة الحاكم ..

« من هذا ، يا عزيزتى « اجاثا » ، يجب ان تعرفى كل شىء : كيف تأمرين ، كيف تمنعين . تعرفين الكلمات التى تعمل على هروب الأرواح الشريرة ، والكلمات التى تعمل على الطمانينة والهدوء . عليك أن تعرفى معنى كل شىء . فمثلا انت .. انك تنظرين هنالك وتقولين لنفسك : «ها هى ذى الغابة» .. ولكن الذى هنالك هو قوى الشر تصارع قوى الخير والملائكة ، إنها فى حرب .. مثل رجالك مع رجال « بساليجو » ..

« او خذى مثلا آخر .. انظرى إلى حيث اشير باصبعى .. انك تنظرين إلى طريق آخر يا عزيزتى .. استخدمى عينيك .. لا خلف راسك .. انظرى إلى حيث اشير باصبعى .. مضبوط .. والآن ، ماذا تظنين هذا الشىء ؟ تعتقدين انه فرعا شجرة تشابكا مع بعضهما بفعل الرياح ؟ .. او طائرا يبنى عشه ؟ .. انه لا هذا ولا ذاك .. ان هذا الشىء الذى ترينه هناك ما هو إلا لعبة من لعب الشيطان .. انه اكليل من الزهور بدات ربة الماء فى صناعته لابنتها ، ثم انزعجت لما سمعت الناس تغدو وتروح، ولهذا تركته دون ان تتمه ، ولكنها ستنتهى منه فى إحدى الليالى ، وسترين ذلك بنفسك .

« ومثلا آخر .. شعارك الأحمر .. تعتقدين انه علم . اليس هذا ما تعتقدينه ؟ انه ليس علما .. إنه المنديل الأرجوانى للمراة التى ماتت . إنها تستخدمه للإغراء . ولماذا للإغراء ؟ إنها تلوح به ، وتومىء ، وتغمز ، وتفتن الشباب ليأتى ويموت، وحيئذ ترسل المجاعة والطاعون .. هذا هو الشعار الأحمر . وقد اعتقدت انه علم ، واعتقدت انه يقول : « تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وانا اريحكم » .

« إن عليك ان تعرفى كل شىء فى هذه الأيام يا عزيزتى « اجاثا » .. كل شىء .. عن الطائر .. وعن الأحجار .. وعن الأعشاب .. فمثلا هذا الطائر هو «الزرزور» .. وهذا الحيوان هو « عناق الأرض » ..

« والآن ، شىء آخر .. لنفترض انك فكرت فى شخص اخبرتنى به .. ساجعله يحبك ، مهما كان هذا الشخص .. سواء اكان « فورستر » الذى يسيطر عليكم .. ام كولشاك ، ام الامير ايفان ! . انك تعتقدين الآن انى ابالغ ؟ الحق انى لا افعل ذلك .. انظرى ، ساحدثك بكل شىء .. عندما يأتى الشتاء بثلوجه واعاصيره ورياحه التى تتسابق فى الحقول ، ساضرب بسكين فى عمود من هذه الثلوج حتى مقبضها ، وعندما استلها من الثلوج ستكون حمراء من الدم .. هل سمعت بمثل هذا . ؟ اتسالييننى كيف يأتى هذا الدم من ثلوج

ليست مصنوعة إلا من الرياح والماء ؟ هذا هو الواقع يا عزيزتى .. إن هذه الثلوج ليست رياحا وماء .. إنها إنسان انقلب « ذئبا » .. ساحر فقد طفله ، فهو يبحث عنه .. انه يمضى فى الحقول يصيح ويبحث عنه .. وهذا هو ما غمست فيه سكينى .. وهذا هو السبب فى ان الدماء علقت بها .. والآن ، بسكينى هذه استطيع ان اعرف آثار اقدام اى رجل ، واستطيع أن أخيطها على قميصك بخيوط من حرير ، وسوف يتبعك هذا الرجل مهما كان — سواء اكان «كولشاك» ام « ستريلنيكوف » ام اى قيصر جديد نصبوه — خطوة خطوة حيثما تذهبين .. او ظننت اننى كذبت عليك ؟ .. او تؤمنين بالقول : « تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وانا اريحكم » ؟

« وهناك اشياء كثيرة اخرى .. مثل الأحجار التى تتساقط من السماء ، حتى ان الرجل يخرج من منزله فتتساقط الأحجار عليه كالمطر .. او — كما راى البعض — الفرسان الذين يمتطون خيولهم عبر السماء ، وحوافر الجياد تصطدم باسطح المنازل .. او كما تنبأ السحرة فى الماضى فقالوا : « فى هذه المراة يوجد قمح ، وفى تلك عسل ، وفى ثالثة بعض اللحوم » ، ثم أن الفارس فتح كتف المراة كانه علبة مجوهرات، وبسيفه اخرج من كتفها ما شاء من قمح او عسل .. ! » .

الحق انه ما من مشاعر قوية عميقة ــ مثـل تلك التى تعترض طريقنا فى الحياة ــ إلا وتمتزج بعاطفة من الرثاء لآلام الآخرين . فكلما ازداد حبنا ، بدا لنا ان موضوع حبنا فريسة وضحية ، وفى بعض الأحيان نجد ان عطف الرجل على المرأة ورثاءه لحالها يفوقان كل حـد ، ثم إن خياله يبعدها عن عالم الأحداث الممكنة ويضعها فى مواقف لا يمكن مواجهتها ابدا فى الحياة ، فهـو يراها تحت رحمة الهـواء المحيط ، وقوانين الطبيعة ، والأجيال التى سبقتها ..

وكان « يورى » قـد تأكد أن الكلمات التى فاهت بهـا كوباريخا اخيرا كانت افتتاحيـة قصة قديمـة ــ اما قصـة « نوفجورود » أو قصة « أباتيفو » ــ ولكنها شوهت بسبب الأخطاء التى وقع فيها الرواة واخطـاء الشـعراء المغنين والسحرة ، حتى ان معناها الحقيقى قد ضاع .. ولكن لمـاذا أثارته هذه الصور التى لا معنى لها ، والتى وصلت مشوهة بهذه الطريقة ، وجعلته يتصور احداثا حقيقية ؟

.. يتصور كتف « لارا » اليسرى نصف مفتوحـة .. فتح السيف كتفها كما يفعل المفتـاح إذ يدور فى قفـل خزانة سرية .. فتح السيف كتفها ، بل وفتح مغاليق روحها ، فكشف الأسرار التى بها .. ذكريات عن مدن غريبة ، وشـوارع ، وحجرات، ومناظر ريفية بديعة طافت كفيلم او كخيط طويل ..

ولكم احبها فى صدق ، ولكم كانت جميلة حلوة ، كما كان دائما يفكر ، وكما كان يحلم، وكما كان يريد .. ولكن ، ما الذى جعلهام حلوة هكذا ؟ . اهو شىء يمكن ان يسمى او يوضع فى قائمة من الصفات ؟ .. لا ، والف مرة لا .. إنما كانت حلوة بفضل الخطوط السريعة البسيطة التى لا يضارعها فيها احد ، والتى رسمها الخالق حولها .. وفى هذا الإطار المقدس دخلت ــ كطفل ملفوف فى ملاءة ، بعد استحمامه ــ إلى اعماق نفسه وروحه ..

وماذا حدث له الآن ، حيث هـو ؟ .. انه فى صـحراء سيبريا ، مع الأنصار ، حيث يحوطهم العدو من كل جانب ، وحيث يشاركهم مصيرهم وأقدارهم .. يا لها من مشـكلة غامضة لا يصدقها العقل ! وشعر يورى بضباب يغلف عقله ، واسود كل شىء امام عينيه .. وفى تلك اللحظة سقط مطر خفيف بدلا من الثلوج التى كان من المتوقع ان تسقط ، ومثل شعار عظيم يمتد من احد جانبى شارع من شوارع المدينة إلى الجانب الآخر ، بدت املمه فى الهواء من احد جوانب الممر فى الغابة إلى الجانب الآخر ، الصورة المكبرة لراس محير مقدس .. وكان الوجه يبكى ، وغمر المطـر الصورة بقبلاتـه ومائه . قالت السـاحرة لـ « أجاثا » : « امضى الآن .. لقـد شفيت لك بقرتك بالسحر ، وسوف تتحسن .. صـلى لأم الإله ، مركز الاشعاع والنور ، وكتاب الكلمة الحية المقدسة .. » .

- ٨ -

كان القتال دائرا على الحدود الغربية للغابة ، ولكن الغابة كانت كثيفة ، حتى ان المعارك كانت تشبه حرب الحدود على أطراف المملكة ، وكان المعسكر المختفى فى وسطها مكتظا بالناس ، حتى انه كما يبدو ان هناك الكثير منهم ، حتى بعد أن ذهب عدد كبير منهم للقتال ..

وكان صوت المعارك البعيدة لا يصل إلى المعسكر ، وفجأة دوى فى الصحراء عدد من الطلقات ، وتحولت فى الحال إلى طلقات سريعة متلاحقة ، فهرع الناس إلى خيامهم او عرباتهم ، وبدأ تحرك عام، واسرع كل شخص يحمل متاعه ..

ثم اتضح انها معركة زائفة .. ولكن جمهورا غفيرا من الأنصار انطلق إلى المكان الذى اتى منه صوت الطلقات ، حيث تجمعوا حول رجل جريح راقد على الأرض والدم يغمر نصفه الاسفل ، وقد قطعت ذراعه اليمنى ورجله اليسرى .. ولم يكن من المصدق كيف زحف إلى المعسكر بذراعه ورجله الباقيتين ، وكانت ذراعه ورجله المقطوعتان مربوطتين إلى ظهره والدماء تنزف منهما ، مع لوحة خشبية صغيرة عليها بعض كلمات عن الهجوم ، وبيان بأن هذه الاعمال الوحشية رد على اعمال وحشية ارتكبتها وحدة حمراء ، وحدة ليس لها

اى صلة باخوة الغابة ، وإنذار بان هذه المعاملة ستطبق على كل الانصار ، ما لم يرضخوا فى تاريخ يحددونه ويسلموا سلاحهم إلى ممثلى جيش الجنرال « فيتزن » ..

ورغم ان الرجل المحتضر اغمى عليه لكثرة ما نزف من الدم ، فقد حدثهم — فى صوت متقطع — عن التعذيب والتنكيل الذى تقوم به قوات « فيتزن » التى تشرف على التحقيق والعقاب . وقد الغى الحكم عليه بالاعدام ، وبدلا من شنقه تطعوا رجله وذراعه لكى يرسلوه إلى المعسكر فيثير الفزع والرعب بين الأنصار ، وقد حملوه إلى قرب المعسكر حيث الحرس ، وهناك وضعوه على الأرض وامروه بأن يزحف ، وجعلوا يحثونه على ذلك بإطلاق النيران فى الهواء .

لكنه لم يستطع ان يحرك شفتيه بسهولة ، وانحنى الواقفون حوله لينصتوا إلى كلماته ، فدار بينه وبينهم هذا الحديث :

— انظروا ايها الرفاق .. لقد اجتاز المنطقة ..

— لقد خرج رجال الشرطة فى قوة كبيرة .. هناك معركة كبيرة تدور سنقبض عليه .

— هناك ثغرة .. إنه يريد ان ينقض عليكم . انى اعرف .. انى لا استطيع ان اواصل حديثى .. لقد انتهيت .

— استرح قليلا .. اهدا .. الا ترون ان هذا يؤذيه أيها السفاحون ؟

واستأنف الرجل حديثه مرة اخرى :

— .. ومضى يهددنى .. هذا الشيطان . لقد قال : « سوف تستحم فى دمك حتى تخبرنى من انت » .. واضطررت ان اخبره اننى إنسان هجر جيشه .. لقد كنت اجرى منه إليكم ..

— من هذا الذى اخذ يهددك ؟

— دعونى أتنفس .. سوف أخبركم .. ان زعيمهم رجل يدعى « بيكشين » ، ومرؤوسه « ستريس » ، ثم هناك رجال « فيتزن » .. انكم لا تعلمون هنا كيف الحال هناك .. ان المدينة كلها تتالم .. إنهم يضعون الناس فى الماء المغلى وهم احياء . ثم يقطعون من لحومهم قطعا .. انهم يأخذونك من قفاك ويدفعون بك إلى الداخل .. وانت لا تعلم اين انت . إن المكان الذى يقذفون بك فيه اسود فى لون القار .. وتتلمس المكان بيديك . إنك فى قفص فى داخل عربة من عربات السكة الحديد .. وهناك اكثر من اربعين شخصا فى القفص ، كلهم بملابسهم الداخلية .. ومن وقت لآخر يفتحون الباب ويسحبون إلى الخارج من يجدونه امامهم .. انهم

يسحبونك ويمسكون بك مثل دجاجة يريدون ذبحها .. انى اقسم بالله .. البعض يشنقونه ، والبعض يضربونه بالقضبان الحديدية، والبعض يستجوبونه ويحققون معه. انهم يضربونك حتى ليتمزق جلدك، ثم يضعون الملح على الجروح .. ثم يصبون عليك ماء يغلى .. وعندما تتقيأ يجبرونك على التهام ما تتقياه .. أما بالنسبة للأطفال والنساء ، فيالله !

وكان الرجل التعس يلتقط آخر انفاسه .. وصاح .. ثم مات دون ان يكمل قصته ! .. لقد عرفوها كلهم فى الحال ، وخلعوا قبعاتهم ترحما عليه ، ثم رسموا علامة الصليب .

.. وفى تلك الليلة ، سرت انباء فى ارجاء المعسكر عن حادث اشد فظاعة وهولا .. وكان بامفيل احد الذين يحيطون بالرجل الذى مات .. لقد رآه وسمع كلامه وقرا البيان التهديدى على اللوحة ..

ووصل خوفه المستمر على عائلته فى حالة موته إلى الذروة مرة اخرى .. فقد رآهم فى خياله وقد تسلمهم العدو واخذ يعذبهم تعذيبا بطيئا ، ورأى وجوههم وقد شوهها الألم ، وسمع آهاتهم وصراخهم من اجل العون والمساعدة . وفى غمرة احزانه واليأس القاتل الذى شمله ، ولكى يحول بينهم وبين ما سوف يعانونه فى المستقبل ، ولكى ينهى حياته

ومستقبله ، فتلهم بنفسه .. بأن هوى على زوجته واطفاله الثلاثة بالفأس ذات النصــل الحاد ، نفس الفأس التى كان يستخدمها فى نحت اللعب لابنته وولده الذى كان اثيرا لديه !

والشىء المدهش انه لم يقتل نفســه حالا بعــد ذلك ، وتعجب « يورى » ماذا يمكن ان يفكر فيه غير ذلك .. إلى اى شىء يتطلع ؟ .. ما نواياه .. وما خططه ؟ .. الواضح ان حياته قد انتهت ، وكان واضحا ايضا انه اصيب بالجنون ..

وبينما كان ليبريوس ويورى واعضــاء مجلس الجيش يبحثون قضيته ، ويتناقشــون فيما يفعلونه معــه ، كان هو يتجول فى حرية تامة حول المعسكر ، مطاطىء الراس ، وعيناه الصغيرتان القذرتان تومضان دون أن تريا شــيئا .. وظلت الابتسامة الغامضة الباهتة — من الألم المبرح الذى يفوق طاقة البشر — لا تفارق وجهه ..

ولم يأســف من اجله احد ، وتجنبه كل فــرد ، وقــال بعضهم انه لا بد من قتله ، ولكنهم لم يحصلوا على تاييد كامل لوجهة نظرهم ..

ولم يكن هناك اى شىء فى العالم ليفعله ، وعند الفجر اختفى من المعسكر ، هاربا من نفسه ككلب مسعور .. .

— ٩ —

واشتدت وطأة الشتاء وصقيعه المؤلم، فكانت الأصوات المضطربة الممزقة تنبثق من الضباب المشحون بالثلج ، والذى كان يتوقف لحظة ثم يتحرك ويختفى . ولم تكن الشمس هى الشمس التى اعتادتها الأرض ، بل كانت شمسا مغايرة ، كان قرصها القرمزى معلقا فــوق الغابة ، تشع منــه إشعاعات صفراء باهتة فى جمود وبطء ، كاننــا فى حلم ، او فى قصــة خرافية ..

ثم كانت هناك اقدام غير مرئية ترتدى احذية طويلة ، وتسير على الأرض فى رفق وهدوء بنعلين رقيقين ، ومع ذلك تجعل الثلج يئن غضبا ، فى كل خطوة ، وتخطو فى كل اتجاه ، بينما اجسام اصحابها التى يغطيها الفراء تمخر عباب طبقات الهواء العليا منفصلة ، كاجساد سماوية ..

وكان الأصدقاء يتوقفون ويتكلمون، ووجوههم مقتربة من بعضها ، وهى صافية نقية كأنهم قد خرجوا من الحمام للتو ، اما ذقونهم فتشبه « اللوف » المثلج .. وكانوا يزفرون سحبا كثيفة من البخار ، لا تتوافق مع الكلمات المتقطعة التى كانت تصاحبها .. وتقابل يورى مع ليبريوس وهو يسير فى المر ، فاوقفه ليبريوس قائلا :

— هالو ! تعال معى إلى مخباى هـذا المساء .. امكث معى هذه الليلة ، سنتحدث حديثا طيبا . هناك بعض الأخبار ..

— هل عاد الرسول ؟ هل هناك انباء من « فاريكينو » ؟

— لا شىء هناك عن اهلك ، ولا عن اتباعى .. وهـذا يجعلنى اصل إلى نتيجة مطمئنة ، وهى أنهم لا بد قد هربوا فى الوقت المناسب ، والا لسمعنا شيئا عنهم .. سوف نتحدث عن ذلك الليلة ، لقد كنت اتوقعك ..

وفى المساء ، وهو ينزل إلى المخبا ، اعاد « يورى » سؤاله :

— ماذا سمعت عن عائلاتنا ؟ اخبرنى بهذا فقط ..

— إنك لا تحب أن ترى ابعـد من انفك .. إنهم — على قـدر ما اعلم — فى امان وطمانينة .. خـذ قطعـة من اللحم المثلج ..

— لا ، شكرا .. استمر الآن ولا تغير الموضوع ..

— هل انت متاكد من انك لا تريد لحما ؟ .. حسنا .. سالتهم قطعة ، رغم ان الخبز والخضروات هى الأشياء التى نحن فى حاجة إليها حقـا .. إن مرض الاسقربوط منتشر ..

كان يجب ان نحتفظ بكثير من الجوز والتوت فى الخريف الماضى، عندما كانت النساء موجودة لجمعها .. حسنا ، إن شئوننا فى تحسن . إن ما تنبأت به يتحقق : لقد زال الشر ، وقـوات كولشاك تتقهقر على طول الخط . إنهم يضمحلون .. ارايت ؟ .. ماذا كنت دائما اقول لك ؟ .. هل تذكـر انك كنت تئن وتتاوه ؟

— متى كنت اتاوه ؟

— على الدوام ، وخصوصا عندما كانت قوات «فيتزن» تطاردنا .. واستعاد « يورى » فى ذاكرته فصـل الخريف ، وضرب الثوار ، وقتل « بامفيل » لزوجته واطفاله ، والورطة القاتلة التى لا تبدو لها اية نهاية ، فالبيض والحمر يتنافسون فى أعمال العنف والقسوة ، وفى اعمال الوحشـية ، والهياج يولد الهيـاج .. وكانت رائحة الدم تملأ أنف يورى وحلقه ، وكانت تخنقه وتضايقه ، وكانت تجعل راسه يدور وعينيـه تسبحان .. ولم يكن هـذا تاوها ، كان شيئا مغايرا لذلك ، ولكن كيف يفسره ويوضحه لـ « ليبريوس » .

واوقدت مشاعل المخبا المصنوعة من العصى الصـغيرة الموضوعة فى مقبض معدنى ، ثم انطلقت من الفحم النبـاتى رائحة ذات عبير . وكلما احترقت عصا صغيرة ، كان الرماد

يتساقط فى قدح من الماء فى اسفل المقبض . واضاء ليبريوس عصا اخرى ..

— انظر ماذا على ان اشعل ؟ ليس هناك مزيد من الزيت ، والخشب جاف جدا ويحترق بسرعة .. الا تريد ان تحصل على قطعة من لحم البقر ؟ .. ماذا تنتظر ؟ هل تريد عقد اجتماع كى تعطينا محاضرة عن الاسقربوط ووسائل علاجه ؟

— لا تعذبنى بربك .. ماذا تعرف حقا عن عائلاتنا ؟

— لقد اخبرتك .. وليس فى التقرير شىء معين .. ولكنى لم انته من الحديث إليك عما علمت من البيانات التى صدرت اخيرا .. لقد انتهت الحرب الأهلية ، وسحقت قوات كولشاك ، والفرقة الرئيسية فى الجيش الأحمر تطارده الآن ، انها تطارده تجاه الترعة على امتداد السكك الحديدية إلى البحر ، وقسم آخر من الجيش يمضى فى هذا الطريق ، ونحن نتجمع الآن لسحق الفلول المتناثرة للبيض فى المؤخرة ، وقد تم تطهير جنوب روسيا كله من العدو .. لماذا لا تفرح إذن ؟ الا يكفيك هذا ؟

— إنى مسرور ، ولكن اين عائلاتنا ؟

— ليست فى « فاريكينو » ، وهذا شىء جميل .. وليس

هناك ما يؤكد الأفعال الجنونية التى اخبرك بها « كامينودفورسكى » . هل تذكر الاشاعات التى سرت فى الصيف الماضى عن أن بعض الأجانب يغيرون على «فاريكينو» ؟ كنت دائما اعتقد انها كلام فارغ .. وعلى كل حال فقد هجر القرية ساكنوها ، فصارت تبدو كما لو أن شيئا قد حدث بعد ذلك كله .. وانه لشىء جميل أن يخرجوا فى الوقت المحدد كما فعلوا .. هذا ما يعتقده السكان القليلون الذين ظلوا فى القرية ، طبقا للمصدر الذى استقى منه الأنباء .

— وماذا حدث فى «يورياتين» ؟ من الذى يسيطر عليها ؟

— هذه قصة اخرى ، ولا يمكن أن تكون صحيحة ..

— ما هذه القصة ؟

— يقولون إن البيض ما زالوا هناك ، ولكن هذا مستحيل . سأريك ، وسترى بنفسك ..

ثم وضع فى المقبض عصا خشبية اخرى صغيرة ، وجاء بخريطة ممزقة فبسطها حتى صارت المنطقة التى كان يتحدث عنها إلى اعلى ، واخذ يشرح الموقف والقلم فى يده :

— انظر .. كل هذه قطاعات ابعد عنها البيض : هنا .. وهنا .. وهنا .. كل هذه المنطقة .. هل تتابع حديثى ؟

— نعم ..

ـ لذلك لا يمكن ان يكونــوا فى اى مكان بالقــرب من «يورياتين» ، ذلك لأنهم إن وجدوا ـ ومواصلاتهم مقطوعة ـ فلا بد ان يقعوا فى الأسر . وحتى قوادهم لا يمكن ان يكونوا بهذه الدرجــة من الغباء ، فأى طفــل يمكن ان يدرك ذلك . لمــاذا ترتدى معطفك ؟ .. إلى اين انت ذاهب ؟

ـ ساعود بعد لحظة . إن هنا دخانا كثيرا ، وقد اصبت بصداع . ساخرج لأستنشق بعض الهواء ..

وعندما خرج يورى ، مسح الثلج عن الكتلة الخشبية التى تستخدم مقعــدا فى مدخل المخبأ ، وجلس : مرفقاه على ركبتيه ، ورأســه بين يديه ..

وانمحى من عقله كل شىء عن الغابة ، والمعســكر ، والشهور الثمانية عشرة التى قضاها بين الانصار . لقد نسى كل شىء عنها ، وملأت عقله ذكريات اطفاله الأعزاء فزاحمت كل ما عداها ، وحاول ان يتنبأ بمصيرهم ، ومرت الصور أمام مخيلته ، فكانت كل واحدة منهــا اشــد إزعاجــا وهولا من الأخرى :

هنا كانت « تونيــا » تسير عبــر الحقل فى العاصــفة الثلجية ، ومعها « ســاشا » بين ذراعيهــا ، وكانت تلفه فى ملاءة ، وقدماها تغوصان فى الثلوج العميقة . وكانت تسحب نفسها مستخدمة كل طاقتها وجهدها ، ولكن العاصفة الثلجية

كانت قوية ، فتعثرت وســقطت ، ثم قامت فى حالة ضــعف شديد ، حتى ان قدميها لم تعودا تقويان على حملها ، وكانت الريح تصفعها والثلوج تغطيها .. أواه .. إنه ينسى .. كان معهــا طفلان : « ساشا » والطفل الصغير .. وكانت يداها الاثنتان مشغولتين ، مثل ايدى هؤلاء اللاجئين فى « شيليمكا » الذى انفجروا من اليأس والتوتر ..

كانت يداها ممتلئتين مشغولتين ، ولم يكن هناك احــد بالقرب منها يساعدها . لقد اختفى والد « ساشا » ، ولا يعلم احد اين هو . لقد كان بعيدا ، وكان دائما بعيدا عنهم . كل حياته عاشها بعيدا عنهم .. اى نوع من الآباء ذاك ؟ .. هل يمكن لأى اب حقيقى ان يظل دائما بعيدا عن عائلته .. ؟ وماذا عن ابيها هى ؟ اين « الكسندر الكسندروفيتش » ؟ ونيوشــا ؟ .. والآخرون ؟ .. من الأفضل الا تسأل .. والا تفكر فى هذه الأمور ..

وقام « يورى » من مجلســه واتجه عائدا إلى المخبأ ، وفجأة اتخذت افكاره اتجاها مغايرا ، وغير رايه بشأن العودة إلى ليبريوس ..

وكان منذ مدة طويلة قد احتفظ بزوج من مزالق الثلوج ، وحقيبة من البسكويت ، وبعض اشياء اخرى ـــ فقد يحتاج

إليها إن سنحت له فرصة للهرب — وكان قد دفن كل ذلك فى الجليد خارج المعسكر ، اسفل شجرة طويلة من اشجار الصنوبر ، ووضع على الشجرة علامة . والآن سار على امتداد ممر المشاة بين الثلوج ، متجها إلى كنزه المدفون ..

وكانت ليلة صافية ، والقمر مكتملا ، وكان يعلم أين يقف الحراس فى مراكزهم . فاستطاع ان ينجح اول الأمر فى تجنبهم ، ولكن ما إن وصل إلى المكان المعد للزراعة — حيث الربوة وشجرة الدردار — حتى ناداه أحد الحراس من بعد ، ثم وضع فى قدميه مزالق الثلوج ، وانطلق نحوه مسرعا ..

— وقف وإلا اطلقت عليك الرصاص ! من انت ؟ كلمة السر ..

— ماذا حدث لك يا رجل .. ؟ الا تعرفنى؟ .. انا طبيب المعسكر دكتور جيفاجو ..

— آسف ايها الرفيق « زلفاك » .. لم اعرفك .. لست اقصد اى إهانة . وعلى كل حال ، سواء كنت « زلفاك » أم غير «زلفاك» فلن اسمح لك بالتقدم .. الأوامر هى الأوامر ..

— كما ترغب . كلمة السر هى « سيبريا الحمراء » .. والرد هو « فليسقط من يحبذون التدخل » !

— هذا جميل .. امض فى طريقك .. عم تبحث فى هذا الوقت من الليل ؟ هل هناك مريض ؟

— كنت عطشان ، ولم استطع النوم .. وقد احببت ان اخرج لأستنشق ببعض الهواء ، وانعش نفسى بالثلج .. ولكنى رايت شجرة الدردار وتوتها المثلج عليها ، فوددت ان اذهب إليها لأقطف بعض ثمراتها ..

— إن هذا غباء .. من سمع بالتقاط ثمار التوت فى الشتاء ؟ .. ثلاث سنوات ونحن نتحمل سخافات الخاصة ، ولكنهم ما يزالون كما هم .. حسنا .. امض والتقط ما شئت من التوت أيها المجنون .. ماذا يهمنى ؟

وكما جاء الحارس سريعا ، عاد يجرى .. منزلقا على الجليد الذى لم يطاه احد إلى مسافة بعيدة ، فيما وراء اعشاب الشتاء العارية ..

وسار يورى فى ممر المشاة حتى اسفل شجرة الدردار التى تحدث عنها منذ لحظات ..

وكان نصفها مغطى بالثلوج ، والنصف الآخر بالأوراق والتوت المجمد . وكانت تمد فرعين ذوى لون ابيض كانهما ترحب بالقادمين .. وتذكر يورى ذراعى « لارا » القويتين البيضاوين ، وامسك بالفرع وجذبه إليه ، فاسقطت الشجرة كل الثلج عليه ، كانها ترد عليه ، فتمتم بلا شعور :

ــ سأجيء إليك يا جمــالى .. يا حبى .. يا شــجرة الدردار .. يا حياتى ، يا دمى ولحمى ..

وكانت ليلة صافية ، والقمر مكتملا .. وظل يشق طريقه فى الغابة ، نحو الشجرة التى وضع عليها العلامة .. ثم حفر فى الأرض ، واخرج كنزه الذى وضعه فيها ..

وغادر المعسكر ..

أنتهى الجزء الثالث ويليه بمشيئة الله

الجزء الرابع

المطبعــة العربيــة الحديثــة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفــون : ٨٢٦٢٨٠ القــاهرة

مطبوعات كتابى
إصـــدار جـــديد

عزيزى القارئ ..

فى الكتابين السابقين ، قدمت لك الجزأين الأول والثانى من ملحمة العصر هذه (دكتور چيڤاجو) لمؤلفها الأديب السوفييتى المعاصر (بوريس باسترناك) . واليوم أزيدك معرفة بهذا المؤلف العظيم الذى ولد فى موسكو فى عام ١٨٩٠ ، وبعد أن تلقى العلم فى بلاده قام برحلات عديدة إلى خارجها ، كما نال قسطًا من العلم والدراسة فى ألمانيا .. وهكذا أتيح للصبى (بوريس) منذ حداثته ، أن يحظى بخلفية فنية وأدبية كانت غذاء لعقله وروحه ، فلم يكد يبلغ سن الثانية عشرة حتى شرع ينظم الشعر ، وفى السنوات الثلاثين الأولى من القرن الحالى ، أفرد أكثر وقته لترجمة أعمال شكسبير إلى اللغة الروسية ، فوجد فى ذلك سلواه وعزاءه ، سيما وأنه تبين أن اتجاهات الثورة البلشفية لم تكن تتفق مع آرائه وأحلامه ، حتى لقد قيل إنه كان يقصد ستالين بما كتبه عن (الملك لير) فى تحليله لشخصيته فى صدر ترجمته لهذه المسرحية من أعمال شكسبير . فلما مات (ستالين) ، عكف (باسترناك) على تأليف ملحمته هذه (دكتور چيڤاجو) ، التى أراد بها أن يصور ما كان يكتمه فى نفسه ، وأن تكون « شهادة صدق عن العصر الذى عشت فيه » ، على حد تعبيره .

حلمى مراد

